دروس

توضيحية

من

علوم القرآن

إعداد

الشيخ طالب الساعدي

هوية الكتاب

اسم الكتاب:.... دروس توضيحية من علوم القرآن

الكاتب:........................الشيخ طالب الساعدي

الإخراج:..................السيد حسين مسلم القابچي

الطبعة:.................................... الاولى

سنة الطبع:................................ ٢٠١٥م

عدد النسخ:............................ ١٠٠٠ نسخة

إهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى صاحب العصر والزمان الإمام المهدي المنتظر (عجل الله فرجه الشريف) عسى الله أنْ يتقبل مني ، وأنْ يسهل لنا طريق الإخلاص في السير الى طاعته، وطلب مرضاته.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على حبيب إله العالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين...

لا يخفى ما لأهمية علوم القرآن، وخاصة لدارسي العلوم الدينية، وقد انتخبنا كتاب علوم القرآن للسيد محمد باقر الحكيم ﷳ مادةً دراسية في مدرسة أهل البيت عليهم السلام والكتاب عبارة عن مجموعة محاضرات للمصنف، وكذلك للسيد الشهيد محمد باقر الصدر ﷳ وقد حاولت ترتيب الكتاب، وتنظيمه، واختيار أهم مواضيعه، وتوضيحها، وصياغتها بأسلوب السؤال والجواب، بمجموعة من الدروس، بلغت عشرين درساً، وذلك من أجل التسهيل وتبسيط مسائل هذا العلم .

الشيخ طالب الساعدي

الدرس الأول

وفيه

عدة أبحاث

القرآن وأَسماؤه

علوم القرآن

أسباب النزول

الفائدة من معرفة أسباب النزول

القرآن وأَسماؤه

القرآن الكريم: هو الكلام المعجز المنزل وحياً على النبي ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول عنه بالتواتر المتعبد بتلاوته. وقد اختار اللّه تعالى لهذا الكلام المعجز الذي أوحاه إلى نبيه أسماء مخالفة لما سمى العرب به كلامهم جملة وتفصيلاً.

س١: ما أسماء القرآن الكريم في كتابه الله الكريم؟

ج: ذُكر في الكتاب الكريم أسماء عدة:

١- فسماه الكتاب قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [١].

وفي تسمية الكلام الإلهي بـ(الكتاب) إشارة إلى الترابط بين مضامينه ووحدتها في الهدف والاتجاه، بالنحو الذي يجعل منها كتاباً واحداً.

ومن ناحية أخرى يشير هذا الاسم إلى جمع الكلام الكريم في السطور، لان الكتابة جمع للحروف ورسم للألفاظ.

٢- وسماه القرآن ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢] .

وأما تسميته بـ(القرآن) فهي تشير إلى حفظه في الصدور نتيجة لكثرة قراءته، وترداده على الألسن. لان القرآن مصدر القراءة، وفي القراءة استكثار واستظهار للنص.

فالكلام الإلهي الكريم له ميزة الكتابة والحفظ معاً، ولم يكتف في صيانته وضمانه بالكتابة فقط، ولا الحفظ والقراءة فقط لهذا كان كتاباً وقرآناً.

---

[1]- البقرة:٢.

[2]- يونس:٣٧.

٣- ومن أسماء القرآن أيضاً (الفرقان) قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾[١]. ومادة هذا اللفظ تفيد معنى التفرقة، فكأن التسمية تشير إلى أن القرآن هو الذي يفرق بين الحق والباطل، باعتباره المقياس الإلهي للحقيقة في كل ما يتعرض له من موضوعات.

٤- ومن أسمائه أيضاً (الذكر). ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ ، ومعناه الشرف، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ .

س٢: ولكن هناك أسماء ذكرت في القرآن الكريم كالمجيد، والعزيز، والعلي، في قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴾[٢]،﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [3]، ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [4]؟

ج: إنما ذكرت على سبيل الوصف لا التسمية، ونحن في مقام ذكر الأسماء لا الأوصاف.

س٣: ما الوجه في الاهتمام بوضع أسماء محددة ومصطلحات جديدة للقرآن الكريم؟

ج: وذلك لأمور عدة:

١- تحديد طريقة جديدة للتعبير عما جاء به من مفاهيم وأشياء، فأن الكلمات الشائعة في الأعراف الجاهلية من الصعب أن تؤدي المعنى الإسلامي بأمانة، لأنها كانت وليدة التفكير الجاهلي وحاجاته، فلا تصلح للتعبير عما جاء به الإسلام، من مفاهيم وأشياء لا تمت إلى ذلك التفكير بصلة.

---

[1]- الفرقان: ١ .

[2] - البروج: ٢١.

[3] - فصلت: ٤١.

[4]- الزخرف: ٤.

٢- أن تكوين مصطلحات وأسماء محددة يتميز بها الإسلام، ويساعد على إيجاد طابع خاص به، وعلامات فارقة بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات[1].

علوم القرآن

س١: ما المقصود بعلوم القرآن؟

ج: علوم القرآن هي: جميع المعلومات، والبحوث التي تتعلق بالقرآن الكريم، وتختلف هذه العلوم في الناحية التي تتناولها من الكتاب الكريم.

س٢: ما هي أهم علوم القرآن الكريم؟

ح: تُفهم علوم القرآن الكريم حسب الاعتبارات:

١- فالقرآن بوصفه كلاماً دالاً على معنى، والقرآن بهذا الوصف، موضوع لعلم التفسير، فعلم التفسير يشتمل على دراسة القرآن باعتباره كلاماً ذا معنى، فيشرح معانيه، ويفصل القول في مدلولاته، ومقاصده.

٢- وقد يعتبر القرآن بوصفه مصدراً من مصادر التشريع، وبهذا الاعتبار يكون موضوعاً لعلم آيات الأحكام، وهو علم يختص بآيات الأحكام من القرآن، ويدرس نوع الأحكام التي يمكن استخراجها بعد المقارنة لجميع الأدلة الشرعية الأخرى من سنة، وإجماع، وعقل.

---

[1] - ((أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته ، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدتها وصعوبتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء النبي صلى الله عليه وسلم دلت على علو رتبته وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه وفضيلته))(بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروز أبادي،الجزء الأول، المكتبة العلمية).

٣- وقد يؤخذ القرآن بوصفه دليلاً لنبوة النبي محمدﷺ فيكون موضوعاً لعلم إعجاز القرآن. وهو علم يشرح : أن الكتاب الكريم وحي الهي ويستدل على ذلك بالصفات والخصائص التي تميزه عن الكلام البشري.

٤- وقد يؤخذ القرآن باعتباره نصاً عربياً جارياً وفق اللغة العربية فيكون موضوعاً لعلم إعراب القرآن، وعلم البلاغة القرآنية. وهما علمان يشرحان مجيء النص القرآني وفق قواعد اللغة العربية في النحو والبلاغة.

٥- وقد يؤخذ القرآن بوصفه مرتبطاً بوقائع معينة في عهد النبيﷺ فيكون موضوعاً لعلم أسباب النزول.

٦- وقد يؤخذ القرآن باعتبار لفظه المكتوب، فيكون موضوعاً لعلم رسم القرآن، وهو علم يبحث في رسم القرآن، وطريقة كتابته.

٧- وقد يعتبر بما هو كلام مقروء، فيكون موضوعاً لعلم القراءة، وهو علم يبحث في ضبط حروف الكلمات القرآنية وحركاتها، وطريقة قراءتها إلى غير ذلك من البحوث التي تتعلق بالقرآن. فإنها جميعاً تلتقي وتشترك في اتخاذها القرآن موضوعاً لدراستها، وتختلف في الناحية الملحوظة فيها من القرآن الكريم.

أسباب النزول

س١: ما معنى سبب النزول؟

ج: وهو أحد علوم القرآن الكريم ومعناه: معرفة أسباب نزول آيات القرآن والقضايا والحوادث المتعلقة بها وكذلك وقت ومكان نزول الآية وذلك بغرض معرفة تفسيرها وفهمها فهمًا صحيحًا، ومعرفة الحكمة من الأحكام القرآنية.

أو قل : هي أمور وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول الوحي بشأنها .

س٢: ما هي أسباب النزول؟

ج: توجد أسباب عدة من أجلها نزلَ القرآن الكريم [1] ومنها:

١- نزل القرآن الكريم لهداية الناس وتنوير أفكارهم وتربية أرواحهم وعقولهم .

٢- وكان في نفس الوقت يحدد الحلول الصحيحة للمشاكل التي تتعاقب على الدعوة في مختلف مراحلها ، ويجيب عن ما هو جدير بالجواب من الأسئلة التي يتلقاها النبي من المؤمنين أو غيرهم.

٣- ويعلق على جملة من الأحداث والوقائع التي كانت تقع في حياة الناس ، تعليقا يوضح فيه موقف الرسالة من تلك الأحداث والوقائع كما ذكرنا آنفا .

س٣: وعلى هذا الأساس كانت آيات القرآن الكريم تنقسم إلى قسمين ما هما ؟

ج: **أحدهما**: الآيات التي نزلت لأجل الهداية والتربية والتنوير دون وقوع سبب معين - في عصر الوحي - أثار نزولها، كالآيات التي تصور قيام الساعة ومشاهد

[1] - وأمّا ما ذهب إليه البعض من أنّ بعض القرآن الكريم نزلَ من غير سبب ، فهذا مردود قطعاً.
نعم إذا تأملنا في تعريف أسباب النزول، فسوف تخرج بعض الآيات عن هذه الأسباب، وإنما هي نزلت بسبب آخر غير داخل في علم أسباب النزول، فتدبر.

القيامة وأحوال النعيم والعذاب وغيرها، فإن الله تعالى أنزل هذه الآيات لهداية الناس من غير أن تكون إجابة عن سؤال، أو حلا لمشكلة طارئة ، أو تعليقا على حادثة معاصرة .

والآخر: الآيات التي نزلت بسبب مثير وقع في عصر الوحي واقتضى نزول القرآن فيه، كمشكلة تعرض لها النبي والدعوة وتطلبت حلا أو سؤالا استدعى الجواب عنه أو واقعة كان لا بد من التعليق عليها ، وتسمى هذه الأسباب التي استدعت نزول القرآن بأسباب النزول .

س٤ : أذكر مثالين من القرآن الكريم موضحاً فيه سبب نزولهما؟

ج: (١) وذلك من قبيل ما وقع من بناء المنافقين لمسجد ضرار[1] بقصد الفتنة ، فقد كانت هذه المحاولة من المنافقين مشكلة تعرضت لها الدعوة وأثارت نزول

[1] – حسب بعض التفاسير كالأمثل والميزان وغيرها: ((أنّ جماعة من المنافقين أتوا إِلى النّبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وطلبوا منه أن يسمح لهم ببناء مسجد في حي بني سليم ـ قرب مسجد قبا ـ حتى يصلي فيه العاجزون والمرضى والشيوخ، وكذلك ليصلي فيه جماعة من الناس الذين لا يستطيعون أن يحضروا مسجد قبا في الأيّام المطرة، ويؤدوا فرائضهم الإِسلامية، وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه النّبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عازماً على التوجه إِلى تبوك.

فأذن لهم النّبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، إلاّ أنّهم لم يكتفوا بذلك، بل طلبوا منه أن يصلي فيه، فأخبرهم بأنّه عازم على السفر الآن، وعند عودته بإذن الله فسوف يأتي مسجدهم ويصلي فيه.

فلمّا رجع النّبي(صلى الله عليه وآله وسلم) من تبوك حضروا عنده وطلبوا منه الحضور في مسجدهم والصلاة فيه، وأن يدعوا الله لهم بالبركة، وكان النّبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يدخل بعد أبواب المدينة، فنزل الوحي وتلا عليه هذه الآيات، وكشف الستار عن الأعمال هؤلاء، فأمر النّبي بحرق المسجد المذكور، وبهدم بقاياه، وأن يُجعل مكانه محلا لرمي القاذورات والأوساخ.

فلم يكن مسجداً يُعبد فيه الله، بل كان محلاً للتآمر على النبي(ص) والإسلام، والواجب هو هدمه.

الوحي بشأنها ، إذ جاء قوله تعالى :﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ .. . ﴾ [1].

(٢) وكذلك سؤال بعض أهل الكتاب مثلا عن الروح من النبي فقد اقتضت الحكمة الإلهية أنْ يجاب عنه في القرآن فنزل قوله تعالى : ﴿. . . قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [2] وبهذا أصبح ذلك السؤال من أسباب النزول .

س٥: وهل تُعدّ أحداث الأمم الماضية التي يستعرضها القرآن الكريم من أسباب النزول؟

ج: حسبما تقدم من تعريف لأسباب النزول ، فلا تعد من أسباب النزول، لأنها قضايا تأريخية سابقة على عصر الوحي، وليست أمورا وقعت في عصر الوحي واقتضت نزول القرآن بشأنها، فلا يمكن أن نعتبر حياة يوسف وتآمر إخوته عليه ونجاته وتمكنه منهم سببا لنزول سورة يوسف ، وهكذا سائر المقاطع القرآنية التي تتحدث عن الأنبياء الماضين، وأممهم فإنها في الغالب تندرج في القسم الأول من القرآن الذي نزل بصورة ابتدائية ولم يرتبط بأسباب نزول معينة .

الفائدة من معرفة أسباب النزول

س١: ما فائدة معرفة أسباب النزول؟

ولمعرفة أسباب النزول أثر كبير في فهم الآية وتعرف أسرار التعبير فيها، لان النص القرآني المرتبط بسبب معين للنزول تجئ صياغته وطريقة التعبير فيه وفقا

[1]– التوبة:١٠٧.

[2]– الإسراء:٨٥.

لما يقتضيه ذلك السبب، فما لم يعرف ويحدد قد تبقى أسرار الصياغة والتعبير غامضة عنه .

س٢ : بيّن ذلك بمثال؟

ج: ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا . . . ﴾ [1].

فإنّ المعروف أنّ الطواف واجب سواء كان في الحج أم العمرة ، لكنّ الآية ركزت على نفي الإثم والحرمة عن السعي بين الصفا والمروة دون أن تصرح بوجوب ذلك فلماذا اكتفت بنفي الحرمة دون أن تعلن وجوب السعي ؟

إن الجواب عن هذا السؤال يمكن معرفته عن طريق ما ورد في سبب نزول الآية من أن بعض الصحابة تأثموا من السعي بين الصفا والمروة، لأنه من عمل الجاهلية فنزلت الآية الكريمة ، فهي إذن بصدد نفي هذه الفكرة من أذهان الصحابة والإعلان عن أن الصفا والمروة من شعائر الله، وليس السعي بينهما من مختلقات الجاهلية ومفترياتها . وقد أدى الجهل بمعرفة سبب النزول في هذه الآية عند بعضهم إلى فهم خاطئ في تفسيرها . . . إذ اعتبر اتجاه الآية – نحو نفي الإثم بدلا من التصريح بالوجوب – دليلا على أن السعي ليس واجبا وإنما هو أمر سائغ ، إذ لو كان واجبا لكان الأجدر بالآية أنْ تعلن وجوبه بدلا من مجرد نفي الإثم ، ولو كان هذا يعلم سبب النزول والهدف المباشر الذي نزلت الآية لتحقيقه ، وهو إزالة فكرة التأثم من أذهان الصحابة لعرف السر في طريقة التعبير، والسبب في اتجاه الآية نحو نفي الإثم والتركيز على ذلك .

---

[1]– البقرة: ١٥٨.

الدرس الثاني

المكي
و
المدني

المكي والمدني[1]

الاتجاهات في معنى المكي والمدني :

يقسم القرآن في عرف علماء التفسير إلى مكي ومدني، فبعض آياته مكية وبعض آياته مدنية .

س١ : ما معنى المكي والمدني؟

ج: توجد في التفسير اتجاهات عديدة لتفسير هذا المصطلح :

الإتجاه الأول: الاتجاه السائد وهو تفسيره على أساس الترتيب الزماني للآيات، واعتبار الهجرة[2] حدا زمنيا فاصلا بين مرحلتين، فكل آية نزلت قبل الهجرة تعتبر مكية، وكل آية نزلت بعد الهجرة فهي مدنية وإن كان مكان نزولها (مكة) ، كالآيات التي نزلت على النبي حين كان في مكة وقت الفتح، فالمقياس هو الناحية الزمنية لا المكانية .

الإتجاه الثاني: هو الأخذ بالناحية المكانية مقياسا للتميز بين المكي والمدني، فكل آية يلاحظ مكان نزولها، فإن كان النبي ﷺ حين نزولها في مكة سميت مكية وإن كان حينذاك في المدينة سميت مدنية .

---

[1]- هذا البحث كتبه السيد الشهيد محمد باقر الصدر(قُدس سره).

[2]- اتفقت الروايات على تاريخ الهجرة وآيتها: ((وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ)).. قال المفيد في مسارّ الشيعة/٤٨: شهر ربيع الأول: أول ليلة منه هاجر رسول الله (صلى الله عليه وآله) من مكة إلى المدينة سنة ثلاث عشرة من مبعثه ، وكانت ليلة الخميس. وفيها كان مبيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) على فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومواساته له بنفسه حتى نجا (صلى الله عليه وآله) من عدوه ، فحاز بذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) شرف الدنيا والدين ، وأنزل الله تعالى مدحه لذلك في القرآن المبين.

والاتجاه الثالث: يقوم على أساس مراعاة أشخاص المخاطبين، فهو يعتبر أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة، أو عامة الناس، مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، والمدني ما كان خطاباً لأهل المدينة والمؤمنين، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ .

س٢: ما وجه المقارنة بين الإتجاهات الثلاثة؟

ج: يمتاز الاتجاه الأول: عن الاتجاهين الأخيرين بشمول المكي والمدني لجميع آيات القرآن، لأننا إذا أخذنا بالناحية الزمنية كانت كل آية في القرآن إما مكية وإما مدنية ، لأنها إذا كانت نازلة قبل هجرة النبي إلى المدينة ودخوله فيها فهي مكية، وان نزلت على النبي في طريقه من مكة إلى المدينة، أو كانت نازلة بعد دخول النبي مهاجرا إلى المدينة فهي مدنية ، مهما كان مكان نزولها .

وأما على الاتجاه الثاني: فقد نجد آية ليست مكية ولا مدنية، كما إذا كان موضع نزولها مكانا ثالثا لا مكة ولا المدينة .

وأمّا الإتجاه الثالث: فبعض الآيات لم يكن خطابها لأهل مكة أو أهل المدينة، نظير الآيات التي نزلت على النبي ﷺ في معراجه أو إسرائه[1].

س٣: أي من الإتجاهات يُرجح على الآخر؟

ج: واضح من المقارنة التي ذكرناها، فإنّ الترجيح لصالح الإتجاه الأول، وذلك:

[1]- كما في قوله تعالى: ((علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالافق الاعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة اخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى))(النجم: ٥ – ١٨) قال الطبرسي – رحمه الله – : ((نزلت الآية في إسرائه صلى الله عليه وآله ، وكان ذلك بمكة : صلى المغرب في المسجد ثم اسري به في ليلته ...))

أولاً: يجب أنْ نطرح منذ البدء الاتجاه الثالث، لأنه يقوم على (أساس خاطئ) وهو الاعتقاد أن من الآيات ما يكون خطابا لأهل مكة خاصة ومنها ما يكون خطابا لأهل المدينة، وليس هذا بصحيح، فان الخطابات القرآنية عامة وانطباقها حين نزولها على أهل مكة أو على أهل المدينة لا يعني كونها خطابا لهم خاصة أو اختصاص ما تشتمل عليه من توجيه أو نصح أو حكم شرعي بهم، بل هي عامة ما دام اللفظ فيها عاما كما عرفنا، بل بعض الخطابات لا لأهل مكة ولا لأهل المدينة، فأين يُجعل؟!

ثانياً: وكذلك نطرح الإتجاه الثاني، وذلك لأنّ بعض الآيات لم يكن نزولها في مكة أو المدينة، كما تقدم ذكره، فيبقى الإتجاه الأول، هو الأنسب من هذه الإتجاهات.

س٤: وهل لفظ المكي والمدني ورد في الكتاب أو السنّة الشريفة؟

ج: والواقع أن لفظ المكي والمدني ليس لفظا شرعيا حدد النبي مفهومه لكي نحاول اكتشاف ذلك المفهوم، وإنما هو مجرد اصطلاح تواضع عليه علماء التفسير، وما من ريب في أن كل أحد له الحق في أن يصطلح كما يشاء ، لا نريد هنا أن نخطئ الاتجاه الأول أو الاتجاه الثاني ما دام لا يعبر كل منهما إلا عن اصطلاح ، من حق أصحاب ذلك الاتجاه أنْ يضعوه .

س٥: ماذا رجحَ المصنف من هذه الإتجاهات؟

ج: رجح المصنف الإتجاه الأول أي أن وضع مصطلح المكي والمدني على أساس الترتيب الزمني، أنفع وأفيد للدراسات القرآنية ، لان التمييز من ناحية زمنية بين ما انزل من القرآن قبل الهجرة وما انزل بعدها أكثر أهمية للبحوث القرآنية من التمييز على أساس المكان بين ما انزل على النبي في مكة وما انزل عليه في

المدينة ، فكان جعل الزمن أساسا للتمييز بين المكي والمدني واستخدام هذا المصطلح لتحديد الناحية الزمنية أوفق بالهدف .

س٦ : أينَ تظهر أهمية التمييز الزمني من التمييز المكاني ؟

ج: تتجلى أهمية ذلك في نقطتين :

الأولى: فقهية: أي أنها ترتبط بعلم الفقه ومعرفة الأحكام الشرعية ، وهي أن تقسيم الآيات على أساس الزمن إلى مكية ومدنية وتحديد ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها يساعدنا على معرفة الناسخ والمنسوخ، لان الناسخ متأخر بطبيعته على المنسوخ زمانا، فإذا وجدنا حكمين ينسخ أحدهما الآخر استطعنا أنْ نعرف الناسخ عن طريق التوقيت الزمني ، فيكون المدني منهما ناسخا للمكي لأجل تأخره عنه زمانا[1].

والثانية: معرفية: حيث أن التقسيم الزمني للآيات إلى مكية ومدنية يجعلنا نتعرف على مراحل الدعوة التي مر بها الإسلام على يد النبي، فإن الهجرة المباركة ليست مجرد حادث عابر في حياة الدعوة، وإنما هي حد فاصل بين مرحلتين من عمر الدعوة، وهما مرحلة العمل في ضمن المجتمع الذي تحكمه السلطة الكافرة المهيمنة على جميع الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية، ومرحلة العمل ضمن دولة الإسلام، ولئن كان بالإمكان تقسيم كل من هاتين المرحلتين بدورها أيضا

---

[1]– هذه النقطة إنما تكون مهمة بناء على المذهب المعروف في علوم القرآن الذي يقول بوجود النسخ بين الآيات القرآنية ، من خلال افتراض وجود حكمين متخالفين أحدهما متأخر عن الآخر زمانا فيفترض أن الثاني ناسخ للأول ، وأما إذا التزمنا بعدم وجود النسخ بهذا الشكل وإنما موارد النسخ في القرآن مبينة من خلال نظر الآية الناسخة للآية المنسوخة في مضمونها . . . ، فلا تبقى قيمة لهذه النقطة وإنما تكون مجرد فرضية ، وللمزيد من التوضيح يراجع بحث (النسخ)(المؤلف).

إلى مقاطع زمنية ، فمن الواضح على أي حال أن التقسيم الرئيس هو على أساس الهجرة .

فإذا ميزنا بين الآيات النازلة قبل الهجرة وما نزل منها بعد الهجرة استطعنا أن نواكب تطورات الدعوة والخصائص العامة التي تجلت فيها خلال كل من المرحلتين وأما مجرد أخذ مكان النزول بعين الاعتبار وإهمال عامل الزمن فهو لا يمدنا بفكرة مفصلة عن هاتين المرحلتين ، ويجعلنا نخلط بينهما ، كما يحرمنا من تمييز الناسخ عن المنسوخ من الناحية الفقهية .

طريقة معرفة المكي والمدني :

س١: ما الطريقة التي استخدمها المفسرون في معرفة المكي والمدني؟

ج: وذلك بالاعتماد على الروايات والنصوص التأريخية، التي تؤرخ السورة أو الآية وتشير إلى نزولها قبل الهجرة أو بعدها.

س٢: ولكن هل توجد نصوص، وروايات بعدد السور، والآيات بحيث يستوعب جميع القرآن الكريم، للتمييز ما بين المكي والمدني ؟

ج: كلا ، وإنما من خلال ضبط مجموعة من الخصائص العامة التي تتناسب مع المكي أو مع المدني.

بعبارةٍ أخرى: أي من خلال مقارنة لتلك الآيات والسور المكية والمدنية التي اكتشفوا تأريخها عن طريق النصوص، وخرجوا من دراستهم المقارنة باكتشاف خصائص عامة في السور والآيات المكية وخصائص عامة أخرى في المدني من الآيات والسور فجعلوا من تلك الخصائص العامة مقاييس يقيسون بها سائر الآيات والسور التي لم يؤثر توقيتها الزمني في الروايات والنصوص، فما كان منها يتفق مع الخصائص العامة للآيات والسور المكية حكموا بأنه مكي، وما كان أقرب إلى

الخصائص العامة للمدني وأكثر انسجاما معها أدرجوه ضمن المدني من الآيات بالسور .

س٣: ما هي الخصائص العامة لتحديد القسم المكي ؟

ج: ذكروا عدة خصائص منها:

١- قصر الآيات والسور وإيجازها وتجانسها الصوتي[1].

٢- الدعوة إلى أصول الإيمان بالله والوحي وعالم الغيب واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار .

٣- الدعوة للتمسك بالأخلاق الكريمة والاستقامة على الخير .

٤- مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم .

٥- استعمال السورة لكلمة " يا أيها الناس " وعدم استعمالها لكلمة " يا أيها الذين آمنوا " .

نعم يُستثنى من هذه الخصائص العامة سورة الحج لأنها استعملت لكلمة " يأيها الذين آمنوا" بالرغم من أنها مكية[2].

---

[1]- كما في التجانس الصوتي بين كنية أبي لهب و بين النار ذات اللهب التي يصلاها ، كما يمكننا ملاحظة التجانس بين عبارة الاستهلال تبّت و بين نهايتها و تبّ ، مضافاً إلى ملاحظة التجانس بين أربعة أصوات الباء المتمثّلة في تبّت ، أبي ، لهب ، تبّ . أُولئك جميعاً تشكّل عنصراً صوتياً له جمالية في العنصر القصصي كما هو واضح .

[2]- سورة الحج مدنية وليست مكية ، وتستعمل فيها الكلمة الأولى والثانية ، ولكن الأولى أكثر كما أن سورة الحجرات مدنية بلا إشكال وتستعمل فيها كلمة (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . .)(الحجرات : ١٣) (المؤلف).

س٤: ما هي الخصائص العامة لتحديد القسم المدني؟

ج: ذكروا عدة خصائص منها:

١- طول السورة والآية وإطنابها .

٢- تفضيل البراهين والأدلة على الحقائق الدينية .

٣- مجادلة أهل الكتاب ودعوتهم إلى عدم الغلو في دينهم .

٤- التحدث عن المنافقين ومشاكلهم .

٥- التفصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق والقوانين السياسية والاجتماعية والدولية .

س٥: ما موقف المصنف من الخصائص العامة المذكورة؟

ج: **إجمالاً**: إنْ أفادت هذه الخصائص الظن، فلا يمكن الإعتماد عليها، وإنْ أفادت الإطمئنان جاز الإعتماد عليها .

تفصيلاً: توجد حالتان:

الأولى: في أن هذه المقاييس المستمدة من تلك الخصائص العامة تلقي ضوءا على الموضوع ، وقد تؤدي إلى ترجيح لأحد الاحتمالين على الآخر في السور التي لم يرد نص بأنها مكية أو مدنية ، فإذا كانت إحدى هذه السور تتفق مثلا مع السور المكية في أسلوبها وإيجازها وتجانسها الصوتي وتنديدها بالمشركين وتسفيه أحلامهم فالأرجح أن تكون سورة مكية لاشتمالها على هذه الخصائص العامة للسورة المكية ولكن الاعتماد على تلك المقاييس إنما يجوز إذا أدت إلى العلم ، ولا يجوز الأخذ بها لمجرد الظن، ففي المثال المتقدم حين نجد سورة تتفق مع السور المكية في أسلوبها وإيجازها لا نستطيع أن نقول بأنها مكية لأجل ذلك ، إذ من الممكن أن تنزل سورة مدنية وهي تحمل بعض خصائص الأسلوب

الشائع في القسم المكي ، كما في سورة النصر وغيرها ، صحيح أنه يغلب على الظن حينذاك أن السورة مكية لقصرها وإيجازها ، ولكن الأخذ بالظن لا يجوز لأنه قول من دون علم : ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم . . .﴾[1].

الثانية: وإذا ما أدت تلك المقاييس إلى الاطمئنان والتأكد من تأريخ السورة وأنها مكية أو مدنية فلا بأس بالاعتماد عليها عند ذاك .

ومثاله النصوص القرآنية التي تشتمل على تشريعات للحرب والدولة مثلا، فإن هذه الخصيصة الموضوعية تدل على أن النص مدني، لان طبيعة الدعوة في المرحلة الأولى التي عاشتها قبل الهجرة لا تنسجم إطلاقاً مع التشريعات الدولية، فنعرف من اجل هذا أن النص مدني نزل في المرحلة الثانية من الدعوة، أي في عصر الدولة.

---

[1]– الإسراء:٣٦.

الدرس الثالث

ثبوت
النص القرآني

ثبوت النص القرآني

س١: ما هو محل النزاع في هذا البحث؟

ج: يقع البحث والنزاع في مطابقة هذا النص القرآني - المثبت في المصحف الشريف - للوحي الذي نزل على الرسول الأعظم ﷺ بوصفه كلاما إلهيا متعبدا بتلاوته، ومدى سلامة الطريقة التي وصَلنا بها هذا النص، الأمر الذي يجعله في منجاة عن التحريف والتشويه.

س٢: ما هو الرأي العلمي حول صيانة القرآن من التحريف ؟

ج: الآراء العلمية تكاد تتفق على نتيجة واحدة وهي قطعية التطابق بين النص القرآني المتداول والوحي الذي نزل على الرسول الأعظم ﷺ بعنوانه قرآنا، بمعنى ثبوت النص القرآني كما أنزل على النبي محمد ﷺ.

س٣: وهل يعني ذلك عدم وجود خلاف في ذلك؟

ج: نُسِبَ إلى بعض علماء الإمامية [١] وغيرهم [٢] في هذا الموضوع ، حيث قيل عنهم إنهم يقولون بتحريف القرآن الكريم .

س٤: ما السبب الذي جعل البعض يروج لشبهة تحريف القرآن؟

ج: أن شبهة التحريف أصبحت فيما بعد مجال الاستغلال المتنوع للطعن في القرآن الكريم من قبل مختلف التيارات الكافرة التي واجهها المسلمون في

---

[1]- كالمحدث النوري، ولكنه بريءٌ من هذه النسبة، كما بحثناه في غير هذا المقام .

[2]- من علماء السنّة القائل التحريف، كابن أبي داود السجستانيّ في كتابه (المصاحف) المطبوع في بيروت ، وابن الخطيب في كتابه (الفرقان) المطبوع في القاهرة .

عصورهم القديمة والحديثة، وكانت آخرها محاولات التبشير التي قادها المستشرقون وغيرهم للتشكيك في سلامة النص القرآني[1].

س٥: ما الطريق الذي نسلكه للرد على شبهة التحريف[2]؟

ج: أنْ يكون ذلك على أساس فرضيتين:

الأولى: على أساس الفرضية الإسلامية ومستلزماتها التي تعترف بالنصوص الدينية، القرآنية أو الصادرة من النبي ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام.

الثانية: على أساس البحث الموضوعي وما تفرضه طبيعة الأشياء من نتائج دون الالتزام بالنصوص الدينية ومستلزمات الإيمان ببعضها .

إنْ قلت: ألا يكفي البحث لإثبات النص الديني في الفرضية الأولى ؟

قلتُ: الفرضية الأولى: لا تحقق الغرض إلا تجاه الفرد المسلم الذي يؤمن بالإسلام ونصوصه الدينية ورجاله الطيبين، الأمر الذي يفرض علينا أن نعطي المواجهة

---

[1]– أنّ شبهة التحريف المتعمدة قادتها بعض الجهات اليهودية، والمسيحية، وذلك لأنّ القول بمصداقية وأحقية القرآن الكريم وعدم تحريفه، معناه: أنّ التوراة والإنجيل كلاهما محرفان، وأنّ جميع الأديان السابقة على الإسلام قد نُسخت، وهذان الأمران، لا يتناسبان مع التوجهات المادية لهؤلاء .

[2]– توجد جهتان تروجان لفكرة التحريف: الأولى: من داخل المحسوبين على الإسلام وهم الوهابية أو من السنّة – لا بمعنى أنهما يقولان بالتحريف، وإنما يرميان الشيعة بالتحريف – لضرب التشيع والنيل منه، والثانية: من خارج الإسلام: لضرب فكرة الإسلام والنيل منه .

ووضيفتنا: أنْ ندفع كلا الجهتين.

إنْ قلتُ: ما هو الطريق لدحض وإبطال الجهة الأولى؟

قلتُ: من خلال الأدلة والنصوص والدينية .

إنْ قلت: وكيف يمكن دحض وإبطال الجهة الثانية؟

قلتُ: من خلال البحث الموضوعي وما تفرضه طبيعة الأشياء، المتناسب مع رأي العقلاء في كل زمانٍ ومكان.

وإنما سلك المصنف السبيل الثاني، لإثبات النص القرآني، لأنه يتناسب مع أفكار غير المسلمين، إذ أنهم لا يؤمنون بالنصوص الدينية الإسلامية، كما لايخفى.

الثانية حقها من الأهمية، لأنها تحقق الغرض بشكل شامل وتقطع الطريق على الشبهة عند كل واحد من الناس، حتى لو كان غير مؤمن بشيء من الفرضية الإسلامية .

ونكتفي هنا بأن نشير – بصدد المواجهة الأولى – إلى أن الرأي السائد لدى علماء الإمامية هو الالتزام بسلامة القرآن الكريم من التحريف، كما أن السيد الخوئي قدس سره قد تحدث بشكل تفصيلي وجيد عن الشبهة حين تناولها في الإطار الإسلامي، وانتهى إلى الحق الذي لا شبهة فيه وهو سلامة النص القرآني من التحريف.

لذا فسوف نخص بالبحث المواجهة الثانية، وندرس الشبهة على أساس موضوعي وبمقتضى ما تفرضه (طبيعة الأشياء) من نتائج .

تدوين القرآن في زمن النبي صلى الله عليه وآله :

س١: ما المقصود بطبيعة الأشياء في محل بحثنا؟

ج: وهي عبارة عن مجموع الظروف والخصائص الموضوعية والذاتية المسلمة واليقينية التي عاشها النبي والمسلمون والقرآن أو اختصوا بها، مما يجعلنا نقتنع بضرورة قيام النبي صلى الله عليه وآله بجمع القرآن في عهده.

س٢: ما هي الظروف والخصائص التي تقتضيها طبيعة الأشياء؟

ج: وهي مجموعة من الأمور :

الأول: يعتبر القرآن الكريم الدستور الأساسي للأمة الإسلامية وهو يشكل الزاوية الرئيسة التي يقوم عليها كيان الأمة العقيدي والتشريعي والثقافي إلى جانب المناهج الإسلامية الأخرى عن المجتمع والأخلاق ، كما أنه يعتبر أتقن المصادر التأريخية لديها وأروع النصوص الأدبية ، ولم يكن المسلمون في صدر حياتهم الاجتماعية يملكون شيئا من القدرات الفكرية والثقافية في مختلف الميادين التي

يخوضها الفكر الإنساني غير القرآن الكريم ، فالقرآن بالنسبة لهم بصفتهم أمة حديثة يمثل المحتوى الروحي والفكري والاجتماعي لهم . فمثلا لم تكن الأمة الإسلامية حينذاك تملك من الثقافة العقيدية ما تبني عليها إيمانها الراسخ بوحدانية الله سبحانه والكون والحياة ، أو بانحراف أصحاب الديانات الأخرى في نظرتهم إلى المبدأ والمعاد غير الأدلة والبراهين القرآنية .

الثاني: لقد عكف المسلمون – منذ البدء – على حفظ القرآن واستظهاره ، انطلاقا من نظرتهم إلى القرآن الكريم ، وشعورا بالأهمية التي يحتلها في حياتهم الاجتماعية ومركزه من الدور الذي ينتظرهم في الحياة الإنسانية، وقد تكونت نتيجة هذا الإقبال المتزايد منهم على حفظه واستظهاره جماعة كبيرة، عرفت بحفظها القرآن الكريم واستظهارها لنصه بشكل مضبوط .

إنْ قلت: هل تكفي هذه الوسيلة في جعل القرآن بمأمن عن التحريف والتزوير، نتيجة للخطأ والاشتباه، فقد يتعرضون لظروف وعوامل أخرى تمنعهم عن القيام بدورهم في حفظ النص القرآني من هذه الأخطار، فالصحابة الذين عرفوا بحفظ القرآن مهما بلغوا من الورع والتقوى والأمانة والإخلاص فهم لا يخرجون عن كونهم أشخاصاً عاديين يعتورهم الخطأ والنسيان، كما أن ظرفهم التأريخي وطبيعة المسؤولية الملقاة على عاتقهم كانت تعرضهم للاستشهاد والقتل، والانتشار في الأقطار الإسلامية بغية الدعوة لله سبحانه، وكل هذه الأمور التي كانت متوقعة تصبح خطرا على النص القرآني، إذا ترك مرتبطا في حفظه بهذه الوسيلة ومرتهنا بهذا الأسلوب .

قلتُ: وذلك بوجود المرجع الأصيل لضبط النص، ألا وهو النبي ﷺ حيث قام بجمعه في عهده ﷺ.

الثالث:

س٣: ما هي الحالات المتعددة التي عاشها النبي ﷺ مع المجتمع آنذاك؟

ج: ذكر المصنف مجموعة من الحالات وهي:

١- أنه كان يعيش مع الأمة في آمالها وآلامها ، مدركا لحاجاتها وواعيا للمسؤولية العظيمة التي تفرضها طبيعة الظروف المحيطة بتكوينها و (الأخطار) التي تتهددها.

٢- وهذا الإدراك والوعي يكشف عنه الدور العظيم الذي قام به النبي ﷺ منذ البعثة حتى وفاته عليه الصلاة والسلام.

٣- فقد عاش حياة الاضطهاد والضغط اللذين كانا وليدي قيامه بالدعوة إلى الله سبحانه وعمله على تغيير الأمة ، وقلب واقعها الفكري والسياسي والاجتماعي، ومثل هذا الدور يحتاج إلى مهارة عظيمة وإدراك دقيق لواقع المجتمع، وتقدير للآثار والنتائج مع فهم للنفس البشرية وما تنطوي عليه من خير وشر.

٤- ثم عاش حياة القيادة وسياسة الأمة وإدارة شؤونها في أصعب الظروف التأريخية، حيث إنشاء الدولة وتوطيد التشريع والنظام في مجتمع كان لا يعرف – إلا لونا باهتا – عن كل ما يمت إلى المجتمعات البشرية المنظمة بصلة ، كما كان يؤمن بمفاهيم وأفكار بعيدة عن المفاهيم والأفكار الجديدة التي جاء بها الإسلام فمارس الحرب والجهاد ، وبلى المكر والخداع والنفاق والارتداد، إلى غير ذلك من الأساليب والظروف المختلفة في أبعادها وآثارها .

٥- وكان النبي ﷺ أيضا على معرفة بتأريخ الرسالات الإلهية ونهايتها على يد المزورين والمحرفين وتجار الدين، كما يصرح بذلك القرآن الكريم وينعى على أهل الكتاب هذا التحريف والتزوير .

٦- فالنبي ﷺ قد خبر الحياة الإنسانية بهذا الشكل، وحمل أعباء الرسالة والدعوة وقاد الإنسان في مجاهل الظلام حتى أورده مناهل النور والحق لا يمكن أنْ نشك في إدراكه لمدى ما يمكن أنْ يتعرض له النص القرآني من (خطر) حينما يربط مصيره بالحفظ والاستظهار في صدور الرجال، بل لابد أنْ يُسارع إلى تدوينه، ليكون دستوراً ثابتاً لكل الأجيال.

الرابع:

س٤: هل إمكانات التدوين والتسجيل كانت متوفرة لدى الرسولﷺ؟

ج: نعم كانت متوفرة، حيث لا تعني هذه الإمكانات حينئذ إلا وجود أشخاص قادرين على الكتابة يتوفر فيهم الإخلاص في العمل إلى جانب توفر أدوات الكتابة، وليس هناك من يشك تأريخيا في تمكن المسلمين من كل ذلك .

الخامس: مما لاشك فيه أنّ النبيﷺ لديه الإخلاص الكامل للقرآن الكريم وأهدافه ولا يمكن أنْ نجد من يشك في توفر ذلك لدى النبيﷺمهما بلغ ذلك الشخص من التطرف في الشك والتفكير لان النبيﷺحتى على أسوأ التقادير والفروض التي يفرضها الكافرون برسالته والمنكرون لنبوته لا يمكن إلا أنْ يكون مخلصا للقرآن الكريم لأنه يؤمن بأن القرآن معجزته وبرهان دعوته الذي به تحدى المشركين وهو على هذا الإيمان بالقرآن لا بد وان يحرص على حفظه وصيانته ويكون مخلصا في ذلك أبعد الإخلاص .

س٥: ما هي العناصر الخمسة التي من خلالها نقطع بأنّ القرآن قد تمَّ جمعه في عهد النبي ﷺ؟

ج: العناصر الخمسة هي:

١- أهمية القرآن الكريم.

٢- الخطر في تعرضه للتحريف بدون التدوين.

٣- إدراك النبي ﷺ لهذا الخطر.

٤- وجود إمكانات التدوين.

٥- حرص النبي ﷺ على القرآن والإخلاص له .

الشبهة حول طبيعة الأشياء :

إذن يظهر من البحث المتقدم أي ما تقتضيه طبيعة الأشياء في إثبات أنّ القرآن قد جُمِعَ في زمان النبي ﷺ لكن توجد شبهة تخالف ذلك :

س١: ما هي الشبهة التي تخالف ما تقتضيه طبيعة الأشياء في إثبات أنّ القرآن قد جُمِعَ في زمن النبي ﷺ؟

ج: توجد بعض الروايات تذكر أن القرآن الكريم قد جمع في عهد أبي بكر حيث جمع القرآن من العسب والرقاق واللخاف[1]،ومن صدور الناس بشرط أنْ يشهد

[1]- الرقاع: جمع رُقْعة، وهي التي يكتب فيها، وتكون من جلد أو كاغد(لسان العرب مادة (رقع) (١٧٠٥/٣).

الأكتاف: جمع كَتِف، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان من الناس والدوابّ، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم(النهاية في غريب الحديث (١٥٠/٤).

العسب :جمع عسيب، وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص، ويكتبون في الطرف العريض، وقيل العسيب طرف الجريدة العريض الذي لم ينبت عليه الخوص، والذي ينبت عليه الخوص هو السعف(النهاية في غريب الحديث (٢٣٤/٣).

شاهدان على أنه من القرآن ، كما جاء ذلك في قصة جمع القرآن المروية عن زيد بن ثابت[1]،أو غيرها من النصوص التي تتحدث عن هذا الأمر بطريقة أخرى[1].

اللخاف :جمع لَخْفة، وهي صفائح الحجارة البيض الرقاق، فيها عرض ودقة، وقيل هي الخزف يصنع من الطين الْمشوي.وقد فسرها بعض الرواة بالحجارة(انظر كتاب الْمصاحف لابن أبي داود ص تحقيق محب الدين عبد السبحان واعظ ١٦٤).

و فسرها بعضهم بالخزف(انظر فتح الباري (١٩٥/١٣) ح ٧١٩١).

الأضلاع :هي عظام الجنبين، جمع ضِلَعٍ، وهو محنيَّة الجنب(لسان العرب مادة (ضلع) (٢٥٩٨/٤).

الأقتاب :جمع قَتَب بفتحتين، وهو الخشب الذي يوضع ظهر البعير ليركب عليه(فتح الباري (٦٣٠/٨).

الألواح: جمع لَوْح، وهو كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب، والكتف إذا كتب عليها سميت لوحًا(لسان العرب مادة (لوح) (٤٠٩٥/٥).

الأديم :هو الجلد ما كان، وقيل الأحمر منه، وقيل هو الْمدبوغ(لسان العرب مادة (أدم) (٤٥/١).

الكرانيف: جمع كُرْنافة ، وهي أصل السَّعَفة الغليظة(النهاية في غريب الحديث (١٦٨/٤).

القرطاس: القُرْطَاسُ بكسر القاف وضمها الذي يكتب فيه(مختار الصحاح مادة (قرطس)

و قال صاحب اللسان القِرْطاس معروف يُتَّخذ من بَرْدِيّ يكون بمصر(لسان العرب مادة (قرطس)

الدَّوَاةُ :بالفتح المحبرة والجمع دَوًّى مثل نواة ونوى و دَوِيٌّ(مختار الصحاح مادة (دوى).

المداد و الحبر: سائل يكتب به، وسمى المداد؛ لأنه يمدُّ القلم، أيْ يعينه، وكل شيء مددت به شيئا فهو مداد ؛وسُمي الزيت مداداً؛ لأن السراج يُمدّ به(المعجم الوسيط مادة (مد).

[1]- باب جمع القرآن(٤٧٠١) حدثنا موسى بن إسماعيل عن إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده قال أبو بكر رضي الله عنه إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن قلت لعمر كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر قال زيد قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن قلت كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة

جواب الشبهة: ويمكن أنْ نجيب عليها بوجهين:

الوجه الأول: إنّ النصوص والروايات - بعد غض النظر عن أسانيدها - التي جاءت تتحدث عن قصة الجمع ليست متفقة على صيغة واحدة ولا على مضمون واحد، فهي تنسب الجمع إلى أشخاص مختلفين كما أنها تختلف في زمان الجمع وطريقته والعهد الذي تم فيه[٢].

فما دام كذلك فنجيب على مضمون هذه الروايات بما يلي:

أولاً: عدم إمكان الأخذ بمضمونها الفعلي للتعارض الذي يسقطها عن الاعتبار والحجية، كما ذكر علماء الأصول.

الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه))(البخاري،باب جمع القرآن،ج٦،ص٨٩).

[1]- ((مسألة: ٤٧٠٢ حدثنا موسى حدثنا إبراهيم حدثنا ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشأم في فتح إرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق قال ابن شهاب وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فألحقناها في سورتها في المصحف))(المصدر نفسه).

[2]- أنظر البيان في تفسير القرآن، للسيد الخوئي، ص٢٤٧-٢٤٩.

ثانياً: وإذا غضضنا النظر عن ذلك، فيمكن أنْ نفسر وجودها بأحد تفسيرين :

التفسير الأول: أن هذه الروايات جاءت بصدد الحديث عن جمع القرآن بشكل (مصحف) منتظم الأوراق والصفحات، الأمر الذي تم في عهد الصحابة، وليست بصدد الحديث عن عملية أصل تدوين وجمع القرآن بمعنى كتابته عن بعض الأوراق المتفرقة أو صدور الرجال كما تشير إليه بعض هذه الأحاديث.

التفسير الثاني: أن هذه الروايات إنما هي قصص وضعت في عهود متأخرة عن عهد الصحابة لإشباع رغبة عامة لدى المسلمين في معرفة كيفية جمع القرآن .

ونحن نعرف من دراستنا للتأريخ الإسلامي أن حركة أدبية واسعة ظهرت في التأريخ الإسلامي لتفسير الوقائع والأحداث التي عاشها المسلمون في الصدر الأول على شكل قصة تتسم بالحيوية والبراعة والإثارة، بل امتد ذلك إلى الأحداث الجاهلية والقصة حين بدأت فإنما بدأت تعيش الإطار الديني وكان ذلك في أواخر عهد الصحابة وتطورت في عهد التابعين، ونمت في عصور متأخرة واعتمدت بشكل رئيس على الإسرائيليات وعلى الوضع والخيال الذي يحاول أنْ يحقق أغراضا اجتماعية أو سياسية أو نفسية أو ثقافية معينة .

الوجه الثاني: وإضافة إلى ذلك كله نجد نصوصاً أخرى من كتب السنّة تصرح بأن القرآن الكريم قد تم جمعه في زمن الرسولﷺبحيث تصلح أنْ تقف في مواجهة هذه النصوص [1].

[1]– أنظر البيان في تفسير القرآن، للسيد الخوئي، ص٢٥٠.

س٢: هل توجد بعض النصوص من كتب السنّة تؤكد بأنّ القرآن قد تم جمعه في عهد النبي ﷺ؟

ج: نعم توجد ومن هذه النصوص:

×ما رواه جماعة من المحدثين والحفاظ منهم ابن أبي شيبة، وأحمد بن حنبل ، والترمذي، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي، والضياء المقدسي، عن ابن عباس، قال: ((قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني ، والى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر: (بسم الله الرحمن الرحيم)؟ ووضعتموهما في السبع الطوال، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: إن رسول الله ﷺكان مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه السورة ذات العدد ، وكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما انزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها، وقبض رسول الله ﷺولم يبين لنا أنها منها، فمن اجل ذلك قرنت بينهما، ولم اكتب بينهما سطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتها في السبع الطوال)) [١].

×وروى مسروق: ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود ، فقال : ((لا أزال أحبه سمعت النبي ﷺ يقول خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبي بن كعب)) [٢].

---

[1]– منتخب كنز العمال،ج٢،ص٤٨.

[2]– المصدر السابق.

×وأخرج النسائي بسند صحيح ، عن عبد الله بن عمر ، قال: ((جمعت القرآن فقرأت به كل ليلة، فبلغ النبي ﷺ فقال : أقرأه من شهر)) [1].

ولا بد أنْ يكون المراد من (الجمع) في هذه الروايات (التدوين) إلا فلا يعقل أن يكون عدد الحفاظ هذا العدد المحدود .

النتيجة: إذن فمن الضروري أنْ نلتزم: بأن القرآن الكريم قد تم جمعه وتدوينه في زمن رسول الله ﷺ بشكل كامل متقن، يمنع من تسرب التشويه والتزوير إليه.

---

[1]– الإتقان،النوع ٢٠/١٢٤:١ .

الدرس الرابع

صيانة

القرآن من التحريف

شبهة تحريف القرآن

س١: متى بدء تداول القرآن الكريم ؟

ج: لا شك أن القرآن الكريم أصبح معروفا ومتداولا بشكل واسع ومدونا بشكل مضبوط بعد عهد الخليفة عثمان[1]، حيث تمت كتابة مجموعة من نسخ المصحف الشريف، وأرسل إلى الآفاق الإسلامية بشكل رسمي من أجل العمل بها وتداولها، حيث أُصدرت الأوامر الواضحة والمشددة بالمنع من تداول أي نسخة أخرى غير هذه النسخ .

س٢: ما هي الحالات الإفتراضية لوقوع التحريف ؟

ج: توجد عدة فرضيات وهي:

١- أنْ يقع التحريف في عهد الشيخين بصورة عفوية دون قصد حذف شيء من القرآن، وذلك بسبب الغفلة عن بعض الآيات أو عدم وصولها إلى أيديهم، كما تفرضه قصة جمع القرآن الكريم التي رواها البخاري .

٢- أنْ يقع التحريف في عهد الشيخين مع فرض الإصرار منهما عليه بشكل مسبق ومدروس .

٣- أنْ يقع التحريف في عهد الخليفة عثمان .

[1]- جاء في الروايات: في خلافة عثمان قرر – بناء على نصيحة حذيفة بن اليمان– جمع القرآن في نسخ موحدة بسبب كثرة اختلاف الناس في القراءات. وبعث إلى أم المؤمنين حفصة أن ترسل مصحف أبي بكر ليأمر بنسخه. وأسند عثمان بن عفان إلى زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام مهمة نسخ المصحف. ولما فرغ النساخ من نسخ المصحف وكتابته أمر عثمان بإحراق ما عداه من مصاحف خاصة كان يحتفظ بها الصحابة، كانت على خلاف العرضة الأخيرة الناسخة لما يخالفها. والأرجح أن ذلك تم سنة ٣٠ هـ.

٤- أنْ يقع التحريف في عهد الأمويين، كما نسب ذلك إلى الحجاج بن يوسف الثقفي

٥- أن نفرض وقوعه من قبل بعض أفراد الرعية من الناس.

س٣: ناقش جميع الحالات الخمسة مع بيان بطلانها؟

ج: **أما الحالة الأولى** : فيمكن أنْ تناقش من ناحيتين :

أ- أن أصل عملية الجمع والتدوين - كما تقدم - تمت في زمن النبي ﷺ فلا يمكن أن يكون إلا دقيقا ومتقنا لرعاية الرسول لجمعه، ومع وجود هذا القرآن لا مجال لان نتصور وقوع الغفلة أو الاشتباه من الشيخين أو من غيرهما، كما لا يمكن أنْ نحتمل عدم وصول بعض الآيات إليهم، دون بعضٍ .

ب- توفر عوامل عديدة لوجود القرآن الكريم بأكمله لدى جماعة كبيرة من المسلمين وهذا يشكل ضمانة حقيقية لوصول القرآن الكريم بكامله إلى الدولة في عهد الشيخين دون نقيصة .

وهذه العوامل يمكن أن نلخصها بالأسباب التالية :

١- إن القرآن الكريم يعتبر من أروع النصوص الأدبية وأبلغها تعبيرا ومضمونا ، وقد كان العرب ذوي اهتمام بالغ بهذه النصوص، لأنها تكوّن ثقافتهم الخاصة سواء في الناحية التعبيرية أو في الناحية الفكرية والاجتماعية ، ونجد آثار هذا الاهتمام ينعكس على حياتهم الخاصة والعامة ، فيحفظون الشعر العربي والنصوص الأدبية الأخرى ويستظهرونها، ويعقدون الندوات والأسواق للمباراة والتنافس في هذه المجالات، وقد يصل بهم الاهتمام إلى درجة الاحتفاظ ببعض النصوص في أماكن مقدسة تعبيرا عن التقدير والإعجاب بهذا النص، كما يذكر

ذلك بالنسبة إلى المعلقات السبع أو العشر[1] في الكعبة الشريفة، وقد دفعت هذه العادة الشائعة بين العرب المسلمين - حينذاك - كثيرا منهم إلى حفظ القرآن الكريم واستظهاره .

٢- إن القرآن الكريم كان يشكل بالنسبة إلى المسلمين حجر الزاوية الرئيسة في ثقافتهم وأفكارهم وعقيدتهم، وقد تعرفنا على ذلك في النقطة الأولى من طبيعة الأشياء التي سقناها لإبراز مدى اهتمام المسلمين بالقرآن .

٣- إن القرآن الكريم - على أساس ما يحتويه من ثقافة - كان يعطي الجامع له امتيازا اجتماعيا بين الناس ، يشبه الامتياز الذي يحصل عليه العلماء من الناس في عصرنا الحاضر، وتعتبر هذه الميزة الاجتماعية إحدى العوامل المهمة لتدارس العلوم وتحصيلها في جميع العصور الإنسانية، فمن الطبيعي أن تكون إحدى العناصر المؤثرة في استظهار القرآن الكريم وحفظه .

٤- لقد كان النبي ﷺ رائدا للأمة الإسلامية وموجها لها يحرض المسلمين ويحثهم على حفظ القرآن واستظهاره . ونحن نعرف ما كان يتمتع به النبي ﷺ من حب

---

[1]- المعلقات هي من أشهر ما كتب العرب في الشعر وسميت معلقات. وقد قيل لها معلقات لأنها مثل العقود النفيسة تعلق بالأذهان. ويقال أن هذه القصائد كانت تكتب بماء الذهب وتعلق على أستار الكعبة قبل مجيء الإسلام، وتعتبر هذه القصائد أروع وأنفس ما قيل في الشعر العربي القديم لذلك اهتم الناس بها ودونوها وكتبوا شروحا لها، وهي عادة ما تبدأ بذكر الأطلال وتذكر ديار محبوبة الشاعر وتكون هذه المعلقات من محبته له شعاره الخاص.

وقيل إن حماد الراوية هو أول من جمع القصائد السبع الطوال وسماها بالمعلقات (السموط). وكان يقول أنها من أعذب ما قالت العرب وأن العرب كانوا يسمونها بالسموط (المعلقات). ذهب الأدباء والكتاب من بعده لدراستها. مثل ابن الكلبي. وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد وأضاف بكتابه أمر تعليقها بالكعبة. قد تجدهم سبع قصائد في كل كتاب قديم لكن منهم من أضاف قصيدة لشاعر وأهمل قصيدة الآخر. فاختاروا من هم السبعة. فجعلوها عشر. (تاريخ الأدب العربي. شوقي أبو خليل).

عظيم في نفوس كثير من المسلمين ، وما كان يملكه من قدرة على التأثير في حياتهم وسلوكهم ، الأمر الذي كان يدفع المسلمين إلى الاستجابة له في كثير من التوجيهات ، دون الالتفات إلى مدى لزومها الشرعي

٥- الثواب الجزيل الذي وضعه الله سبحانه لقراء القرآن وحفظته ورغبة كثير من المسلمين حينذاك في الاستزادة من هذا الثواب ، خصوصا أنهم كانوا جديدي عهد بالإسلام ، فهم يحاولون أن ينعكس الإسلام على جميع تصرفاتهم .

نتيجة إجتماع هذه العوامل: فلابد لنا أنْ ننتهي إلى أن القرآن الكريم كان موجودا في متناول الصحابة، ولم يكن من المعقول فرض التحريف نتيجة الغفلة أو الاشتباه أو عدم وصول بعض الآيات القرآنية .

وأما الحالة الثانية: فهي فرضية غير صادقة إطلاقاً، لان دراسة عهد الشيخين والظروف المحيطة بهما تجعلنا ننتهي إلى هذا الحكم وتكذيب هذه الفرضية .

ذلك لان التحريف المتعمد يمكن أنْ يكون لأحد السببين التاليين :

أولا: أن يكون بسبب رغبة شخصية في التحريف .

ثانيا: أن يكون بدافع تحقيق أهداف سياسية، كأن يفرض وجود آيات قرآنية تنص على موضوعات ومفاهيم خاصة تتنافى مع وجودهما أو متبنياتهما السياسية مثل النص على علي عليه السلام أو الطعن بهما .

أما بالنسبة إلى السبب الأول ، فنلاحظ عدة أمور :

١- إن قيام الشيخين بذلك يعني في الحقيقة نسف القاعدة التي يقوم عليها الحكم حينذاك، حيث إنه يقوم على أساس الخلافة لرسول الله والقيمومة على الأمة الإسلامية وليس من المعقول أنْ يقدما على تحريف القرآن ويعملا على معاداة

الإسلام دون تحقيق أي مكسب ديني أو دنيوي، وهل يعني ذلك إلا فتح الطريق أمام المعارضة التي كانت موجودة لتشن هجوما مركزا يملك أقوى الأسلحة التي يمكن استخدامها حينذاك ؟ !

٢- إن الأمة الإسلامية كانت تشكل حينذاك ضمانة اجتماعية وسياسية قوية تمنع قيام أحد من الناس مهما كان يملك من قدرة وقوة بمثل هذه العمل المضاد للإسلام دون أنْ يكون لهذا العمل رد فعل قوي في صفوفها، لان المسلمين كانوا ينظرون إلى القرآن الكريم على أنه شيء مقدس غاية التقديس، وأنه كلام الله سبحانه الذي لا يقبل أي تغيير أو تبديل حتى من قبل الرسول نفسه كما أكد ذلك القرآن الكريم[1] كما أنهم ناضلوا وجاهدوا في سبيل مفاهيم القرآن وآياته وأحكامه التي كانت تعايش حركتهم لمدة ثلاثة وعشرين عاما، وضحوا بأنفسهم من أجل هذا الدين الجديد الذي كان يشكل التصرف في القرآن - في نظرهم - خروجا عنه وارتدادا عن الالتزام به .

٣- إن الحكم في عهد الشيخين لم يسلم من وجود المعارضة التي كانت ترفع أصواتها أحيانا من أجل خطأ يقع فيه الخليفة في تطبيق بعض الأحكام ، ومع هذا لا نجد في التأريخ أية إشارة إلى الاحتجاج أو ما يشبه الاحتجاج مما يشير إلى وقوع هذه الفرضية ، فكيف يمكن أن تسكت المعارضة في كلامها وأقوالها زمن الشيخين أو بعدهم عن كل ذلك ؟ !

[1]- ((قل ما يكون لي أنْ أبدله من تلقاء نفسي إنْ أتبعُ إلا ما يوحى إلي))(يونس:١٥).

ومن هنا يتضح موقفنا من السبب الثاني :

فأولاً: إن وعي الأمة ونظرتها المقدسة للكتاب وصلته بالله بشكل لا يقبل التغيير والتبديل لا يسمح بوقوع مثل هذا العمل مطلقا .

ثانيا: إن المعارضة لا يمكن أن تترك هذه الفرصة تمرُ دون أن تستغلها في صراعها مع العهد والخليفة، مع إننا لا نجد إشارة إلى ذلك في كلامهم .

ثالثا: إن هناك نصوصا سياسية واسعة تضمنت ملاحظات حول تصرفات الخليفة أبي بكر وعمر، مثل المناقشة السياسية التي شنتها الزهراء (عليها السلام) ومن بعدها أمير المؤمنين عليه السلام وجماعته المؤمنون بإمامته لم تتناول أي نص قرآني غير مدون في القرآن الكريم الموجود بين أيدينا ، ولو كان مثل هذا النص موجودا في القرآن لكان من الطبيعي أنْ يستعملوه أداة لكسب المعركة إلى جانبهم وإظهار الحق الذي ناضلوا من اجله .

وأما الحالة الثالثة : فهي تبدو أكثر استحالة وبعدا عن الحقيقة التأريخية من سابقتيها وذلك للأسباب التالية :

أولا: إن الإسلام – والى جنبه القرآن الكريم – قد أصبح منتشرا بشكل كبير بين الناس وفي آفاق مختلفة ، وقد مر على المسلمين زمن كبير يتداولونه أو يتدارسونه فلم يكن في ميسور عثمان – لو أراد أنْ يفعل ذلك – أنْ ينقص منه شيئا، بل ولم يكن ذلك في ميسور من هو أعظم شأنا من عثمان ، وقد اعترض المسلمون بالفعل على عثمان وقتلوه لأسباب مختلفة .

ثانيا: إن النقص إما أن يكون في آيات لا مساس فيها بخلافة عثمان ، وحينئذ فلا يوجد أي داع لعثمان أنْ يفتح ثغرة كبيرة في كيانه السياسي ، وإما أن يكون في

آيات تمس خلافة عثمان وإمامته السياسية ، فقد كان من المفروض ان تؤثر مثل هذه الآيات في خلافة عثمان نفسه ، فتقطع الطريق عليه في الوصول إلى الخلافة .

ثالثا: إن الخليفة عثمان لو كان قد حرف القرآن الكريم لاتخذ المسلمون ذلك أفضل وسيلة لتبرير الثورة عليه وإقصائه عن الحكم أو قتله ، مع أننا لا نجد في مبررات الثورة على عثمان شيئا من هذا القبيل ، ولما كانوا في حاجة للتذرع في سبيل ذلك بوسائل وحجج أخرى ليست من الوضوح بهذا القدر .

رابعا: إن الخليفة عثمان لو كان قد ارتكب مثل هذا العمل لكان موقف الإمام علي عليه السلام تجاهه واضحا، ولأصر على إرجاع الحق إلى نصابه في هذا الشأن فنحن حين نجد الإمام علياً عليه السلام يأبى إلا أنْ يرجع الأموال التي أعطاها عثمان إلى بعض أقربائه وخاصته ويقول بشأن ذلك: ((والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته ، فإن في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق)) [1].

وكذلك نجد منه نفس الموقف الحازم مع ولاة عثمان المنحرفين، فلا بد أنْ نجزم باستحالة سكوته عن مثل هذا الأمر العظيم على فرض وقوعه.

وأمّا الحالة الرابعة: ومن هذه المناقشة التفصيلية للحالات الثلاث السابقة يتضح موقفنا من الحالة الرابعة فان الحجاج بن يوسف الثقفي أو غيره من الولاة لا يمكن أنْ نتصور فيهم القدرة على تحريف القرآن الكريم بعد أن عم شرق الأرض وغربها كما لا نجد المبرر الذي يدعو الحجاج أو الأمويين إلى مثل هذا العمل الذي يحمل في طياته الخطر العظيم على مصالحهم ويقضي على آمالهم .

---

[1] – شرح نهج البلاغة،ج١،ص٢٦٩.

وأمّا الحالة الخامسة: فلا يمكن فرضها أصلاً، وذلك لانّ هؤلاء لا قدرة لهم على مثل هذا العمل مع وجود السلطة الدينية التي تعرف القرآن الكريم وتحميه من التلاعب ، والتي هي المرجع الرسمي لتعيين آياته وكلماته لدى الناس .

الدرس الخامس

جمع القرآن

على عهد النبي ﷺ

شبهتان حول الجمع في عهد الشيخين ومناقشتهما

جمع القرآن على عهد النبيﷺ :

س١ : جمع القرآن له معنيان بين ذلك؟

ج: **الأول**: حفظه في الصدور على سبيل الاستيعاب لجميع آياته ، ومنها قولنا جُمّاع القرآن أي حفاظه .

الثاني: كتابته وتسجيله في أوراق بشكل كامل .

فأما الأول: جمع القرآن بمعنى حفظه في القلب واستظهاره فقد أوتيه رسول الله قبل الجميع، فكانﷺسيد الحُفّاظ وأول الجُمّاع كما كان يرغب المسلمين باستمرار في حفظ القرآن وتدارسه واستظهاره، ويدفع كل مهاجر جديد إلى أحد الحفاظ من الصحابة ليعلمه القرآن، ويستعمل مختلف أساليب التشجيع لتعميم حفظ القرآن وإشاعة تلاوته، حتى أصبح مسجد الرسولﷺ عامرا بتلاوة القرآن يضج بأصوات القراء، فأمرهم النبيﷺ أنْ يخفظوا أصواتهم لئلا يتغالطوا .

×فعن عبادة بن الصامت : ((كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول اللهﷺ ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم رسول الله ﷺ أنْ يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا)) [1].

وشاعت قراءة القرآن في كل مكان في المجتمع الإسلامي، وافتتن المسلمون بتلاوته وشغفوا بقراءته والاستماع إليه، وكان همهم الذي ملك عليهم قلوبهم، حتى روي عن رسول الله ﷺ

[1]- مناهل العرفان،ص٣٢٤.

أنه قال: ((إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين[1] حين يدخلون بالليل واعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وان كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار))[2].

وأمّا الثاني: أي جمعه بمعنى كتابته وتسجيله فقد عرفنا في بحث ثبوت النص القرآني إنّ القرآن الكريم قد تم جمعه زمن الرسول الأعظم ﷺ .

س٢: ولكنّ الرأي السائد في أبحاث علوم القرآن أن جمعه قد تم في عهد الشيخين ؟

ج: قد عرفنا أنه يمكن التوفيق بين الرأيين في أن أصل الجمع تم في عهد رسول الله ﷺ، وأمّا جمعه على شكل مصحف منتظم الأوراق فهو مما تم في عهد الشيخين.

شبهتان حول الجمع في عهد الشيخين ومناقشتهما :

وهناك بعض الشبهات الأخرى[3] تثار حول فرضية الجمع في عهد الشيخين أيضا نذكر منهما الشبهتين التاليتين . ولعل من الجدير بالذكر أن هاتين الشبهتين قد أثيرتا في الأبحاث الإسلامية كما أثيرت في أبحاث المستشرقين ومقلديهم من الباحثين .

---

[1] – الأشعريين: اسم قبيلة من قبائل اليمن ، و هي قبيلة أبي موسى الأشعري.
منازِلَهم : جمع منزل و هو الموضع يُنْزَل فيه ، أي انه يعرف أماكن مبيتهم بالليل حين يرافقهم في رحلة أو قافلة من أصواتهم ، بالرغم انه قد لا يكون رأى أين مكان مبيتهم بالنهار.

[2] – كنز العمال، ج١٢،ص٥٦.

[3] – أعتمدنا بصورة رئيسيةٍ في هذا البحث على ما كتبه أُستاذنا الكبير آية السيد الخوئي (قدس سره) في البيان :٢٢٢–٢٣٤(المؤلف)

س١ : بيِّن الشبهة الأولى حول مصحف الإمام علي عليه السلام مع مناقشتها؟

ج: **الشبهة الأولى**: إن بعض النصوص التأريخية المروية عن أهل البيت عليهم السلام وغيرهم تذكر وجود مصحف خاص لعلي بن أبي طالب عليه السلام يختلف عن المصحف الموجود المتداول بين المسلمين في الوقت الحاضر، ويشتمل هذا المصحف على زيادات وموضوعات ليست موجودة في المصحف المعروف .

وتتحدث هذه النصوص عن مجيء علي بن أبي طالب عليه السلام بهذا المصحف إلى الخليفة الأول أبي بكر، بقصد أن يأخذ المصحف المذكور مكانه من التنفيذ بين المسلمين، ولكن أبا بكر لم يقبل ذلك ورفض هذا المصحف .

ولما كان علي بن أبي طالب أفضل الصحابة علما، ودينا، والتزاما بالإسلام وحفاظا عليه فمن الواضح حينئذ أن يكون المصحف الموجود فعلا قد دخل عليه التحريف والنقصان، نتيجة للطريقة الخاطئة التي اتبعت في جمعه والتي عرفنا بعض تفاصيلها.

ومن اجل إيضاح هذه الشبهة يورد أنصارها بعض هذه النصوص التأريخية وهي :

١- النص الذي جاء في احتجاج علي عليه السلام على جماعة من المهاجرين والأنصار: فقال له علي عليه السلام: ((يا طلحة إنّ كل آية أنزلها الله - جل وعلا - على محمد عندي بإملاء رسول الله وخط يدي، وتأويل كل آية أنزلها الله على محمد وكل حرام وحلال أو حد أو حكم أو شيء تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط يدي حتى أرش الخدش)) [1].

---

[1]- الإحتجاج، للطبرسي، ج١، ص٢٢٣.

٢- النص الذي يتحدث عن احتجاج علي عليه السلام على الزنديق، والذي جاء فيه: ((أنه أتى بالكتاب على الملا مشتملا على التأويل والتنزيل والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ ، لم يسقط منه حرف ألف ولا لام فلم يقبلوا منه)) [١]..

٣- النص الذي رواه محمد بن يعقوب الكليني في الكافي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: ((ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله، ظاهره وباطنه غير الأوصياء)) [٢].

٤- النص الذي رواه محمد بن يعقوب الكليني أيضا في الكافي عن الباقر عليه السلام أنه قال: ((ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما انزل إلا كذاب وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة من بعده عليهم السلام)) [٣].

وتناقش هذه الشبهة:

أولاً:أنه قد يفترض وجود مصحف لعلي عليه السلام يختلف مع المصحف الموجود فعلا من حيث الترتيب، بل قد يختلف عنه أيضا لوجود إضافات أخرى فيه ولكن الكلام في حقيقة هذه الزيادة، إذ لا دليل على أنها زيادات قرآنية وإنما تفسير هذه الزيادات على أنها تأويلات للنص القرآني، بمعنى ما يؤول إليه الشيء أو أنها تنزيلات من الوحي الإلهي نزلت على صدر رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير وشرح القرآن وعلمها أخاه علي بن أبي طالب عليه السلام وليست كلمتا التأويل والتنزيل تعنيان في ذلك الوقت ما يراد منهما في اصطلاح علماء القرآن، حيث يقصد من

---

[1]- تفسير الصافي، المقدمة السادسة، ص١١.

[2]- أصول الكافي،ج١،ص٢٢٨.

[3]- المصدر السابق.

التأويل حمل اللفظ القرآني على غير ظاهره والتنزيل خصوص النص القرآني، وإنما يراد منهما المعنى اللغوي الذي هو في الكلمة الأولى ما يؤول إليه الشيء ومصداقه الخارجي ، وفي الثانية ما أنزله الله وحيا على نبيه سواء كان قرآنا أو شيئا آخر . وعلى أساس هذا التفسير العام للموقف تتضح كثير من الجوانب الأخرى حيث يمكن أنْ تحمل الروايات التي أشارت لها الشبهة على معنى ينسجم مع هذا الموقف أيضا، كما فعل العلامة الطباطبائي ذلك في بعض هذه الروايات.

ثانياً: وإضافة إلى ذلك نجد بعض هذه الروايات ضعيفة السند، لا يصح الاحتجاج أو الاعتماد عليها في مقابل ثبوت النص القرآني .

س٢: بيِّنْ الشبهة الثانية حول وجود كثرة من الروايات الدالة على التحريف مع مناقشتها؟

ج: مضمون الشبهة الثانية: إن مجموعة كبيرة من الروايات الواردة عن طريق أهل البيت عليهم السلام دلت على وقوع التحريف في القرآن الكريم، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن ذلك كان نتيجة للطريقة التي تم بها جمع القرآن الكريم، أو لأسباب طارئة أخرى أدت إلى هذا التحريف .

وتناقش هذه الشبهة: بأن الموقف تجاه هذه الروايات المتعددة يتخذ أسلوبين رئيسين:

الأسلوب الأول: المناقشة السندية لأغلب هذه الروايات

وذلك من خلال مناقشة أسانيد وطرق هذه الروايات، فان الكثير منها قد تم أخذه من كتاب أحمد بن محمد السياري الذي تم الاتفاق بين علماء الرجال على فساد مذهبه وانحرافه[1] وكتاب علي بن أحمد الكوفي الذي رماه علماء الرجال

[1] – جامع الرواة،ج١، ص٦٧، وص٥٥٣.

بالكذب[1] وبعض هذه الروايات وان كان صحيح السند إلا أنه لا يشكل قيمة كبيرة وان كان مجموع هذه الروايات قد يوجب حصول الاطمئنان - كما يقول السيد الخوئي - بصدور بعضها عن الإمام عليه السلام.

الأسلوب الثاني: المناقشة الدلالية للروايات

وذلك من خلال مناقشة دلالتها على وقوع التحريف في القرآن بمعنى وقوع الزيادة أو النقيصة ومن ثم لا يمكن الاستدلال بها حتى لو تم سند بعضها أو التزمنا بالاطمئنان بصدور بعضها إجمالا فيه .

س١: ما هو الوجه في تقسيم الروايات إلى أربعة أقسام؟

ج: وذلك تبعاً لاختلافها في المضمون وما تطرحه من دعاوى وأحكام .

أحمد بن محمد بن السياري المتوفى (٢٦٧هـ): أصفهاني ويقال بصري، من المعاصرين للإمام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام. وقال الشيخ الطوسي: - أحمد بن محمد بن سيار ، أبو عبد الله ، الكاتب ، بصري ، كان من كتاب آل طاهر في زمن أبي محمد عليه السلام، ويعرف بـ (السيّاري) ضعيف الحديث ، فاسد المذهب ، مجفو الرواية ، كثير المراسيل . تضعيف الشيخ الصدوق له :

نقل الشيخ الطوسي عن فهرست الشيخ الصدوق المتوفى (٣٨١ هـ) تضعيفه فقال:

- فَأَمَّا مَا رَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّد السَّيَّارِيِّ، عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعَسْكَرِ قَالَ خَرَجَ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام أَنَّ صَاحِبَ الصَّيْدِ يَقْصُرُ مَا دَامَ عَلَى الْجَادَّة فَإِذَا عَدَلَ عَنِ الْجَادَّة أَتَمَّ فَإِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا قَصَرَ. فَهَذَا خَبَرٌ ضَعِيفٌ وَرَاوِيه السَّيَّارِيُّ، وَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ بَابَوَيْه - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي فِهْرِسْته حِينَ ذَكَرَ كِتَابَ النَّوَادِرِ: (اسْتَثْنَى مِنْهُ مَا رَوَاهُ السَّيَّارِيُّ، وَقَالَ: لَا أَعْمَلُ بِه، وَلَا أُفْتِي بِه، لِضَعْفِه)

[1]- وذكر العلاّمة (ت ٧٢٦ هـ) ما قاله النجاشي والشيخ، ثمّ ذكر كلام ابن الغضائري: هو مدّع العلويّة، كذّاب غال، صاحب بدعة، رأيت له كتباً كثيرة، لا يلتفت إليه (خلاصة الأقوال: ٣٦٥ -١٤٣٥، وانظر: رجال ابن الغضائري: ٨٢ - ١٠٤).

س٢: أذكر هذه الأقسام الأربعة مع مناقشتها؟

ج: **القسم الأول:** النصوص التي جاء التصريح فيها بوقوع التحريف في القرآن الكريم عن طريق استعمال كلمة (التحريف) فيها ووصف القرآن بها ، ومن هذه النصوص الروايات التالية :

١- عن أبي ذر قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه..﴾ [1] قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((ترد أمتي علي يوم القيامة على خمس رايات . . . ثم ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وآله يسأل الرايات عما فعلوا بالثقلين فتقول الراية الأولى : أما الأكبر فحرفناه ونبذناه وراء ظهورنا، وأما الأصغر فعاديناه وأبغضناه وظلمناه، وتقول الراية الثانية أما الأكبر فحرفناه ومزقناه وخالفناه ، وأما الأصغر فعادينا هو قاتلناه)) [2].

٢- عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال : ((دعا رسول الله صلى الله عليه وآله بمنى فقال : أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين ما أنْ تمسكتم بهما لن تضلوا ، كتاب الله وعترتي والكعبة والبيت الحرام، ثم قال أبو جعفر عليه السلام أما كتاب الله فحرفوا، وأما الكعبة فهدموا، وأما العترة فقتلوا، وكل ودائع الله قد نبذوا ومنها قد تبرؤا)) [3].

٣- عن علي بن سويد قال كتبت إلى أبي الحسن موسى عليه السلام وهو في الحبس كتابا . . . إلى أن ذكر جوابه عليه السلام بتمامه وفيه قوله عليه السلام : ((اؤتمنوا على كتاب الله فحرفوه وبدلوه)) [4].

---

[1]- آل عمران: ١٠٦.

[2]- تفسير القمي،ج١،ص١٠٩.

[3]- بصائر الدرجات، ص٤١٣.

[4]- أصول الكافي ٨:١٢٥.

ويناقش هذا القسم من الروايات:

أولاً: لا دلالة في هذه الروايات جميعها على وقوع التحريف في القرآن الكريم بمعنى الزيادة والنقيصة، وإنما تدل على وقوع التحريف فيه بمعنى حمل بعض ألفاظه على غير معانيها المقصودة لله سبحانه، ومن ثم تحريفها عن أهدافها ومقاصدها .

ونحن في الوقت الذي لا نشك بوقوع مثل هذا التحريف في القرآن الكريم من قبل بعض المسلمين عن قصد أو بدون قصد نظر الاختلاف تفاسير القرآن وتباينها لا نرى فيه ما يضر عظمة القرآن أو يفيد في تأييد هذه الشبهة، بل إن القرآن في الآية (السابعة من آل عمران) التي تحدثت فيها عن المحكم والمتشابه أشار إلى هذا النوع من التحريف، كما دلت الرواية التي رواها الكليني في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام في رسالته إلى سعد الخير: ((وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده فهم يرونه ولا يرعونه والجهال يعجبهم حفظهم للرواية والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية . . .)) [1] .

ثانياً: وقد يدل بعضها على تحريف بعض الكلمات القرآنية بمعنى قراءتها بشكل يختلف عن القراءة التي أنزلت على صدر رسول الله صلى الله عليه وآله، وهذا ينسجم مع الرأي الذي ينكر تواتر القراءات السبع ويرى أنها نتيجة لاختلاف الرواية أو الاجتهاد ، أو لأسباب أخرى ذاتية أو مذهبية أو سياسية .

القسم الثاني: الروايات التي تدل على أن القرآن الكريم قد صرح بذكر بعض أسماء أئمة أهل البيت عليهم السلام ،أو تحدث عن خلافتهم بشكل واضح ومنها النصوص

[1] – الروضة من الكافي،ج١١،ص٣٥٢.

التالية : ١- عن محمد بن الفضيل عن الحسن عليه السلام قال: ((ولاية علي بن أبي طالب مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله رسولا إلا بنبوة محمد وولاية وصيه صلى الله عليهما وآلهما)) [1].

٢- رواية العياشي عن الصادق عليه السلام: ((لو قرئ القرآن كما نزل لألفيتنا فيه مسمّين)) [2].

٣- رواية الكافي والعياشي عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ((القرآن نزل على أربعة أرباع: ربع فينا وربع في عدونا، وربع سنن وأمثال، وربع فرائض وأحكام ولنا كرائم القرآن)) [3].

والموقف تجاه هذا القسم من النصوص يتخذ أشكالا ثلاثة :

الأول: أننا قد ذكرنا سابقا أن بعض التنزيل ليس من القرآن الكريم ، وإنما هو مما أوحي إلى النبي صلى الله عليه وآله ولعل هذا هو المقصود من هذه الروايات ، حيث جاء ذكرهم في التنزيل تفسيرا لبعض الآيات القرآنية لا جزءا من القرآن الكريم نفسه .

الثاني: أننا نكون مضطرين لرفض هذه الروايات إن لم نوفق لتفسيرها بطريقة تنسجم مع القول بصيانة القرآن الكريم من التحريف للسببين التاليين :

أ- مخالفة هذه الروايات للكتاب الكريم ، وقد وردت نصوص عديدة من طريق أهل البيت تدل على ضرورة عرض أخبار أهل البيت على القرآن الكريم قبل الأخذ بمضمونها ، مثل قول الصادق عليه السلام: ((الوقوف عند الشبهة خير من اقتحام

---

[1]- بصائر الدرجات، ص٧٢.

[2]- تفسير العياشي،ج١، ص١٣.

[3]- المصدر السابق،ص٩.

الهلكة ، إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه)) [1].

ب- مخالفة هذه الروايات للأدلة المتعددة التي تحدثنا عنها في بحث ثبوت النص القرآني .

الثالث: وجود القرائن التأريخية التي تدل على عدم ورود أسماء الأئمة في القرآن الكريم بشكل صريح، وهي:

أولاً: حديث الغدير، حيث نعرف منه أن الظروف التي أحاطت بقضية الغدير تنفي أن يكون هناك تصريح من القرآن باسم علي عليه السلام ، وإلا فلماذا يحتاج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى تأكيد بيعة علي عليه السلام ، وحشد هذا الجمع الكبير من المسلمين من اجل ذلك ، بل لماذا يخشى الرسول الناس في إظهار هذه البيعة إذا كان قد صرح القرآن بتسميته ومدحه الأمر الذي أدى إلى أن يؤكد القرآن الكريم عصمة الله له من الناس في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ. . . ﴾[2].

ثانياً: إنّ التأريخ لم يحدثنا أن عليا أو أحدا من أصحابه احتج لإمامته بذكر القرآن لاسمه، مع أنهم احتجوا على ذلك بأدلة مختلفة، ولا يمكن أنْ نتصور إهمال هذا الدليل لو كان موجودا . ومن هذه القرائن هذا النص الذي يتحدث عن عدم وجود اسم علي في القرآن: " عن أبي بصير قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿. . . أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ. . .﴾ [3] فقال:

---

[1]- الوسائل،ج٨،ص٨٦،ح ٣٥.

[2]- المائدة:٦٧.

[3]- النساء:٥٩.

((نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام فقلت له : إن الناس يقولون: فما له لم يسم عليا وأهل بيته عليهم السلام في كتاب الله عز وجل؟ قال: فقال: قولوا لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثا وأربعا حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسر ذلك لهم، ونزلت عليه الزكاة ولم يسم لهم من كل أربعين درهما درهم...)) [1].

وهذا الحديث يكون واضحا للمعنى المراد من الأحاديث التي ساقتها الشبهة ومقدما عليها لأنه يقف منها موقف المفسر وينظر إلى موضوعها ويوضح عدم ذكر القرآن لأسماء الأئمة صريحا .

القسم الثالث: الروايات التي تدل على وقوع الزيادة والنقصان معا في القرآن الكريم وان طريقة جمع القرآن أدت إلى وضع بعض الكلمات الغريبة من القرآن مكان بعض الكلمات القرآنية الأخرى كما ورد ذلك في النصين التاليين :

١- عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام: ((صراط من أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)) .

٢- عن هشام بن سالم قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ . . . ﴾ [2] قال: هو آل إبراهيم وآل محمد على العالمين فوضعوا اسما مكان اسم.

---

[1]- الكافي،ج ١،ص٢٨٦.

[2]- آل عمران:٣٣.

ويناقش هذا القسم من الروايات بما يلي :

أولا: إن الأمة الإسلامية بمذاهبها المختلفة أجمعت على عدم وقوع التحريف في القرآن الكريم بالزيادة ، إضافة إلى وجود النصوص الكثيرة الدالة على عدم وجود مثل هذا التحريف .

ثانيا: إن هذا القسم يتنافى مع الكتاب نفسه، وقد أمر الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بلزوم عرض أحاديثهم على الكتاب الكريم ، وان ما خالف الكتاب فيضرب عرض الجدار .

القسم الرابع: الروايات التي دلت على أن القرآن الكريم قد تعرض للنقصان فقط ، مثل ما رواه الكليني في الكافي عن أحمد بن محمد بن أبي نصر: ((قال دفع إلي أبو الحسن عليه السلام مصحفا وقال لا تنظر فيه ففتحته وقرأت فيه : (لم يكن الذين كفروا . . .) فوجدت فيها اسم سبعين رجلا من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم قال : فبعث إلي : ابعث إلي بالمصحف)) [1].

ويناقش هذا القسم :بأنّ الزيادة الموجودة في مصحف أبي الحسن عليه السلام أو غيره تحمل على ما سبقت الإشارة إليه من أنها في مقام تفسير بعض الآيات ، وفي المورد الذي لا يمكن أنْ يتم فيه مثل هذا الحمل والتفسير لابد من طرح الرواية تمسكا بالكتاب الكريم الذي أمرنا أهل البيت عليهم السلام بعرض أحاديثهم عليه قبل الأخذ بمضمونها .

---

[1] – الكافي،ج ٢،ص ٦٣١،ح ١٦.

الدرس السادس

إعجاز
القرآن الكريم

إعجاز القرآن الكريم[1]

س١: كيف ينفذ كلام الأنبياء عليهم السلام في قلوب وعقول الناس ؟

ج: وذلك عن طريق إيمان الناس بنبوتهم عليهم السلام، واعتقادهم بصدق دعواهم في ارتباطه بالله سبحانه وتعالى، لكي يتاح له أن يستلم زمام قيادتهم ويغذيهم برسالته ومفاهيمها ومبادئها.

س٢: ولكن هل الدعوى المجردة عن الدليل كافيةٌ في التصديق؟

ج: لا وإنما الناس لا يؤمنون بدون دليل، إذا كانت الدعوى التي يدعوهم إليها ذات حجم كبير وتقترن بالمشكلات والمصاعب وترتبط بعالم الغيب، فلا يمكن للنبي أنْ يدعوهم إلى الإيمان به وبرسالته، ويكلفهم بذلك ما لم يقدم لهم الدليل الذي يبرهن على صدق دعواه ، وكونه رسولا حقا من قبل الله تعالى .

س٣: ما هو الدليل القطعي الذي يثبت صدق دعوى الأنبياءعليهم السلام ؟

ج: الدليل الذي يبرهن على صدق النبي في دعواه هو المعجزة.

س٤: ما المقصود بالمعجزة؟

ج: وهي أنْ يحدث تغييرا في الكون - صغيرا أو كبيرا - يتحدى به القوانين الطبيعية التي ثبتت عن طريق الحس والتجربة ، فمن وضع الماء على النار ليكون حارا فارتفعت درجة حرارته يطبق قانونا طبيعيا عرفه الناس عن طريق الحس والتجربة وهو انتقال الحرارة من الجسم الحار إلى الجسم الذي يجاوره ، وأما من ادعى أنه يجعل الماء حارا بدون الاستعانة بأي طاقة حرارية، وحقق ذلك فعلا فهو يتحدى قوانين الطبيعة التي يكشف عنها الحس والتجربة، ومن أبرأ مريضا بإعطائه مادة مضادة للميكروب الذي أمرضه، يطبق قانونا طبيعيا يعرفه بالتجربة، وهو أنْ

[1]– كتبه الشهيد الصدر (قدس سره).

هذه المادة بطبيعتها تقتل الميكروب الخاص، وأما من أبرأ المريض بدون إعطاء أي مادة مضادة فهو يتحدى قوانين الطبيعة التي يعرفها الناس بالتجربة، ويحقق المعجزة . فإذا أتى النبي بمعجزة من هذا القبيل كانت برهانا على ارتباطه بالله تعالى ، وصدقه في دعوى النبوة، وإستحالة صدور المعجزة من الكاذب.

س٥: لماذا تكون المعجزة دليلاً قطعياً على صدق مدعي النبوة، وكونه مرتبطاً بالله؟

ج: وذلك لانّ الإنسان بقدرته الاعتيادية لا يمكنه أنْ يغير في الكون شيئا، إلا بالاستفادة من القوانين الكونية التي يعرفها عن طريق الحس والتجربة، فإذا استطاع الفرد أن يحقق تغييرا يتحدى به هذه القوانين، فهو إنسان يستمد قدرة استثنائية من الله تعالى، ويرتبط به ارتباطا يميزه عن الآخرين[1].

س٦: هل يجب تصديق مدعي النبوة؟

ج: لا يجب تصديقه، إلا إذا أتى بمعجزة، فهي علامة واقعية مستحيل تكذيبها.

س٧: هل يُعتبر سبق النوابغ من العلماء في الحقول العلمية، من المعجزات؟

ج: بناءً على ما تقدم فإذا افترضنا أن شخصا من العلماء اليوم سبق أنداده، ونجح في اكتشاف الورم السرطاني مثلا، والمادة التي تقضي عليه فهو يستطيع بحكم اكتشافه أنْ يبرئ مريضا من السرطان ، بينما يعجز عن ذلك جميع العلماء الآخرين، ولكن عمله هذا ليس معجزة لأنه إنما يتحدى جهل العلماء الآخرين بالسر والعلة والدواء، ولا يتحدى القوانين الكونية التي تثبت بالحس والتجربة، بل هو إنما استطاع أنْ يبرئ المريض من السرطان على أساس تجربة فذة قام بها في مختبره العلمي، فاكتشف قانونا لم يعرفه غيره حتى الآن، ومن الواضح أن معرفته

[1]- وأيضاً لقاعدةٍ عقليةٍ قطعيةٍ، وهي (قبح إجراء المعجزة على يد الكاذب).

بالقانون الطبيعي عن طريق التجربة، ليست تحديا للقانون، وإنما هي تطبيق للقانون الطبيعي، وقد تحدى بذلك زملاءه الذين عجزوا عن اكتشاف القانون قبله .

س٨: هل يُعتبر القرآن معجزة سماوية كبرى؟

ج: بما إنّ المعجزة هي أن يحدث النبي تغييرا في الكون يتحدى به القوانين الطبيعية، فمن الميسور أن نطبق فكرتنا هذه عن المعجزة على (القرآن الكريم) ، الذي أحدث تغييرا كبيرا جدا ، وثورة كبرى في حياة الإنسان لا تتفق مع المألوف والمجرب من القوانين الكونية والسنن التأريخية للمجتمع .

فنحن إذا درسنا الوضع العالمي، والوضع العربي والحجازي بصورة خاصة، وحياة النبي قبل البعثة، ومختلف العوامل والمؤثرات التي كانت متوفرة في بيئته ومحيطه ثم قارنا ذلك بما جاء به الكتاب الكريم، من رسالة عظمي تتحدى كل تلك العوامل والمؤثرات، وما أحدثه هذا الكتاب من تغيير شامل كامل، وبناء لأمة تملك أعظم المقومات والمؤهلات، إذا لاحظنا كل ذلك وجدنا أن القرآن معجزة كبرى، ليس لها نظير لأنه لم يكن نتيجة طبيعية لتلك البيئة المختلفة بكل ما تضم من عوامل ومؤثرات، فوجوده إذن يتحدى القوانين الطبيعية ويعلو عليها، وهدايته وعمق تأثيره لا تفسره تلك العوامل والمؤثرات .

س٩: ما الأدلة على إعجاز القرآن الكريم؟

ج: توجد عدة نقاط تبين إعجاز القرآن، منها:

١- إنّ القرآن شع على العالم من جزيرة العرب ، ومن مكة بصورة خاصة ، وهي منطقة لم تمارس أي لون من ألوان الحضارة والمدنية، التي مارستها مختلف المجتمعات الراقية نسبيا يومئذ، وكانت هذه أولى المفارقات التي برهنت على أن الكتاب لم يجر وفق القوانين الطبيعية الاعتيادية، لان هذه القوانين التجريبية

تحكم بأن الكتاب مرآة لثقافة عصره ومجتمعه ، الذي عاشه صاحب الكتاب ، وتثقف فيه ، فهو يعبر عن مستوى من مستويات الثقافة في ذلك المجتمع ، أو يعبر على أفضل تقدير عن خطوة إلى الأمام في تلك الثقافة ، وأما أنْ يطفر الكتاب طفرة كبيرة جدا ، ويأتي – بدون سابق مقدمات وبلا إرهاصات – بثقافة من نوع آخر لا تمت إلى الأفكار السائدة بصلة ولا تستلهمها ، وإنما تقلبها رأسا على عقب ، فهذا ما لا يتفق مع طبيعة الأشياء في حدود التجربة التي عاشها الناس في كل عصر .

٢- إن القرآن بُشِّر به النبي، وأعلنه على العالم فرد من أفراد المجتمع المكي ، ممن لم ينل ما يناله حتى المكيون من ألوان التعلم والتثقيف، فهو أمي، لا يقرأ ولا يكتب[1] وقد عاش بين قومه أربعين سنة فلم تؤثر عنه طيلة هذه المدة محاولة تعلم أو إثارة من علم أو أدب ، كما أشار القرآن إلى ذلك:

[1]- أنّ الأمي قطعاً وصفٌ وصفَ به النبي الكريم محمد (ص) دون غيره من باقي الأنبياء، ولابد من وجود مناسبة ليوصف بهذا الوصف :كما في قوله تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ . (الأعراف:١٥٧) وكما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(الأعراف:١٥٨) لكن نسأل:

س١: ما معنى الأمي ؟ الجواب: هو من لا يقرأ ولا يكتب .

س٢: يعني هل كان النبي لا يقرأ ولا يكتب ؟ الجواب: قيل نعم فإنّ مما هو ثابت أنّ النبي قبل البعثة لا يقرأ ولا يكتب .

وهذا ما يتعارض من بعض الروايات الدالة على خلاف ذلك وتثبت أنّ النبي (ص) كان يقرأ ويكتب ونذكر رواية واحدة فقط طلباً للأختصار :

×في قوله تعالى:﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [1].

×وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾[2]. وهذا يعتبر تحديا آخر من القرآن للقوانين الطبيعية، إذ لو كان القرآن جاريا وفق هذه القوانين، لما كان من الممكن أنْ يجيء به فرد أمي، لم يشارك حتى في ثقافة مجتمعه، بالرغم من بساطتها، ولم يؤثر عنه أي بروز في عالم اللغة بمختلف مجالاتها، فيُبذّ[3] به الإنتاج الأدبي كله ويبهر بروعته وحكمته وبلاغته، أعاظم البلغاء والعلماء .

*حيث روى الشيخ محمد بن الحسن الصفار عن أحمد بن محمد عن أبي عبد الله البرقي عن جعفر بن محمد الصوفي قال سألت أبا جعفر(عليه السلام) محمد بن علي الرضا (عليه السلام) وقلت له: يا بن رسول الله لم سمي النبي الأمي قال: ما يقول الناس ؟ قال: قلت له جعلت فداك يزعمون إنما سمى النبي الأمي لأنه لم يكتب. فقال: كذبوا عليهم لعنة الله أنى يكون ذلك والله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) فكيف كان يعلمهم مالا يحسن والله لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو بثلاثة وسبعين لسانا وإنما سمى الأمي لأنه كان من أهل مكة و مكة من أمهات القرى وذلك قول الله تعالى في كتابه: (لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا). ((بصائر الدرجات – محمد بن الحسن الصفار – صفحة ٢٤٥ باب في أن رسول لله ص كان يقرأ ويكتب بكل لسان)).

وحتى لو سلمنا أنه كان لا يقرأ ولا يكتب وأشكل أنّ هذا نقصٌ لكمالٍ فقد سمعنا من بعض العلماء ومنهم السيد كمال الحيدري (دام ظله) أنّ القراءة والكتابة من الكمالات لمن يحتاج إليهما وأمّا النبي المصطفى (ص) فهو مدينة العلم ، فأصلاً لا يحتاج إليهما وذلك لعصمته وقوة ذاكرته وعدم تطرق السهو والنسيان إليه .

[1] – العنكبوت:٤٨.

[2] – يونس:١٦.

[3] – بَذَّ بَذَذْتُ ، يَبُذّ ، بذَّ منافِسَه سَبَقه ، غَلَبه ، تفوّق عليه ، بذَّ الشَّخصُ أقرانَه : بَزَّهم ، غلبَهم ، فاقهم :– كم من تلميذ بذَّ أستاذه .

فهل رأيت في مجرى القوانين الطبيعية شخصا جاهلا بالطب لم يدرس عنه شيئا يتقدم بكتاب في الطب يبهر عقول الأطباء بما يضم من أسرار العلم وآياته ؟ وهل رأيت في مجراها شخصا لا يحسن أن يكتب في لغة ما ، ولا يجيد شيئا من علومها يأتي بالرائعة التأريخية في حياة تلك اللغة ، ويكشف عن إمكانيات أدبية كبيرة جدا في تلك اللغة لم تكن تخطر على بال حتى يتصور الناس أنه ساحر ؟ والواقع أن المشركين في عصر (البعثة النبوية) أحسوا بهذا التحدي العظيم وكانوا حائرين في كيفية تفسيره، ولا يجدون تفسيرا معقولا له وفق القوانين الطبيعية ، ولدينا عدة نصوص تأريخية تصور حيرتهم في تفسير القرآن وموقفهم، القلق من تحديه للقوانين والعادات الطبيعية .

فمن ذلك أن الوليد بن المغيرة استمع يوما إلى النبي في المسجد الحرام وهو يقرأ القرآن فانطلق إلى مجلس قومه بني مخزوم فقال : ((والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وان له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمعذق وانه ليعلو وما يعلى)) [1] ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبا والله الوليد والله ليصبأن قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق فقعد إلى جانب الوليد حزينا ، فقال له الوليد مالي أراك حزينا يابن أخي ؟ فقال له : هذه قريش يصيبونك على كبر سنك ، ويزعمون انك زينت كلام محمد ، فقام الوليد مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه ، فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ ! فقالوا : اللهم لا ، فقال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتم عليه شيئا من ذلك ؟ ! قالوا : اللهم لا ، فقال :

---

[1] – البداية والنهاية،ج٣،ص٧٨.

تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ ! قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ ! فقالوا : اللهم لا ، فما هو إذن ؟ فغرق الوليد في الفكر ثم قال : ما هو إلا ساحر ! أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، فنزل قوله تعالى:﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۞ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۞ ثُمَّ نَظَرَ ۞ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۞ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۞ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[1] .

٣- إن القرآن الكريم يمتد بنظره إلى الغيب المجهول في الماضي البعيد وفي المستقبل على السواء، فهو يقص أحسن القصص عن أمم خلت ، وما وقع في حياتها من عظات وعبر، وما اكتنفها من مضاعفات ، يتحدث عن كل ذلك حديث من شاهد الأحداث كلها، وراقب جريانها ، وعاش في عصرها بين أصحابها .

×قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] .

×وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[3] .

×وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1] .

---

[1]- المدثر: ١٨-٢٤.

[2]- هود: ٤٩.

[3]- القصص:٤٤-٤٥.

وكل هذه الآيات الكريمة تأكد تحدي القرآن للقوانين الطبيعية في استيعابه لتلك الأحداث، وإحاطته بالماضي المجهول، إذ كيف يمكن بحكم القوانين الطبيعية أن يتحدث شخص في كتاب عن أحداث أمم في الماضي السحيق لم يعشها ولم يعاصرها ؟ وقد أحس المشركون بهذا التحدي أيضا: ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾ [٢].

وكانت حياة النبي محمد ﷺ ردا مفحما لهم ، فقد عاش في مكة ولم تتهيأ له أية دراسة لأساطير الأولين، أو كتب العهدين: التوراة والإنجيل، ولم يخرج من المنطقة إلا مرتين، سافر فيهما إلى الشام:

إحداهما: في طفولته مع عمه لقي فيها بحيراً، وهو ابن تسع سنين، فقال هذا الراهب لعمه : " سيكون لابن أخيك هذا شأن عظيم " [٣].

والأخرى: في تجارة خديجة وهو شاب وكان بصحبته ميسرة غلام خديجة، ولم يتجاوز ﷺ سوى مدينة بصرى [٤]، في كلتا الرحلتين القصيرتين فأين تأتى للنبي أنْ يدرس التوراة أو يكتب أساطير الأولين ؟

---

[1]- آل عمران:٤٤.

[2]- الفرقان:٥ .

[3]- بحار الأنوار، للمجلسي،ج٣٥،ص١٣٩.

[4]- بُصْرَى هي مدينة تاريخية تتبع محافظة درعا في الجمهورية العربية السورية حيث تبعد ٤٠ كم عن مركز مدينة درعا وحوالي ١٤٠ كم عن دمشق وترتفع عن سطح البحر بحوالي /٨٥٠/ مترا، كانت بصرى عاصمة دينية ومركزا تجاريا هاما وممرا على طريق الحرير الذي يمتد إلى الصين ومنارة للحضارة في عدة عصور تعود لآلاف السنين، وكان الرسول الكريم محمد بن عبد الله ،أثناء رحلاته التجارية إلى دمشق (الشام) قد مر ببصرى وقابل الراهب بحيرا المسيحي الذي تنبأ بنبوته.بلغ رسول الله (صلى الله عليه وآله) اثنتي عشرة سنة، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في ركب للتجارة سنة ٥٨٢م فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وهي قصبة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان وكان ببصرى راهب يقال له

س١٠: هل كان القرآن الكريم محيطاً بالماضي فقط؟

ج: بل كما كان القرآن محيطا بالماضي ، كذلك كان محيطا بالمستقبل،

بَحيرا في صومعة له، وكان ذا علم من أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة راهبا، إليه يصير علمهم عن كتاب يتوارثونه كابرا عن كابر.فلما نزلوا ذلك العام ببحيرا وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام نزلوا به قريبا من صومعته، فصنع لهم طعاما كثيرا وذلك عن شيء رآه وهو في صومعته.فقد رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله) في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبا منه فنظر إلى الغمامة حتى أظلت الشجرة وتهصرت أغصانها (مالت) على رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى استظل تحتها.

فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال: إني صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحركم. قال له رجل منهم: والله يا بحيرا إن لك لشأنا اليوم ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا فما شأنك اليوم؟ قال له بحيرا: صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيوف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلون منه كلكم. فاجتمعوا وتخلف رسول الله (صلى الله عليه وآله) من بين القوم لحداثة سنّه في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا في القوم ولم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده قال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي، قالوا: يا بحيرا ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلاما وهو أحدث القوم سنّا فتخلف في رحالهم. فقال: لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. ثم قام إليه رجل من قريش فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا، قام إليه بحيرا فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعُزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؟ وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فأبى رسول الله أن يستحلفه بهما، فقال له بحيرا: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه؟ فقال له: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله ومن نومه وهيئته، فجعل رسول الله يخبره بخبره فيوافق ذلك ما عند بَحيرا من صفته ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه وكان مثل أثر المحجمة (يعني أثر المحجمة القابضة على اللحم حتى يكون ناتئا) فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال له بحيرا: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّا، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنّه شرا فإنه كائن له شأن عظيم، فأسرع به إلى بلده، فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

فكم من خبر مستقبل كشف القرآن حجابه فتحقق وفقا لما أخبر به، ورآه المشركون، ومن هذا القبيل أخبار القرآن بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين:

×إذ قال تعالى: ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ... ﴾ [1].

وقد أخبر القرآن بذلك على أعقاب هزيمة فضيعة مني بها الروم ، وانتصار ساحق سجله الفرس عليهم ، ففرح المشركون بذلك لأنهم رأوا فيه انتصارا للشرك والوثنية على رسالات السماء ، نظرا إلى أن الفرس المنتصرين كانوا وثنيين والروم كانوا نصارى، فنزل القرآن يؤكد انتصار الروم في المستقبل القريب ، فهل يمكن لكتاب غير نازل من الله تعالى أنْ يؤكد خبرا غيبيا في المستقبل القريب من هذا القبيل ، ويربط كرامته ومصيره بالغيب المجهول، وهو يهدد مستقبله بالفضيحة إذا ظهر كذبه في نبوءته ؟ وهكذا نجد أن القرآن يتحدى الغيب في الماضي والمستقبل على السواء، ويتحدث بلغة المطمئن الواثق ، الذي لا يخالجه شك فيما يقوله، وهذا ما لا يقدر عليه إنسان ، أو كتاب إنسان وفقا للقوانين الطبيعية .

٤- كما أننا يمكن أن نجد أدلة أخرى على إعجاز القرآن ، في مقدمتها ما أشرنا إليه في بحث الهدف من نزول القرآن، من التغيير العظيم الذي أحدثه في أمة العرب وبمدة زمنية قياسية .

---

[1] - الروم:٢-٤.

الدرس السابع

شبهات حول إعجاز القرآن ومناقشاتها

شبهات حول إعجاز القرآن ومناقشاتها

س١: ماذا نستنتج من كون القرآن الكريم معجزةً؟

ج: نستنتج أنّ القرآن الكريم ليس صنعة بشرية وإنما هو وحي الهي.

س٢: وهل ينحصر إعجازه بالأسلوب البلاغي فقط؟

ج: لم ينحصر إعجازه في هذا الجانب البلاغي فقط، بل الأسلوب البلاغي أحد جوانبه الإعجازية.

س٣: هناك بعض الشبهات التي أثارها بعض المستشرقين حول القرآن الكريم، والسؤال هو على ماذا إنصبّت هذه الشبهات ؟

ج: إنّ أغلب هذه الشبهات، إنصبّت على جانب الأسلوب البلاغي .

س٤: بين الشبهات التي أُثيرت ضد إعجاز القرآن الكريم؟ مع الرد عليها؟

ج: ويمكن تقسيم الشبهات الآتية إلى قسمين رئيسين :

الأول: الشبهات التي تحاول أنْ تبرز جانب النقص والخطأ في الأسلوب والمحتوى القرآني . **والثاني**: الشبهات التي تحاول أنْ تثبت أن القرآن الكريم ليس معجزة لقدرة البشر على الإتيان بمثله .

القسم الأول من الشبهات حول إعجاز القرآن :

الشبهة الأولى : إن الإعجاز القرآني يرتكز بصورة رئيسة على الفصاحة والبلاغة القرآنية، ونحن نعرف أن العرب قد وضعوا قواعد وأسسا للفصاحة والبلاغة والنطق تعتبر هي المقياس الرئيس في تمييز الكلام البليغ من غيره، وبالرغم من ذلك نجد في القرآن الكريم بعض الآيات التي لا تنسجم مع هذه القواعد بل تخالفها ، الأمر الذي يدعونا إلى القول بان القرآن الكريم ليس معجزا لأنه لم يسر على نهج القواعد العربية وأصولها . وتسرد الشبهة بعض الأمثلة لذلك .

ويمكن أنْ تناقش هذه الشبهة - إضافة إلى ما أشرنا إليه من أن الدليل على إعجاز القرآن لا يختص بالجانب البلاغي - بأسلوبين رئيسين :

الأول: ملاحقة الأمثلة والتفصيلات التي تسردها الشبهة وبيان انطباقها مع القواعد العربية المختلفة وانسجامها معها ، وملاحظة مختلف القراءات القرآنية التي يتفق الكثير منها مع هذه القواعد ، بالشكل الذي لا يبقى مجالا لورود الشبهة عليها ، وقد قام العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي بجانب من ذلك[1]، كما يمكن أنْ نعرف ذلك من خلال مراجعة الكتب التفسيرية التي تناولت هذا الجانب مثل كتاب مجمع البيان للشيخ الطبرسي والكشاف للزمخشري .

الثاني: مناقشة أصل الفكرة التي تقوم عليها الشبهة ومدى إمكان الاعتماد عليها في الطعن بإعجاز القرآن، وهذا ما سوف نقوم به في هذا البحث، وذلك بملاحظة الأمرين التاليين :

أ- إن تأسيس قواعد اللغة العربية كان في وقت متأخر عن نزول القرآن الكريم وفي العصور الأولى للدول الإسلامية، بعد أن ظهرت الحاجة إليها بسبب التوسع الإسلامي الذي أدى إلى اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب، وقد كان الهدف الرئيس لوضع هذه القواعد هو الحفاظ على النص القرآني ولغته، وقد اتبعت في استكشاف هذه القواعد طريقة ملاحظة النصوص العربية الواردة قبل هذا الاختلاط أو التي لم تتأثر به.

فلم تكن عملية وضع القواعد عملية تأسيس واختراع من قبل واضعي اللغة العربية، وإنما هي عملية استكشاف لما كان العرب يتبعه من أساليب في البيان

---

[1]- الهدى إلى دين المصطفى،ج١،ص٣٣٠.

والنطق خلال كلامهم، ولذا كان الكلام العربي الأصيل هو الذي يتحكم في صياغة القاعدة وتفصيلاتها . ولا شك أن القرآن الكريم كان أهم تلك المصادر على الإطلاق التي اعتمد عليها واضعو هذه القواعد في صياغتها وتأسيسها ، لأنه أوثق المصادر العربية والكلام البليغ الذي بلغ القمة، ولذلك نجد علماء العربية عندما يريدون الاستدلال على صحة أي قاعدة يستدلون على ذلك بالآيات القرآنية أو بالنصوص التي تثبت نسبتها إلى العرب الأوائل. وعلى هذا الأساس التأريخي لوجود قواعد اللغة العربية يجب أنْ يكون الموقف تجاهها أنْ نجعل القرآن هو القياس الذي يتحكم في صحتها وخطئها، لا أنْ نجعل القواعد مقياسا نحكم به على القرآن، لان القاعدة العربية وضعت على ضوء الأسلوب القرآني فإذا ظهر أنها خلاف هذا الأسلوب يكشف ذلك عن وقوع الخطأ في عملية استكشاف القاعدة نفسها.

ب- ثم إذا لاحظنا موقف العرب المعاصرين للقرآن الكريم - وهم ذوو الخبرة والمعرفة الفائقة باللغة العربية - وجدناهم قد أذعنوا واستسلموا للبلاغة القرآنية وتأثروا بها إيماناً منهم بأنه يسير على أدق القواعد والأساليب العربية في البيان والتعبير، ولو كان في القرآن الكريم ما يتنافى مع قواعد اللغة العربية وأصولها لكان من الجدير بهؤلاء الأعداء أنْ يتخذوا ذلك وسيلة لنقد القرآن ومنفذا للطعن به .

الشبهة الثانية : إن القرآن قد تحدث عن قصص الأنبياء ، كما تحدثت الكتب الدينية الأخرى كالتوراة والإنجيل عنها، وعند المقارنة بين ما ذكره القرآن وما ورد في التوراة والإنجيل نجد القرآن يخالف تلك الكتب في حوادث كثيرة

ينسبها إلى الأنبياء وأممهم، الأمر الذي يجعلنا نشك في أن يكون مصدر القرآن الوحي الإلهي لسببين :

الأول: إنّ هذه الكتب من الوحي الإلهي الذي اعترف به القرآن، وإذا كان القرآن وحيا إلهيا أيضا فلا يمكن أنْ يناقض الوحي نفسه في الأخبار عن حوادث تأريخية واقعية .

الثاني: إنّ هذه الكتب ما زالت تتداولها أمم هؤلاء الأنبياء وهم بطبيعة ارتباطهم الديني والاجتماعي بأنبيائهم لا بد وان يكونوا أدق اطلاعا على أحوالهم من القرآن الذي جاء في أمة ومجتمع منفصل عن تأريخ هؤلاء الأنبياء .

ويمكن أنْ تناقش هذه الشبهة :

أولاً: إنّ - كسابقتها هذه الكتب الدينية قد تعرضت للتحريف والتزوير، كما سيأتي بيان ذلك ، وكان أحد أسباب التحريف هو الانفصال التأريخي الذي وقع بين الأنبياء وأممهم.

ثانياً: إضافة إلى أن ملاحظة محتوى الخلاف بين القرآن الكريم والكتب الدينية الأخرى يدعونا بنفسه للإيمان بصدق القرآن الكريم، بعد أن نجد التوراة والإنجيل يذكران في قصص هؤلاء الأنبياء مجموعة من الخرافات والأوهام يتجاوزها القرآن الكريم، وينسبان إلى الأنبياء أعمالا ومواقف لا يصح نسبتها إليهم ولا تليق برسل الله والقوام على شريعته ودينه ، بل لا تليق بمصلحين عاديين من عامة البشر، كما في نسبة شرب الخمر والزنا إلى لوط عليه السلام ، وكذلك نسبة وقوع داود تحت تأثير الشهوة والعشق لامرأة أجنبية بحيث يُفرِّط بأحد قادته الكبار في الحرب وهو زوج هذه المرأة من اجل التخلص منه والزواج بها، إلى

غير ذلك كما يتبين ذلك بوضوح عند المقارنة بين القرآن والكتب الدينية الأخرى[1].

الشبهة الثالثة: إن أسلوب القرآن في تناول الأفكار والمفاهيم وعرضها لا ينسجم مع أساليب البلاغة العربية ولا يسير على الطريقة العلمية في المنهج والعرض ، وذلك لأنه يجعل الموضوعات المتعددة متشابكة بعضها مع بعض ، فبينما يتحدث القرآن في التأريخ ينتقل إلى موضوع آخر من الوعد والوعيد والحكم والأمثال والأحكام وغير ذلك من الجهات ، فلا يجعل القارئ قادرا على الإلمام بالأفكار القرآنية، مع أن الموضوعات القرآنية لو كانت معروضة على شكل فصول وموضوعات مستقلة لكانت الفائدة المترتبة عليها أعظم والاستفادة منها أسهل، وكان العرض منسجما مع الأسلوب العلمي المنهجي الصحيح .

وتناقش هذه الشبهة على أساس النقطتين التاليتين :

الأولى: أن القرآن الكريم ليس كتابا علميا ولا كتابا مدرسيا، فهو ليس كتاب فقه أو تأريخ أو أخلاق ، وإنما هو كتاب هداية وتربية وهدفه الأساس هو أحداث التغيير الاجتماعي، والأسلوب القرآني خضع لهذا الهدف في طريقة العرض وفي التدرج في النزول وفي غير ذلك من الظواهر القرآنية ، كوجود الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه . وهذه الطريقة في العرض من الخصائص البارزة في القرآن الكريم التي خضعت لهذا الهدف للتمكن من إحداث التأثير المطلوب في نفسية الإنسان المعاصر لنزول القرآن ، بل ولكل إنسان يستمع للقرآن الكريم أو يقرؤه[2].

---

[1]– أنظر الهدى إلى دين المصطفى، للبلاغي،ج٢.

[2]– أنظر كتاب (الهدف من نزول القرآن) للمؤلف .

والنتائج العظيمة التي حققها القرآن الكريم في المجتمع الجاهلي أفضل شاهد على انسجام هذا الأسلوب مع الهدف الأساس للقرآن الكريم .

الثانية: أن هذه الطريقة في العرض يمكن أنْ تعتبر إحدى الميزات التي يتجلى فيها الإعجاز القرآني بصورة أوضح ، فإنه بالرغم من هذا التشابك في الموضوعات تمكن القرآن الكريم من الاحتفاظ بجمال الأسلوب وقوة التأثير وحسن الوقع على الأسماع والنفوس، الأمر الذي يدلل على براعة متناهية وقدرة عظيمة على عرض الموضوعات وطرح الأفكار .

الشبهة الرابعة: لا شك أن ذوي القدرة والمعرفة باللغة العربية يتمكنون من الإتيان بمثل بعض الكلمات القرآنية، وحين تتوفر هذه القدرة في بعض الكلمات فمن المعقول أنْ تتوفر أيضا في كلمات أخرى، وهذا ينتهي بنا إلى أن نجزم بوجود القدرة على الإتيان بسورة أو أكثر من القرآن الكريم لدى أمثال هؤلاء لان من يقدر على بعض القرآن يمكن أن نتصور فيه القدرة على الباقي بشكل معقول ، وبذلك لا يكون التحدي من قبل القرآن بالإتيان بسورة أو عشر سور واردا وصحيحا .

والمناقشة في هذه الشبهة واضحة: لان الإعجاز القرآني يتمثل في جانبين رئيسين:

الأول: جانب المضمون فمن الواضح أن القدرة على إعطاء فكرة أو فكرتين لا يعني القدرة على إعطاء هذا المقدار الكبير المنسجم من الأفكار والمفاهيم وفي نفس الظروف الموضوعية والذاتية التي جاء فيها القرآن الكريم ، والتحدي الذي شرحناه في بعض أبحاثنا السابقة عن إعجاز القرآن كان ضمن الظروف الخاصة التي عاشها النبي ﷺ وجاء فيها القرآن الكريم .

الثاني: جانب الأسلوب فإن القدرة على جملة أو مقدار من الكلمات لا يعني القدرة على تمام التركيب بعناصره المتعددة التي لا يمكن أنْ توجد أو تتوفر إلا ضمن التركيب بكامله، وهذا شيء واضح لا يحتاج إلى برهان، فإننا ندرك أن كثيرا من الناس يملكون قدرة النطق ببعض الكلمات العربية ولكن ذلك لا يعني أنهم قادرون على أن يكونوا خطباء، أو أدباء، أو شعراء، ويتمتعون بالبلاغة والفصاحة أو حتى الإتيان بقطعة كلامية بليغة كما أن كثيرا من الناس يتمكنون من القيام ببعض الأعمال البسيطة، ولكنهم غير قادرين على القيام بالمشاريع الضخمة التي تتركب من تلك الأعمال البسيطة كمشاريع البناء والصناعة والفن .

الصرفة في الإعجاز القرآني :

س١: ما المقصود بنظرية الصرفة؟ ولمَن تُنسب؟

ج: هي عبارة عن شبهة أو وهم هو أدى بجماعة من متكلمي المسلمين - كالنظام ومدرسته على ما نسب إليهم - إلى أن يفسروا ظاهرة الإعجاز القرآني بأنها نحو من الصرفة[1]، حيث يمكن أنْ يكون قد وجدوا - نتيجة الانطلاق من هذا الوهم -

---

[1]- مذهب الصرفة هو فرض أن الناس أو على الأقل البلغاء منهم قادرون على الإتيان بمثل القرآن أو على الأقل بسورة منه ، وإنما لم يأتوا بذلك مع تحدي القرآن لهم لان الله تعالى صرفهم بقدرته عن القيام بهذا العمل . ((لا شكّ أنّ مذهب الصرفة في إعجاز القرآن مذهب مردود بنصّ القرآن وإجماع الأُمّة ، لأنّ مذهب الصرف يرجع إلى أنّ القرآن لم يبلغ في مجال الفصاحة والبلاغة حدّ الإعجاز، حتّى لا يتمكّن الإنسان العادي من مباراته ومقابلته ، بل هو في هذه الجهة لا يختلف عن كلام الفصحاء والبلغاء ، ولكنّه سبحانه يحول بينهم وبين الإتيان بمثله ، إمّا بصرف دواعيهم عن المعارضة ، أو بسلب قدرتهم عند المقابلة. ومن المعلوم أنّ تفسير إعجاز القرآن بمثل هذا باطل جدّاً لأنّ القرآن عند المسلمين معجز لكونه خارق للعادة لما فيه من ضروب الإعجاز في الجوانب الأربعة : ١ ـ الفصاحة القصوى ،٢ ـ البلاغة العليا ،٣ ـ النظم المخصوص،٤ ـ الأُسلوب البديع. فقد تجاوز عن حدِّ الكلام البشري ووصل إلى حدّ لا تكفي في الاتيان بمثله القدرةُ البشريّة.

أن القدرة على الإتيان بمثل القرآن الكريم متوفرة ، ولكن عدم توفر أشخاص يأتون بمثل القرآن كان نتيجة لتدخل إلهي مباشر (صرفهم) عن المعارضة والمباراة .

س٢: وهل تفسير الإعجاز القرآني مطابق لنظرية الصرفة؟

ج: هذا التفسير لظاهرة الإعجاز واضح البطلان إذا كانوا يريدون من توفر القدرة عند بعض الناس وجودها فعلا لديهم ولكن الله صرف أذهانهم عن ممارستها، وذلك:

١- لان محاولة المعارضة قد وقعت من بعض الناس وانتهت إلى الفشل والخيبة ، كما تحدثنا بذلك كثير من النصوص التأريخية وتدل عليها بعض الوقائع في العصر القريب من قبل بعض المبشرين .

٢- إن صرف الأذهان إنما يفترض بعد نزول القرآن الكريم ، وأما قبله فلا معنى للصرفة لعدم وجود القرآن ، ولذلك ومن أجل التأكد من الإعجاز القرآني ليس علينا إلا مقارنة القرآن بالنصوص العربية السابقة على وجوده وملاحظة مدى

يقول الطّبرسى في تفسير قوله : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض ظَهِيراً ﴾ (الإسراء / ٨٨) معناه قل يا محمد لهـؤلاء الكفّـار : لـئن اجتمعـت الإنـس والجنّ متعاونين متعاضدين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن من فصاحته وبلاغته ونظمه على الوجـوه الّـتي هـو عليها من كونه في الطبقة العليا من البلاغة والدرجة القصوى من حسن النظم وجودة المعاني وتهذيب العبارة .. لعجزوا عن ذلك ولم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

إنّ مذهب الصرفة كمذهب الصّدفة لدى المادِّيين في الوهن والبطلان ، فإنّه سبحانه أرفـع شـأناً مـن أن يـأمر الإنسان والجنّ بأن يباروا القرآن ، ويرضى منهم بمباراة بعضه لـو تعـذّر علـيهم الكـل ، ثمّ يعتـرض سـبيلهم ويصرف منهم القوّة والهمّة ويمنعهم))(بحوث في الملل والنحل، للشيخ جعفر السبحاني،ج٣، ص٢٥٥).

الامتيازات المتوفرة فيه دونها ، بحيث لا يمكن مقايسته بهذه النصوص بل هو يفوقها كما عرفنا في بحث الإعجاز .

الشبهة الخامسة : إن النقطة الأساسية التي يستند إليها الإعجاز القرآني هي عدم قدرة العرب على معارضته رغم تحدي القرآن الكريم لهم مرة تلو الأخرى:

س٣: ولكن هل العرب حقيقة لم يكونوا قادرين على معارضته ؟ أو أن أسبابا أخرى خارجية هي التي منعتهم عن تحقيق هذه المعارضة ؟ !

وتفرض الشبهة - بصدد الجواب عن هذا التساؤل - عوامل معينة منعتهم عن تحقيق هذه المعارضة وهذه العوامل هي : أن العرب الذين عاصروا الدعوة أو تأخروا عنها بزمن قليل لم يعارضوا القرآن الكريم خوفا على أنفسهم وأموالهم من المعارضة، بسبب سيطرة المسلمين الدينية على الحكم ، ومحاربتهم كل من يعادي الإسلام أو يظهر الخلاف معه ، ولا شك أن معارضة القرآن تعتبر في نظر الحكم ممن أبرز أنحاء العداء والمخالفة.

وحين انتهت السلطة إلى الأمويين الذين لم يكونوا مهتمين بالحفاظ على الإسلام والالتزام به، الأمر الذي كان يفسح المجال لمن يريد أن يعارض القرآن الكريم أن يظهر معارضته كان القرآن في ذلك الحين قد أصبح أمرا معروفا في حياة الأمة، مألوفا لديها بأسلوبه وطريقة عرضه بسبب رشاقة ألفاظه ومتانة معانية، فانصرف الناس عن التفكير بمعارضته لأنه أصبح من المرتكزات الموروثة لهم .

الجواب: ويمكن مناقشة هذه الشبهة بملاحظة النقاط التالية :

أولا: إن تحدي القرآن الكريم للمشركين كان منذ بداية الدعوة وفي ظروف كان الإسلام فيها ضعيفا تجاه قوة المشركين، حيث مضت ثلاث عشرة سنة من الزمن

على الأقل على نزول القرآن والمسلمون مطاردون، وضعفاء سياسيا ، وبالرغم من ذلك لم يستطع أحد من بلغاء العرب أن يقوم بهذه المعارضة .

ثانيا: إن سيطرة الإسلام في أواخر عصر النبيﷺ وعصر الخلفاء الأربعة الذين جاؤوا إلى الحكم من بعده لم تكن تعني منع الكفار من إظهار كفرهم، فقد أقر الإسلام جماعات من الكفار على ديانتهم، كما حدث ذلك لأهل الكتاب حيث كانوا يعيشون في ظل الدولة الإسلامية في طمأنينة ورفاهية ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فلو كان واحد من هؤلاء قادرا على الإتيان بمثل القرآن الكريم لتصدي لمعارضته والانتصار لديانته على الإسلام.

ثالثا: إن افتراض الخوف من المعارضة نتيجة للسيطرة الإسلامية إنما يمنع من إظهار المعارضة للقرآن الكريم وإعلانها، وأما المعارضة السرية فقد كانت من الممكن أنْ تتم ضمن الحدود الخاصة للمعارضين من أصحاب هذه الديانات دون أن تكون لها نتائج مضادة، ولو كان من الممكن الإتيان بمثل القرآن الكريم لأمكن لهؤلاء أن يعارضوه ثم ينتظروا الفرصة السانحة لإظهار هذه المعارضة، خصوصا إذا لاحظنا أن أهل الكتاب ما زالوا يحتفظون بمجموعة من النصوص الدينية لهم ويتداولونها، مع أنها تتعارض مع القرآن الكريم في محتوياتها ومضامينها .

الدرس الثامن

المحكم والمتشابه
في
القرآن الكريم

المحكم والمتشابه في القرآن

س١: وضح معنى المحكم في اللغة؟

ج: في اللغة له عدة معاني منها:

×قال صاحب القاموس : ((احكمه أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد كحكمه حكما وعن الأمر رجعه فحكم منعه مما يريد كحكمه)) [1].

×وقال صاحب لسان العرب: ((أحكمت الشئ فاستحكم : صار محكما ، واحتكم الأمر واستحكم : وثق . ونقل عن الزهري إنّ حكمت تأتي بمعنى أحكمت)) [2].

س٢: وضح معنى المتشابه في اللغة؟

ج: ذكروا له معاني عدة:

×قال صاحب القاموس: الشبه (بالكسر والتحريك). . .المثل جمعه: أشباه وشابهه وأشبهه : ماثله . وتشابها واشتبها : أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا وأمور مشتبهة ومشبهة كمعظمة: مشكلة . والشبهة (بالضم) الالتباس والمثل .

×وقال صاحب لسان العرب : الشبه والشبه والشبيه : المثل ، والجمع أشباه .

وأشبه الشيء الشيء: ماثله. وأشبهت فلانا وشابهته واشتبه علي وتشابه الشيئان واشتبها : أشبه كل واحد منهما صاحبه، والمشتبهات من الأمور: المشكلات [3] .

---

[1] – القاموس: مادة (حكم).

[2] – لسان العرب: مادة (حكم).

[3] – لسان العرب: مادة (شبه)

القرآن محكم ومتشابه :

س١: هل القرآن الكريم محكم أو متشابه؟

ج: توجد ثلاث أنواع من الآيات :

الأولى: لقد جاء في التنزيل وصف جميع القرآن الكريم بأنه كتاب محكم: ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت . . .﴾ [١].

وقال بعضهم في قوله تعالى :﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [٢] إن (حكيم) هنا بمعنى محكم.

الثانية: كما جاء في التنزيل أيضا وصف جميع القرآن بأنه كتاب متشابه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ[٣] . . .﴾ [٤].

الثالثة: وفي مقابل هذا الاستعمال الشامل لهذين الوصفين يوجد استعمال آخر لهما في التنزيل يطلقهما بشكل يجعل الإحكام مختصا ببعض الآيات القرآنية، ويجعل التشابه مختصا ببعض آخر منها ، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٥] .

---

[1] – هود: ١ .

[2] – يونس: ١ .

[3] – ذكر بعض المفسرين: أي نزل مرتين على النبي (صلى الله عليه وآله).

[4] – الزمر: ٢٣.

[5] – آل عمران: ٧.

س٢: لكن ما هو الصحيح ؟ هل أنّ الصحيح أنّ جميع القرآن من المحكم، أو جميعه من المتشابه؟ أو من القسمين معاً؟

ج: يمكن تصحيح الأقوال الثلاثة بما حاصله:

أولاً: كل القرآن محكم : وذلك لما في القرآن من إحكام النظم وإتقانه، وما فيه من التماسك والانسجام في الأفكار والمفاهيم والأنظمة والقوانين.

ثانياً: وكذلك كله من المتشابه: وذلك لمحض (التماثل والتشابه) بين بعضه وبعضه الآخر في الأسلوب والهدف، وسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[1] .

ثالثاً: وبعض الآيات من المحكم وبعضها من المتشابه، لا بحسب المعنيين السابقين، بل بمعنى آخر، وهو محل بحثنا، كما سيأتي من تفسير لهذين المعنيين[2].

س٣: ما السبب في نشوء هذا القسم من علوم القرآن الكريم (المحكم والمتشابه)؟

ج: توجد أسباب عدة:

١- أنّ الباحثين في علوم القرآن اختلفوا منذ البداية حين حاولوا أنْ يحددوا المعنى المراد من هذين الوصفين (المحكم والمتشابه) في الاستعمال الثاني (الآية السابعة من آل عمران) ، الأمر الذي أدى إلى ولادة علم من علوم القرآن سمي: بالمحكم والمتشابه .

---

[1]- النساء: ٨٢.

[2]- فرضية: تنازع ثلاثة أشخاص، فقال الأول: لقد جاء، وقال الثاني: لم يأتِ، وقال الثالث: لقد أتى ثمَّ ذهب، فتنازعوا وتجادلوا، إلى أنْ دخل رابعٌ، فقال مما نزاعكم، فقال الأول: لقد جاء عليٌّ، وقال الثاني: لم يأتِ جعفر، وقال الثالث: جاء عبد الله، ومن ثمَّ ذهب، فقال لهم، إذن أنتم متفقون ولستم مختلفين.

ومن الواضح أن البحث حين يدور حول فهم المعنى القرآني المراد من كلمتي: المحكم والمتشابه في هذه الآية الكريمة لا يكون بحثا اصطلاحيا ولا شبيها بالمعنى الاصطلاحي - كما هو الحال في البحث عن المراد بالمكي والمدني - لأنه يحاول أنْ يحقق غاية موضوعية وهي معرفة ما أراده الله سبحانه من هاتين الكلمتين[1].

٢- وقد تعددت الاتجاهات والآراء في معنى المحكم والمتشابه المراد من هذه الآية ، نظرا لاستمرار البحث فيها منذ العصور الأولى للتفسير، حتى إن بعض الباحثين ذكر ستة عشر رأيا في حقيقة المحكم والمتشابه.

٣- ولأهميتها من ناحية مذهبية.

سوف نكتفي في بحثنا هذا بدراسة الاتجاهات الرئيسة المهمة منها .

مختارنا في المحكم والمتشابه :

وتفرض علينا طبيعة البحث أن نذكر الرأي الصواب في تحديد معنى هاتين الكلمتين ليتضح - في ضوئه - مدى صحة بقية الاتجاهات وانسجامها مع المدلول اللغوي والمحتوى الفكري للآية الكريمة . وبهذا الصدد يجدر بنا أنْ نستذكر تقسيما تعرضنا له في بحوثنا السابقة .

---

[1] - أنظر مناهل العرفان،ج٢،ص١٦٦.

التفسير على نوعين:

الأول: تفسيرٌ للفظ: وذلك بتحديد مفهومه اللغوي العام الذي وضع له اللفظ .

الثاني: تفسير للمعنى: وذلك بتجسيد ذلك المعنى في صورة معينة ومصداق خاص

س١: ما هو محل بحثنا في المحكم والمتشابه؟

ج: على أساس التقسيم السابق نتصور التشابه المقصود في الآية الكريمة ضمن نطاق التشابه في تجسيد صورة المعنى وتحديد مصداقه الواقعي الموضوعي، لا في نطاق التشابه في العلاقة بين اللفظ ومفهومه اللغوي (المعنى) ، وسواء في هذا النفي التشابه الذي يكون بسبب الشك في أصل وجود العلاقة بين اللفظ والمفهوم اللغوي (المعنى) ، كما إذا تردد اللفظ في استعماله بين معنيين أو أكثر قد وضع اللفظ لهما ، أو التشابه الذي يكون بسبب الشك في طبيعة هذه العلاقة ، كما إذا عرفنا بوجود العلاقة بين اللفظ وأكثر من معنى، ولكن تردد اللفظ بينهما للتردد في استعماله بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي .

س٢: لماذا نفى المصنف الأخذ بالتشابه وفق تفسير اللفظ أي المردد بين عدة معاني أو المردد بين المعنى الحقيقي والمجازي؟

ج: هذا التفسير للتشابه لا يتبناه المصنف على أساس عدم صلاحية كلمة التشابه بحدودها اللغوية لاستيعاب هذا اللون من التشابه اللغوي، وذلك لوجود قرينة خاصة في الآية الكريمة ، تجعلها تأبى الانفتاح على هذا اللون من التشابه . وهذه القرينة هي ما نستفيده من قوله تعالى: ﴿... فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ...﴾ [1] فإن مفهوم (الإتباع) المستفاد من هذه الفقرة لا ينطبق إلا في حالة ما إذا كان للفظ مفهوم لغوي يكون أخذه والعمل به إتباعا له ، إذ ليس من إتباع الكلام – أي كلام – أنْ

---

[1] – آل عمران:٧.

نأخذ بأحد معانيه المشتركة أو المرددة إذا لم يكن له ظهور فيها ، وإنما يكون هذا العمل من إتباع الهوى والرأي الشخصي في تعيين المعنى، لان الكلام لا يعينه وحين نلاحظ استعمال كلمة الإتباع في مجال آخر نجد هذا الاستنتاج أمرا واضحا ، فنحن نعرف وجود نصوص كثيرة تأمرنا بضرورة إتباع القرآن الكريم والسنة النبوية والتمسك بهما، فهل نتوهم فيمن يأخذ بأحد المعاني المشتركة للفظ خاص ورد في الكتاب الكريم أو في السنة النبوية أنه متبع للكتاب والسنة ؟ أو لا بد لانطباق هذا المفهوم في حقه من الأخذ بالمعنى الذي يكون للنص ظهور فيه ؟ ولا شك بتعيين الشق الثاني .

إذن فالتشابه المقصود في الآية الكريمة نوع خاص، لا بد فيه أنْ يكون قابلا للإتباع[1] وهذه القابلية تنشأ من عامل وجود مفهوم لغوي معين للفظ يكون العمل به إتباعا له فالتشابه لم ينشأ من ناحية الاختلاط والتردد في معاني اللفظ ومفهومه اللغوي، لأننا فرضنا أنْ يكون للفظ مفهوم لغوي معين، وإنما ينشأ من ناحية أخرى وهي الاختلاط والتردد في تجسيد الصورة الواقعية لهذا المفهوم اللغوي المعين ، وتحديد مصداقه في الذهن من ناحية خارجية. فحين نأتي إلى قوله تعالى:﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [2] نجد للفظ الاستواء مفهوما لغويا معينا اختص به ، وهو الاستقامة والاعتدال مثلا ، وليس هناك أي تشابه بينه وبين معنى آخر في علاقته باللفظ ، فهو كلام قرآني قابل للإتباع ولكنه متشابه، لما يوجد فيه من التردد في تحديد صورة هذا الاستواء من ناحية واقعية، وتجسيد مصداقه الخارجي بالشكل الذي يتناسب مع الرحمن الخالق الذي ليس كمثله شيء. وحين

---

[1] – وأما المردد بين عدة معاني فغير قابل للإتباع.

[2] – طه: ٥.

نفهم المتشابه بهذا اللون الخاص لا بد لنا أنْ نفهم المحكم على أساس هذا اللون الخاص أيضا، وهذا شيء تفرضه طبيعة جعل المحكم في الآية مقابلا للمتشابه، فليس المحكم ما يكون في دلالته اللغوية متعين المعنى والمفهوم فحسب، بل لابد فيه من التعيين في تجسيد صورته الواقعية وتحديد مصداقه الخارجي، ففي قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ. . . ﴾ [1] نجد الصورة الواقعية لهذا المفهوم متعينة، فهو ليس كالإنسان ولا السماء ولا كالأرض ولا كالجبال . . . إلى آخره من الأشياء .

س٣: ما مختار المصنف حول مدلول المحكم والمتشابه؟

ج: (فالمحكم) من الآيات ما يدل على مفهوم معين ، لا نجد صعوبة أو ترددا في تجسيد صورته أو تشخيصه في مصداق معين .

و(المتشابه) ما يدل على مفهوم معين تختلط علينا صورته الواقعية ومصداقه الخارجي .

الاتجاهات الرئيسة في المحكم والمتشابه :

س١ :أذكر الإتجاهات الرئيسية في تفسير المحكم والمتشابه؟ مع بيان رأي المصنف؟

ج: أ – اتجاه الفخر الرازي :

الاتجاه الأول : إن المحكم هو ما يسمى في عرف الأصوليين بالمبين، والمتشابه ما يسمى في عرفهم بالمجمل، وقد جاءت صياغة هذا الاتجاه بأساليب مختلفة، ولعل ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره الكبير هو أوضح صياغة وأوفاها بالمقصود، قال : " اللفظ الذي جعل موضوعا لمعنى ، فأما أنْ يكون محتملا لغير

[1]– الشورى: ١١.

ذلك المعنى، وأما أنْ لا يكون، فإذا كان اللفظ موضوعا لمعنى ولا يكون محتملا لغيره فهذا هو النص، وأما أنْ كان محتملا لغيره فلا يخلو : إما أنْ يكون احتماله لأحدهما راجحا على الآخر، وإما أنْ لا يكون كذلك، بل يكون احتماله لهما على السواء، فان كان احتماله لأحدهما راجحا على الآخر سمي ذلك اللفظ بالنسبة إلى الراجح (ظاهرا) وبالنسبة إلى المرجوح (مؤولا) ، وأما أنْ كان احتماله لها على السوية كان اللفظ بالنسبة إليهما معا (مشتركا) وبالنسبة إلى كل واحد منهما على التعيين (مجملا) فقد خرج من التقسيم الذي ذكرناه إنّ اللفظ إما أنْ يكون (نصا) أو (ظاهراً) أو (مؤولا) أو (مشتركا) أو (مجملا) .

أما (النص) و (الظاهر) فيشتركان في حصول الترجيح ، إلا أن النص راجح مانع من الغير، والظاهر راجح غير مانع من الغير فهذا القدر المشترك هو المسمى (بالمحكم)، وأما المجمل والمؤول فهما مشتركان في أن دلالة اللفظ عليه غير راجحة وان لم يكن راجحا لكنه غير مرجوح والمؤول مع أنه غير راجح فهو مرجوح لا بحسب الدليل المنفرد، فهذا القدر المشترك هو المسمى (بالمتشابه) لان عدم الفهم حاصل في القسمين جميعا .وقد بينا أن ذلك يسمى متشابها إما لان الذي لا يعلم يكون النفي فيه مشابها للإثبات في الذهن، وإما لأجل أن الذي يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم، فأطلق لفظ المتشابه على ما لا يعلم إطلاقا لاسم السبب على المسبب "[1].

س٢: ذكر المصنف خلاصة لرأي الرازي، وضح ذلك؟

ج: اللفظ بحسب دلالته على المعنى ينقسم إلى أربعة أقسام :

---

[1]- الفخر الرازي، التفسير الكبير،ج٧،ص١٨٠.

أ- النص: وهو ما كانت دلالته على المعنى بالشكل الذي لا تفسح مجالا لاحتمال معنى آخر .

ب- الظاهر: وهو ما كانت دلالته على المعنى بشكل راجح مع احتمال معنى آخر.

ج- (المشترك) و (المجمل) : وهو ما كان دالا على معنيين بشكل متساو .

د- المؤول: وهو ما كان دالا على المعنى بشكل مرجوح ، فهو عكس الظاهر .

و(المحكم): ما كانت دلالته على المعنى من القسم الأول والثاني لوجود الترجيح فيهما .

و(المتشابه): ما كانت دلالته على المعنى من القسم الثالث والرابع لاشتراكهما في أن دلالة اللفظ فيهما غير راجحة ، وإنما سميا متشابها لعدم حصول فهم المعنى فيهما .

ويمكن أن نلاحظ على هذا الاتجاه بالملاحظتين التاليتين :

١- حسب ما تقدم فلابد من الالتزام بأن المتشابه المقصود فيه هو: التشابه في تجسيد صورة المعنى ، وتحديد مصداقه، لا التشابه في علاقة اللفظ بالمعنى بقرينة اخذ مفهوم الإتباع في المتشابه، وهو لا يتحقق في موارد الإجمال اللغوي .

٢- وحين نساير الفخر الرازي، ونتصور التشابه بسبب علاقة اللفظ بالمعنى، لا نجد هناك ما يبرر حصر نطاق التشابه في هذه العلاقة فحسب، بل يمكننا أن نتصور سببا آخر للتشابه وهو: التشابه بسبب تجسيد صورة المعنى وتحديد مصداقه . والفخر الرازي بتقسيمه السابق يحاول أن يغلق علينا هذا الطريق ، حيث لا يتصور التشابه إلا من زاوية علاقة اللفظ بالمعنى، مع أنه يمكن أنْ يتصور أيضا في علاقة المعنى بتشخيص مصاديقه الواقعية .

ب- اتجاه الراغب الأصفهاني :

الاتجاه الثاني: الذي ذهب إليه الراغب الأصفهاني وهو : أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره ، سواء كان الإشكال من جهة اللفظ أو من جهة المعنى .

وقد ذكر الراغب تفاصيل طويلة في شرح هذا الاتجاه قال : " فالمتشابه في الجملة ثلاثة أضرب: متشابه من جهة اللفظ فقط، ومتشابه من جهة المعنى فقط ، ومتشابه من جهتهما . والمتشابه من جهة اللفظ ضربان : أحدهما يرجع إلى الألفاظ المفردة ، وذلك إما من جهة غرابته، نحو الأب ويزفُّون[1]، وإما من جهة مشاركة في اللفظ، كاليد والعين، والثاني يرجع إلى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب : ضرب لاختصار الكلام نحو: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء . . . ﴾ [2]، وضرب لبسط الكلام نحو: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾ لأنه لو قيل ليس مثله شيء كان أظهر للسامع ، وضرب لنظم الكلام نحو : ﴿ . . . أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ۞ قَيِّماً. . . ﴾ [3] تقديره الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا ، وقوله : ﴿ . . . وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ. . . ﴾ [4] إلى قوله:﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا...﴾ والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى وأوصاف يوم القيامة فان تلك الصفات لا تتصور لنا إذ كان لا يحصل في نفوسنا صورة ما لم نحسه أو لم يكن من جنس ما نحسه . والمتشابه من جهة المعنى واللفظ جميعا خمسة أضرب:

---

[1] – كما في قوله تعالى: ((وفاكهةً وأباً))(عبس:٣١) أي النبات أو الحشيش للبهائم ، وقوله تعالى: ((فأقبلوا إليه يزِفُّون)) (الصافات: ٩٤). الزف والزفيف الإسراع في المشي.

[2] – النساء: ٣.

[3] – الكهف: ١-٢.

[4] – الفتح: ٢٥.

الأول: من جهة الكمية ، كالعموم والخصوص نحو: ﴿. . فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ. . .﴾ [1]
والثاني: من جهة الكيفية، كالوجوب والندب نحو: ﴿... فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم..﴾.

والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو: ﴿...اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ. . .﴾ [2] .
والرابع: من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها نحو : ﴿ . . . وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا . . .﴾ [3] وقوله ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ. . . ﴾ [4] فإنّ من لا يعرف عادتهم في الجاهلية يتعذر عليه معرفة تفسير هذه الآية .
والخامس: من جهة الشروط التي بها يصح الفعل أو يفسد، كشروط الصلاة والنكاح وهذه الجملة إذا تصورت علم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم [5].
ويلاحظ على هذا الاتجاه: بالملاحظة الأولى التي ذكرناها في مناقشة الاتجاه الأول ولكنه يتفادى الملاحظة الثانية حيث ينفتح على تصور التشابه بسبب المعنى، بغض النظر عن اللفظ وعلاقته بالمعنى .

ج – اتجاه الأصم :

---

1 – التوبة: ٥.
2 – آل عمران:١٠٢.
3 – البقرة:١٨٩.
4 – التوبة: ٣٧.
5 – مفردات الراغب الأصفهاني: مادة (شبه).

الاتجاه الثالث: المحكم من الآيات ما كان دليله واضحا لائحا، كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة . والمتشابهات ما يحتاج في معرفتها إلى تأمل وتدبر وقد نسب الفخر الرازي هذا الاتجاه إلى الأصم[1].

ويلاحظ على هذا الاتجاه : **أولاً**: أنه يرجع الإحكام والتشابه إلى عامل خارجي لا ينبع من نفس الكتاب الكريم ، وهذا العامل الخارجي هو مدى وضوح الدليل وخفائه على متبنيات القرآن الكريم ومفاهيمه، في الوقت الذي تدل الآية الكريمة على أن الإحكام والتشابه ينشئان من عامل داخلي يرتبط بالكتاب نفسه، ولذلك ينفتح مجال استغلال إتباع المتشابه في الفتنة، وحين يكون الدليل على إحدى دعاوى القرآن الكريم غير واضح على سبيل الفرض لا يكون استغلاله إتباعا للقرآن ابتغاء الفتنة، وإنما يكون نقدا للقرآن الكريم نفسه .

ثانياً:أضف إلى ذلك أنه على أساس هذا التفسير للمحكم لا يمكننا أنْ نفهم المحكم على أنه أم الكتاب، بعد أن كان الدليل الخارجي هو العامل في الإتقان والوثوق لا نفس الآية الكريمة.

د – اتجاه ابن عباس :

الاتجاه الرابع : إنّ المحكم ما يؤمن به ويعمل به ، والمتشابه ما يؤمن به ولا يعمل به، وقد صيغ هذا الاتجاه بأساليب مختلفة نسب بعضها إلى ابن عباس ، وبعضها إلى ابن تيمية وقد ورد هذا التفسير للمحكم والمتشابه في بعض النصوص المروية عن أهل البيت عليهم السلام[2].

---

[1]- الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج٧، ص١٧٢.

[2]- تفسير العياشي،ج١،ص١١،ح٦.

ويلاحظ على هذا الإتجاه بملاحظتين: للأولى: للعلاّمة، الثانية: للمصنف :

أمّا الأولى: على هذا الاتجاه بأنه لا يقوم بتحديد معنى المحكم والمتشابه – كما هو المقصود – وإنما يبين حكما من أحكامها ، وهو لزوم الإيمان والعمل معا بالمحكم والإيمان فقط بالمتشابه . ونحن بحاجة إلى تعيين معنى كل واحد من المحكم والمتشابه في المرحلة الأولى ليمكن ترتيب الأثر عليهما ، لنعمل بالأول ونكتفي بالإيمان بالثاني[1].

وأمّا الثانية: إنّ الآية الكريمة لا تمنع من العمل بالمتشابه ، وإنما تحرم إتباع المتشابه بقصد الفتنة والتأويل ، دون العمل به بعد إرجاعه إلى المحكم . ولعل هذا هو المقصود من حرمة العمل بالمتشابه ، أي حرمة العمل به وحده دون إرجاعه إلى المحكم .

هـ – اتجاه ابن تيمية :

الاتجاه الخامس : إنّ المتشابه هو آيات الصفات خاصة أعم من صفات الله سبحانه كالعليم والقدير والحكيم والخبير . وصفات أنبيائه كقوله تعالى في عيسى ابن مريم عليهما السلام: ﴿... وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ...﴾ [2] وما يشبه ذلك.

ويلاحظ على هذا المنهج:

أولاً: يردّ على هذا المنهج كما في الاتجاه الرابع حيث لا يعطينا تحديدا معينا للمحكم والمتشابه ، وإنما يعرفنا على المتشابه من خلال ذكر بعض مصاديقه وأمثلته كالصفات .

---

[1]– العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٣،ص٣٦.

[2]– النساء:١٧١.

ثانياً: أضف إلى ذلك أنه لا مبرر لحصر المتشابه في الصفات دون غيرها، في الوقت الذي نجد أن أكثر المفاهيم التي تتحدث عن عوالم يوم القيامة تشترك مع الصفات في التشابه ، وكذلك بعض المفاهيم التي تتحدث عن عالم الغيب بشكل عام ، مع أنها ليست من الصفات في شيء ، على أن التشابه في صفات الأنبياء إنما كان بسبب إضافة هذه الصفة إلى الله سبحانه كما في الآية الكريمة ، وأما صفة النبي باعتباره إنسانا فليس فيها تشابه .

و- اتجاه العلامة الطباطبائي قدس سره:

الاتجاه السادس : ما تبناه السيد الطباطبائي قدس سره في تفسيره (الميزان) بعد أن ناقش الاتجاهات المختلفة في تحديد معنى المحكم والمتشابه قال: ((إنّ الذي تعطيه الآية في معنى المتشابه أنْ تكون الآية - مع حفظ كونها آية - دالة على معنى مريب مردد ، لا من جهة اللفظ بحيث تعالجه الطرق المألوفة عند أهل اللسان كإرجاع العام والمطلق إلى المخصص والمقيد ونحو ذلك ، بل من جهة كون معناها غير ملائم لمعنى آية أخرى لا ريب فيها تبين حال المتشابه)) [1]. وقال في موضع آخر: ((إن المراد بالتشابه كون الآية لا يتعين مرادها لفهم السامع بمجرد استماعها بل يتردد بين معنى ومعنى ، حتى يرجع إلى محكمات الكتاب فتعين هي معناها وتبينها بيانا ، فتصير الآية المتشابهة عند ذلك محكمة بواسطة الآية المحكمة والآية المحكمة محكمة في نفسها)) [2] .

س٣: ذكر المصنف تلخيصاً لرأي العلامة الطباطبائي، وضح ذلك؟

ج: يمكن توضيح رأي العلامة الطباطبائي في هذا البحث بالنقاط التالية :

1- ج٣،ص٤٠.

2- ج٣،ص١٩.

١- إن التشابه لا ينشأ من دلالة اللفظ على المعنى ، حيث يجب أن تكون الآية المتشابهة دالة على معنى معين عرفي . ويستند هذا الالتزام إلى أن التشابه في الآية الكريمة أخذ بالشكل الذي يمكن استغلاله في مجال الفتنة ، وإذا لم يكن اللفظ له ظهور في معنى معين لا يمكن استغلاله في مجال الفتنة ، حيث ((جرى دأب أهل اللسان في ظرف التفاهم أنْ (لا يتبعوا) ما هذا شأنه من الألفاظ ، فلم يقدم على مثله أهل اللسان ، سواء في ذلك أهل الزيغ منهم والراسخون في العلم))[١] .

٢- أن تكون الآية المتشابهة دالة على معنى يتعارض مع مدلول آية أخرى غير مريب وهي الآية المحكمة ، ويستند هذا الالتزام إلى أن الآيات المحكمة هي أم الكتاب وتعني الأمومة هذه حل التشابه عند الرجوع إلى المحكمات بالشكل الذي يتعين به مدلول الآية المتشابهة على ضوء مدلول الآية الأخرى المحكمة ، وهذا لا يتحقق إذا لم يكن تعارض بين الآيتين[٢].

٣- أن يكون المعنى المدلول للآية المتشابهة مرددا ومريبا . ويستند هذا الشرط إلى ضرورة وجود المقياس الذي نرجع إليه في معرفة الآية المحكمة الأم من الآية المتشابهة التي نرجع إليها - بعد وجود التعارض بينهما - وهذا المقياس هو ريب المعنى في المتشابه واستقراره في المحكم .

٤- إن ظاهر الآية (السابعة من آل عمران) هو انقسام الآيات القرآنية بشكل استيعابي إلى المحكم والمتشابه بحيث تنعدم الواسطة[٣].

---

[1] - المصدر السابق،ج٣،ص٣٣.

[2] - المصدر السابق،ص٤٣.

[3] - المصدر السابق،ج٢،ص٣٢.

ويمكننا أن نلاحظ على هذا الاتجاه بعدة ملاحظات :

فأولا: نجد هذا الاتجاه غير قادر على تحديد الموقف تجاه الآيات التي تكون دالة على معنى مردد بين معنى مريب ومعنى غير مريب ، لان هذه الآيات لا تكون واجدة لميزان المتشابه لفقدانها الظهور اللفظي ، كما أنها غير محكمة لما فيها من التردد في الدلالة على المعنى . وحين يعجز الاتجاه عن تحديد موقفه من هذه الآيات نجد النقطة الرابعة غير واردة في المحكم والمتشابه ، وقد يتشبث هذا الاتجاه بالمذهب الذي يقول بضرورة أنْ تكون جميع الآيات القرآنية ظاهرة في معان معينة على أساس أن القرآن الكريم كتاب هدى ونور مبين ، وحينئذ فلا يبقى مجال لمثل هذه الفرضية في آيات القرآن الكريم .

ولكن هذه الضرورة القرآنية إنما يلتزم بها في الحدود التي تقول بعدم وجود آية قرآنية غامضة بشكل مطلق ، بحيث لا يوجد في القرآن ما يوضحها ويفسرها ، وإلا فمن الممكن الالتزام بوجود آيات قرآنية مجملة الدلالة – من ناحية مفهومها اللغوي – مع الالتزام بوجود ما يوضحها في القرآن الكريم نفسه ، وهذا الالتزام لا يزيد عن الالتزام – من حيث الروح – عن الالتزام الذي آمن به هذا الاتجاه بان يكون اللفظ ظاهرا في معنى مريب يفسره المحكم .

وثانيا: إن هذا الاتجاه يلتزم بضرورة قيام الآية المحكمة بدور إحكام الآية المتشابهة بعد إرجاعها إليها، مع أن الآية المحكمة لا تقوم إلا بدور تضييق نطاق تصور المعنى في الآية المتشابهة، في ضوء ما تعطيه الآية المحكمة من معنى، لا أنْ تجعل من الآية المتشابهة آية محكمة، بشكل تتحدد صورة معناها ويتجسد مصداقه إذ يكفي في صدق مفهوم الإحكام على الآية أنْ تقوم بدور الوقاية من تسرب صور ومصاديق المعاني الباطلة إلى المعنى المتشابه، وهذا يكون في بعض

الأحيان نتيجة طبيعية لتصورنا للمحكم والمتشابه، حيث أخذناه على أساس التشابه في تحديد صورة المعنى ومصداقه، لا في تحديد مدلول اللفظ ومعناه .

وبهذا نجد الفرق بين إحكام القرينة اللفظية لذي القرينة بشكل يجعله مختصا بمعنى خاص، وبين إحكام الآية المحكمة للآية المتشابهة، مع أننا نتصور هذا الشيء في القرينة اللفظية أيضاً.

وثالثا: إن هذا الاتجاه يلتزم بضرورة التعارض المفهومي بين المحكم والمتشابه - كما جاء في النقطة الثانية - في الوقت الذي عرفنا أن الآية المتشابهة لا تدل على مفهوم لغوي باطل ، ليلتزم بتعارضه مع المفهوم اللغوي للآية المحكمة ، وإنما ينشأ الزيغ من محاولة تأويل الآية المتشابهة الذي يعني تجسيدها في مصداق معين وصورة محددة ، الأمر الذي يفرض علينا الرجوع إلى المحكم في محاولة تحديده وتجسيده . وهذا الشيء هو الذي يستفاد من معنى الآية الكريمة حيث إن الآية المتشابهة لو كانت دالة - بحسب ظهورها - على معنى باطل لكان مجرد إتباعه زيغا دون محاولة تأويله ، مع أن مضمون الآية يقول : إنهم يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

الدرس التاسع

خلاصة رأي المصنف حول المحكم والمتشابه

الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم

خلاصة رأي المصنف حول المحكم والمتشابه

س: ما هو رأي المصنف حول المحكم والمتشابه؟

ج: يمكن تلخيص رأي المصنف في نقاطٍ ثلاثة:

١- إن الآية المتشابهة لا بد وأن تكون ذات ظهور خاص في معنى لغوي معين، بقرينة قوله تعالى: ﴿فيتبعون﴾

٢- إن المعنى الذي تدل عليه الآية المتشابهة لا يكون بمفهومه اللغوي باطلا وإنما يكون صحيحا، والفتنة والزيغ إنما يكونان بمحاولة تجسيده في صورة ومصداق باطلين.

٣- إن التشابه إنما يكون في المعنى نفسه، وذلك بتحديد صورة المعنى وتجسيد مصداقه، لا في علاقة المعنى باللفظ، والإحكام ما يكون قبال هذا التشابه، بان تكون صورة المعنى المحكم محددة ومصداقه الواقعي مجسدا، بشكل يستقر إليه القلب ولا يتردد فيه.

وبعبارةٍ أخرى:

أي معنى قرآني إذا لاحظناه: فإن كنا نتردد في تحديد صورته وتجسيد مصداقه فهو معنى متشابه، والآية التي تتضمنه آية متشابهة. وان كنا لا نتردد في تحديد صورته وتجسيد مصداقه، وإنما يركن القلب والعقل إلى صورة واضحة ومصداق معين فهو معنى محكم، والآية التي تتضمنه آية محكمة.

الحكمة في وجود المتشابه في القرآن الكريم :

س١: ما السبب في البحث عن الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم؟

ج: وذلك بسبب شبهتين :

الأولى: إنّ القرآن الكريم كتاب هداية ونور مبين، ووجود المتشابه فيه لا يتفق مع هذه الحقيقة ، لان المتشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم .

الثانية: ما أشار إليه الفخر الرازي ونسبه إلى الملاحدة: إنّ وجود المتشابه في القرآن كان سببا لاختلاف المذاهب والآراء، وتمسك كل واحد منها بشيء من القرآن بالشكل الذي ينسجم مع متبنياته، وهذا يناقض الأهداف التي جاء من اجلها القرآن الكريم . ولذا عمل الباحثون في علوم القرآن على استكشاف وجوه الحكمة في وجود المتشابهات في القرآن، وعلى هذا الأساس ذكرت وجوه متعددة ومختلفة تتأرجح بين الضعف وغاية القوة والمتانة[1].

س٢: ما هي الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم؟

ج: **الأول : ما ذكره الشيخ محمد عبده** : إنّ الله سبحانه انزل التشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به، فإنه لو كان كل ما ورد في الكتاب واضحا لا شبهة فيه عند أحد من الأذكياء ولا من البُلداء ، لما كان في الإيمان به شيء من معنى الخضوع لما انزل الله تعالى ، والتسليم لما جاءت به رسله [2].

وقد ناقشه العلامة الطباطبائي: بان الخضوع هو انفعال معين ، وتأثر خاص من قبل الضعيف في مقابل القوي ، ولا يكون ذلك من الإنسان إلا لما يدرك عظمته ، أو لشيء لا يتمكن من إدراكه لعظمته وكبره ، كقدرة الله وعظمته وسائر صفاته التي

---

[1] – أنظر التفسير الكبير، للفخر الرازي،ج٧،ص١٨٤ وآخرون.

[2] – تفسير المنار، رشيد رضا،ج٣،ص١٧٠.

إذا واجهها العقل رجع القهقرى لعجزه عن الإحاطة به، وهذان الأمران غير واردين في المتشابه، لأنه وان كان من الأمور التي لا يدركها العقل ولا ينالها ، ولكنه يغتر باعتقاده لإدراكها وحينئذ قد يزيغ الإنسان فيغتر بإدراكه لكنهه ، ومن هنا جاء تمحيص القلوب بالمتشابه ، فإذا صدق الإنسان به واستسلم له فهو قد ثبت على الإيمان ، وإذا اغتر به وحاول معرفة تأويله فقد زاغ قلبه . وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم حيث قال: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا فيتبعون...﴾[1] فهو شيء تمحص به القلوب، فمن كان في قلبه مرض وزيغ اتبعه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

س٣: ما رأي المصنف حول مناقشة العلامة؟

ج: أشكل المصنف حول مناقشة العلامة: بأنّ هذا التفسير إنما ينفع في بعض آيات المتشابه ، التي هي من قبيل مفاهيم عالم الغيب، كاللوح والعرش والقلم، حيث يكون موقف الإنسان منها هو الإيمان المطلق بها، وأما الآيات المتشابهة التي يمكن فهمها بعد عرضها على المحكم فلابد أنْ يكون لوجودها غرض آخر وهو الهدى المترتب عليها .

الثاني: ما ذكره الشيخ محمد عبده أيضا : إنّ وجود المتشابه في القرآن كان حافزا لعقل المؤمن إلى النظر، كي لا يضعف فيموت، فان السهل الجلي جدا لا عمل للعقل فيه، والعقل أعز القوى الإنسانية التي يجب تربيتها، والدين أعز شيء على الإنسان، فإذا لم يجد العقل مجالا للبحث في الدين يموت عامل العقل فيه ، وإذا مات فيه لا يكون حيا بغيره .

---

[1] – آل عمران: ٧.

وقد ناقشه العلامة الطباطبائي: إنّ القرآن الكريم اهتم بالعقل وتربيته اهتماما بالغا فأمر باستعمال العقل في الآيات (الآفاقية) (والأنفسية) إجمالاً في بعض الموارد كما فصل ذلك في موارد أخرى، كالأمر بالتدبر في خلق السماوات، والأرض، والجبال ،والشجر، والدواب، والإنسان، واختلاف الألسنة والألوان، كما حث على التفكير والسير في الأرض والنظر في أحوال الماضين ، وحرض العقل والفكر ومدح العلم بأبلغ المدح، وفي كل ذلك ما يغني عن سلوك طريق آخر هو إنزال المتشابهات الذي يكون مزلقة للأقدام ومصرعا للعقل[1].

الثالث: ما ذكره الشيخ محمد عبده أيضا : إنّ الأنبياء بعثوا إلى جميع الأصناف من عامة الناس وخاصتهم، وفيهم العالم والجاهل والذكي والبليد، وهناك من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه، بحيث يفهمه الجميع على السواء، وإنما يفهمه الخاصة منهم عن طريق الكناية والتعريض ويؤمر العامة بتقويض الأمر فيه إلى الله تعالى عند حد المحكم ، فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده[2].

وقد ناقشه العلامة الطباطبائي: بان الكتاب الكريم كما يشتمل على المتشابهات كذلك يشتمل على المحكمات التي تبين هذه المتشابهات عند الرجوع إليها ، ولازم ذلك أن لا تتضمن المتشابهات من المعاني ما هو أزيد مما تكشف عن المحكمات ، وعند ذلك يبقى سؤالنا : (ما فائدة وجود المتشابهات في الكتاب وأي حاجة إليها مع وجود المحكمات ؟) على حاله .

---

[1]- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،ج٣،ص٥٨.

[2]- رشيد رضا،تفسير المنار،ج٣،ص١٧٠-١٧١.

والسبب في هذا الاشتباه الذي وقع فيه الشيخ محمد عبده: أنه اخذ المعاني نوعين متباينين :

الأول: معان يفهمها جميع المخاطبين من العامة والخاصة وهي مداليل المحكمات.

الثاني: معان لا يدرك حقيقتها إلا الخاصة، ولا يتلقاها غيرهم وهي المعارف الإلهية والحكم الدقيقة، فكان من نتيجته أنّ من المتشابهات ما لا ترجع معانيها إلى المحكمات، وقد مر أنّ ذلك مخالف لمنطوق الآيات الدالة على أن القرآن يفسر بعضه بعضا وغير ذلك[1].

س٤: ما رأي المصنف حول مناقشة العلامة؟

ج: أشكل المصنف حول مناقشة العلامة: بأنه ما هو الشيء الذي يمنع من وجود هذين القسمين من المعاني؟ إذا كان المانع من ذلك هو ما يشير إليه العلامة الطباطبائي من أمومة المحكمات للمتشابهات . . . فقد عرفنا أنّ هذه الأمومة لا تعني أكثر من وضع حدود خاصة معينة للمتشابهات تمنع عن الزيغ فيها ، وتسقط من الحساب جميع الصور والتجسيدات غير المنسجمة مع روح القرآن . وهذا لا يعني تحديد الصورة الحقيقية للمعنى المتشابه ، وتعيينها في مصداق خاص حتى تختفي الفائدة منه ، فقوله تعالى: ﴿ . . . لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ. . . ﴾[2] محكم يسقط من الحساب جميع التجسيدات التي (تشبه الأشياء) في مفهوم (الاستواء) على العرش في قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[3] ولكنه لا يعطينا الصورة الواقعية

1- الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن،ج٣،ص٥٨.

2- الشورى: ١١.

3- طه: ٥.

والمصداق المجسد لهذا (الاستواء)، فهو معنى لا يمكن أنْ نفهمه من ذلك المحكم : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.وإذا عرفنا دور المحكم تجاه المتشابه أمكننا أنْ نتصور بسهولة : أن بعض المعاني لا يدركها – على مستوى المصداق – إلا الراسخون في العلم دون العامة ، خصوصا المعاني التي ترتبط ببعض المعلومات الكونية الطبيعية كجريان الشمس: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا. . .﴾ [1] أو تلقيح الرياح ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ. . .﴾ [2] أو جعل الماء مصدرا للحياة : ﴿. . . وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾ [3] فان كل هذه المعلومات حين تنكشف لدى العلماء تكون من المعلومات التي أشار إليها القرآن الكريم ، ويعرفها الخاصة من الناس دون غيرهم .

والعلامة الطباطبائي نفسه تصور هذا التمايز بين الناس في الإدراك للمعاني ، وإن حاول أنْ يصوغه بشكل آخره ″ فظهر أنّ للناس – بحسب مراتب قربهم وبعدهم منه تعالى – مراتب مختلفة من العمل والعلم ، ولازمه أنْ يكون ما يتلقاه أهل واحدة من المراتب والدرجات غير ما يتلقاه أهل المرتبة والدرجة الأخرى التي فوق هذه أو تحتها ، فقد تبين للقرآن معان مختلفة مترتبة ″[4].

فهو يتعقل في المعنى القرآني التعدد، ولكنه يتصوره على أساس التعدد في الدرجة والمرتبة للمعنى الواحد ، كما يتعقل في الفهم الإنساني هذا التعدد أيضا .

---

[1] – يس: ٣٨.

[2] – الحجر: ٢٢.

[3] – الأنبياء: ٣٠.

[4] – الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٣،ص٦٧.

وحين نتعقل ذلك لا يبقى ما يمنع إرادة القرآن الكريم بآية معينة مرتبة ودرجة خاصة من معنى معين دون غيرها ، وحينئذ لا يقدر على فهم هذه المرتبة والدرجة إلا ذلك القريب من الله .

الرابع : ما ذكره العلامة الطباطبائي : إنّ التربية الإسلامية سارت على منهج معين يقوم على أساس فرض الواقع للإنسان ، وعلاقته بالله سبحانه خالق الكون ومدبر أموره ، وبالمعاد والجزاء .

س٥: ذكر المصنف خلاصة لمنهج الطباطبائي، وضح ذلك؟

ج: أن عامة الناس لا تكاد تتجاوز أفهامهم وعقولهم المحسوسات المادية إلى عالم ما وراء الطبيعة ، ولا يمكن أنْ يعطى إنسان ما معنى من المعاني ، إلا عن طريق تصوراته ومعلوماته الذهنية التي حصلت له خلال حياته المادية والعقلية ، والناس في هذه التصورات والمعلومات على مراتب ودرجات ، تختلف باختلاف الممارسة المادية والعقلية .

والهداية القرآنية ليست مختصة بجماعة دون أخرى، وإنما هي هبة الله سبحانه للناس كافة . وهذا الاختلاف في الفهم وعموم الهداية القرآنية : يفرضان أنْ يسوق القرآن الكريم بياناته مساق الأمثال، بان يستثمر ما يعرفه الإنسان ويعهده في ذهنه من المعاني والصور ليبين ما لا يعرفه من هذه المعاني والصور . وقد يكون ذلك في القرآن الكريم، مع عدم وجود التوافق الكلي بين المعنى الذي يعرفه الإنسان مسبقا والمعنى الجديد الذي يحاول القرآن الكريم تعريف الإنسان عليه، وإنما يلحظ القرآن جانبا معينا من الانسجام والتوافق، كما نفعل ذلك في حياتنا العملية، حين نستثمر الأوزان والمكاييل للتعريف بالمواد الغذائية وغيرها، مع عدم وجود التوافق بينها وبين المواد الغذائية ، في شكل أو صورة أو حجم . وحين

نستعمل الصورة المادية المحسوسة - التي عرفها الإنسان في حياته - كأمثال للمعارف الإلهية المجردة يقع الفهم الإنساني في إدراكه لهذه المعارف الممثلة بين أمرين ، قد يستلزم كل منهما محذورا :

الأول: الجمود بهذه المعارف في مرتبة الحس المادي ، وحينئذ تنقلب عن واقعها المجرد الذي استهدفته الهداية القرآنية .

الثاني: الانعتاق من الإطار المادي للمثال ، والقيام بعملية تجريد للخصوصيات غير الداخلة في التمثيل ، وهذا يستلزم - أحيانا - الزيادة والنقيصة في هذه العملية أو الشدة والضعف .

ولذا نجد القرآن يلجأ إلى عملية واسعة في التمثيل تفاديا لهذه المشاكل العقلية والنفسية ، وذلك بتوزيع المعاني التي يريد من الإنسان إدراكها ، وتربيته على تصورها إلى أمثال مختلفة، وجعلها في قوالب متنوعة ، حتى يفسر بعضها بعضا ، ويوضح بعضها أمر بعض، لينتهي الأمر إلى تصفية عامة تؤدي إلى النتيجتين التاليتين :

الأولى: إنّ البيانات القرآنية ليست إلا أمثالا ، لها في ما ورائها حقائق ممثلة ، وليس الهدف والمقصود منها مرتبطا باللفظ المأخوذ من الحس والمحسوسات، فنتخلص بذلك من محذور الجمود .

الثانية: بعد الالتفات إلى أنّ البيانات القرآنية أمثال نعلم حدود المعنى الإلهي المقصود من وراء هذه البيانات، حين نجمع بين هذه الأمثال المتعددة، وننفي بكل واحد منها خصوصية من الخصوصيات المأخوذة من عالم الحس ، الموجودة في

المثال الآخر فنطرح ما يجب طرحه من الخصوصيات المحيطة بالكلام ، ونحتفظ بما يجب الاحتفاظ به منها[1].

ولا شك إنّ هذا الوجه من أروع ما قيل في تفسير ظاهرة وجود المتشابه، ويمكن أنْ يعتبر تعليلا وجيها لورود الكثير من الآيات المتشابهة، ولكننا لا نقبله تعليلا شاملا لكل ما ورد في القرآن من المتشابهات، حيث نرى أن بعضها لا يمكن تحديد مصداقه بشكل قاطع، بناء على مذهبنا في حقيقة المتشابه الذي عرفنا فيه أن المفهوم اللغوي له مفهوم صحيح، وليس باطلا لينتفي الريب بواسطة الأمثلة الأخرى القرآنية .

س٦: أذكر خلاصة رأي المصنف حول الحكمة من ورود المتشابه في القرآن الكريم ؟

ج: يحسن بنا أنْ نقسم المتشابه إلى قسمين رئيسين :

الأول: المتشابه الذي لا يعلم تأويله ومصداقه إلا الله .

الثاني: المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم، ولو كان ذلك بتعليم الله تعالى لهم .

أما ورود القسم الأول في القرآن: فلان من الأهداف الرئيسة التي جاء من أجلها القرآن الكريم هو : ربط الإنسان الذي يعيش الحياة الدنيا بالمبدأ الأعلى وهو الله سبحانه ، وبالمعاد وهو الدار الآخرة وعوالمها ، وهذا الربط لا يمكن أنْ يتحقق إلا عن طريق إثارة الموضوعات التي تتعلق بعالم الغيب وما يتصل به من أفكار ومفاهيم ، لينمي غريزة الإيمان التي فطر الإنسان عليها ، ويشده إلى عالمه الذي

---

[1] – العلامة الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص٥٨-٦٥، وقد لخصنا كلامه، وتركنا بيان الأمثلة، والإيضاحات الفكرية التي أوردها لتأييد مدعياته(المؤلف).

سوف ينتهي إليه ، فلم يكن هناك سبيل أمام القرآن الكريم يتفادى به المتشابه في القرآن بعد أن كان هو السبيل الوحيد الذي يوصل إلى هذا الهدف الرئيس .

وأما ورود القسم الثاني في القرآن الكريم بهذا الأسلوب: فإنه أراد أن يطرح أمام العقل البشري قضايا جديدة ، كبعض المسائل الكونية أو الإنسانية وغيرها من المفاهيم الغيبية ، لينطلق في تدبر حقيقتها واكتشاف ظلماتها المجهولة ، أو يقترب منها بالقدر الذي تسمح له معرفته ودرجته في تلك المعرفة ، كما ذكر العلامة الطباطبائي .

ونحن في هذا العصر حين نعيش التطور المدني العظيم في المجالات العلمية المختلفة ندرك قيمة بعض الآيات القرآنية التي ألمحت إلى بعض الحقائق العلمية، ووضعتها تحت تصرف الإنسان لينطلق منها في بحثه وتحقيقه ، وكذلك بعض المصاديق الإنسانية[1].

[1]- سيأتي بعض التوضيح لهذه الأفكار عند تناولنا (التفسير عند أهل البيت) وكذلك في كتابنا (الهدف من نزول القرآن الكريم) في معالجتنا لظاهرة المحكم والمتشابه(المؤلف).

الدرس العاشر

النسخ في القرآن

النسخ في القرآن[1]

توطئة عن فكرة النسخ :

س١ : النسخ الوضعي له شكلان وضحهما؟

ج: **الأول**: نسخ القانون للقانون:فإننا نشاهد أن بعض الدول أو المجتمعات قد تضع قانونا لتنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض حكاما أو محكومين ، ثم نراها بعد تطبيقه مدة من الزمان تستبدل به قانونا آخر يتكفل تنظيما جديدا للعلاقات بين الناس، وحينئذ يمكن أنْ يقال : إن هذا القانون الآخر نسخ القانون الأول وأصبح بدلا منه.

الثاني: نسخ مادة لمادة في نفس القانون الواحد: كما نشاهد أيضا أن بعض الدول تضع مادة معينة في القانون الذي يجري تطبيقه ثم ترى أنْ تستبدلها بمادة أخرى مع الاحتفاظ بالقانون نفسه كمنهج عام للتنظيم الاجتماعي .

والنسخ بنوعيه المتقدمين يمكن أنْ نتصورهما في التشريع الإلهي بأن تنسخ شريعة سماوية شريعة أخرى أو مادة في شريعة سماوية مادة من تلك الشريعة .

س٢ : ما الفرق بين النسخ الإلهي والنسخ الوضعي؟

ج: يوجد فارق أساسي بين النسخ والتشريع الإلهي والنسخ في التشريعات الوضعية ذلك أن النسخ في التشريع الإلهي لا يكون إلا بعد علم مسبق بوقوعه في ظروفه المعينة وفي وقته المحدد بخلاف النسخ في التشريع الوضعي، حيث يكشف في أكثر الأحيان عن جهل بالواقع الموضوعي الذي وضع التشريع لمعالجته، وعندما ينكشف تخلف التشريع عن تحقيق غاياته ، ينسخ بتشريع آخر في سبيل محاولة لتحقيق تلك الغايات والأهداف .

---

[1]- اعتمدنا في كتابة هذا البحث بشكل رئيس على دراسة النسخ في القرآن لآية الله السيد الخـوئي في كتابـه " البيان في تفسير القرآن " المدخل : ١٨٩ – ٢٧٦ ، وكتاب " النسخ في القرآن " للدكتور مصطفى زيد (المؤلف).

س٣: هل يمكن فرض وجود نسخ في القوانين الوضعية كما في النسخ الإلهي؟

ج: نعم ففي القوانين الوضعية قد يوضع القانون منذ البداية بشكل مؤقت ، ثم ينسخ عند انتهاء وقته كما في الدساتير المؤقتة عند حصول تغييرات أساسية في المجتمع ، وهذا النوع يشبه إلى حد كبير النسخ في الشريعة الإلهية، حيث يكون الحكم المنسوخ فيها منذ البداية مؤقتا في الواقع .

النسخ لغة واصطلاحا :

س١: ما معنى النسخُ لغةً؟

أ- **اللغة:** للنسخ معان متعددة ذكرت في كتب اللغة وهي تدور بين (النقل) و (الإزالة) و (الإبطال) . فتقول : (نسخ زيد الكتاب إذا نقله عن معارضه) .

ونسخ النحل إذا نقله من خلية إلى أخرى ، وتقول : نسخ الشيب شبابه ، إذا أزاله وحل محله . وتقول: نسخت الريح آثار القوم ، إذا أبطلتها وعفت عليها[1].

واللغويون حين يذكرون هذه المعاني المتعددة يختلفون في أي واحد منها هو المعنى الحقيقي للكلمة أو أنها بأجمعها معان حقيقية ؟ وتمييز المعنى الحقيقي للكلمة عن المعنى المجازي ليس في الواقع من الأهمية بقدر تحديد المعنى اللغوي الذي ينسجم مع فكرة النسخ ذاتها، وبهذا الصدد نجد أن الإزالة هي أوفق المعاني اللغوية انسجاما مع الفكرة التي عرضناها عن النسخ .

س٢: ماذا يُفهم من النسخ حسب الآيات الشريفة التالية ؟

×كقوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا... ﴾ [2] .

---

[1]- لسان العرب:ج٤،ص٢٨.

[2]- البقرة: ١٠٦.

×وقوله تعالى : ﴿ يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[1] .

×وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [2].

ج: يُفهم منها الإزالة، إذ هي المعنى الذي ينسجم مع المحو والتبديل أيضا .

س٣: ما معنى النسخ اصطلاحاً؟

ج: هو " رفع أمر ثابت في الشريعة المقدسة بارتفاع أمده وزمانه سواء أكان ذلك الأمر المرتفع من الأحكام التكليفية - كالوجوب والحرمة - أم من الأحكام الوضعية كالصحة والبطلان ، وسواء أكان من المناصب الإلهية أم من غيرها من الأمور التي ترجع إلى الله تعالى بما انه شارع "[3].

س٤: ما هو الإشكال حول التعريف المذكور؟

ج: أن الرفع في النسخ إنما يكون لأمر ثابت في أصل الشريعة ، ولذا فلا يكون شاملا لمثل ارتفاع الحكم الشرعي الذي يكون بسبب انتهاء موضوعه كارتفاع وجوب الصوم بانتهاء شهر رمضان، أو ارتفاع ملكية شخص لماله بسبب موته ، فان هذا النوع من ارتفاع الحكم لا يسمى نسخا ، ولا نجد من يخالف في إمكانه ووقوعه.

س٥: كيف دفع السيد الخوئي الإشكال السابق؟

ج: أوضح السيد الخوئي قدس سره لنا الفرق بين الارتفاع الذي يكون نسخا ، والارتفاع الذي لا يكون من النسخ في شيء وذلك بالبيان التالي :

---

[1]- الرعد: ٣٩.

[2]- النحل: ١٠١.

[3]- البيان، للسيد الخوئي،ص٢٢٧.

إنّ الحكم المجعول في الشريعة المقدسة له مرحلتان من الثبوت :

الأولى: ثبوت الحكم في عالم التشريع والإنشاء، والحكم في هذه المرحلة يكون مشرعا على نحو (القضية الحقيقية) حيث لا يفرق في صدقها وثبوتها وجود الموضوع في الخارج وعدم وجوده، وإنما يكون قوام ثبوت الحكم ووجوده فيها بفرض وجود الموضوع . فإذا قال الشارع : شرب الخمر حرام (مثلا) فليس معناه أن هنا خمرا في الخارج وأن هذا الخمر محكوم بحرمة شربه ، وإنما معناه أن الخمر متى ما فرض وجوده في الخارج فشربه محكوم بالحرمة في الشريعة ، سواء كان في الخارج خمر بالفعل أم لم يكن ، ورفع مثل هذا الحكم في هذه المرحلة من ثبوته لا يكون إلا بالنسخ .

الثانية: ثبوت الحكم في الخارج بأن يتحول إلى حكم فعلي بسبب فعلية موضوعه وتحققه خارجا ، كما إذا تحقق وجود الخمر خارجا في مثالنا السابق فان الحرمة المجعولة في الشريعة للخمر تكون ثابتة له بالفعل خارجا ، وهذه الحرمة تكون مرتهنة في وجودها بوجود الموضوع خارجا وتستمر باستمراره ، فإذا انعدم الموضوع أو ارتفع كما إذا انقلب خلا مثلا فلا ريب في ارتفاع تلك الحرمة الفعلية التي كانت ثابتة للخمر حال خمريته وتحل محلها الحلية للخل[1]. وهذا الارتفاع للحكم ليس من النسخ في شيء ، وليس لا حد شك في جوازه ولا في وقوعه .

جواز النسخ عقلا ووقوعه شرعا :

س١: هل يجوز النسخ عقلاً؟

ج: يوجد قولان:

[1]- المصدر السابق، ص٢٧٨.

الأول: المعروف بين العقلاء من المسلمين وغيرهم جواز النسخ عقلا .

الثاني: وقد خالف في هذا الرأي بعض اليهود والنصارى، وذلك في محاولة للطعن في الإسلام والتمسك ببقاء الديانتين اليهودية والمسيحية واستمرارهما.

س٢: ما السبب في القول بإستحالة النسخ؟

ج: **بسبب شبهة حاصلها**: أن النسخ يستلزم أحد أمرين باطلين: (البداء [1]، أو العبث) لانّ النسخ إما أنْ يكون بسبب حكمة ظهرت للناسخ بعد أن كانت خافية لديه ، أو يكون لغير مصلحة وحكمة ، وكلا هذين الأمرين باطل بالنسبة إلى الله سبحانه ، ذلك أن تشريع الحكم من الحكيم المطلق وهو الله سبحانه لا بد أنْ يكون بسبب مصلحة يستهدفها ذلك الحكم فتقتضي تشريعه ، حيث إن تشريع الحكم بشكل جزافي يتنافى وحكمة الشارع ، وحينئذ فرفع هذا الحكم الثابت لموضوعه بسبب المصلحة ، إما أنْ يكون مع بقاء حاله على ما هو عليه من وجه المصلحة وعلم ناسخة بها ، وهذا ينافي حكمة الجاعل وهو العبث نفسه ، وأما أنْ يكون من جهة البداء وجهله بواقع المصلحة والحكمة وانكشاف الخلاف لديه على ما هو الغالب في الأحكام والقوانين الوضعية، وعلى كلا الفرضين يكون وقوع النسخ في الشريعة محالا لأنه يستلزم المحال .

أما البداء أو العبث، فهما محالان على الله لأنّ كلٌ منهما نقص لا يتصف بهما [2].

س٣: كيف يتم دفع الشبهة المذكورة؟

ج: من اجل أنْ يتضح الجواب عن هذه الشبهة نقسم الحكم المجعول من قبل الشارع إلى قسمين رئيسين:

---

[1]- حسب معناه اللغوي الحقيقي، وإلا فحسب معناه المجازي، فلا إشكال فيه قطعاً.

[2]- المصدر السابق، ص٢٧٩.

الأول: الحكم المجعول الذي لا يكون وراءه طلب وزجر حقيقيان كالأوامر والنواهي التي تجعل ويقصد بها الامتحان ودرجة الاستجابة للحكم دون أنْ يستهدف المشرع تحرك المكلف، كما في أمر الله سبحانه نبيه إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، وهذا ما نسميه بالحكم الامتحاني .

الثاني: الحكم المجعول الذي يكون بداع حقيقي من البعث والزجر حيث يقصد منه تحقيق متعلقه بحسب الخارج ، وهذا ما نسميه بالحكم الحقيقي .

فأمّا القسم الأول: فمن السهل الالتزام بالنسخ في القسم الحكم، إذ لا مانع من رفع هذا الحكم بعد إثباته بعد أن كانت الحكمة في نفس إثباته ورفعه ، لان دوره ينتهي بالامتحان نفسه فيرتفع حين ينتهي الامتحان ولحصول فائدته وغرضه ، والنسخ في هذا النوع من الحكم لا يلزم منه العبث ولا ينشأ منه البداء الذي يستحيل في حقه تعالى .

وأما القسم الثاني من الحكم: فإننا يمكن أنْ نلتزم بالنسخ فيه دون أنْ يستلزم ذلك شيئا من البداء أو العبث ، حيث يمكن أنْ نضيف فرضا ثالثا إلى الفرضين اللذين ذكرتهما الشبهة . وهذا الفرض هو أنْ يكون النسخ لحكمة كانت معلومة لله سبحانه من أول الأمر ولم تكن خافية عليه وان كانت مجهولة عند الناس غير معلومة لديهم فلا يكون هناك بداء لأنه ليس في النسخ من جديد على الله لعلمه سبحانه بالحكمة مسبقا ، كما أنه لا يكون عبثا لوجود الحكمة في متعلق الحكم الناسخ وزوالها في متعلق الحكم المنسوخ ، وليس هناك ما يشكل عقبة في طريق تعقل النسخ هذا إلا الوهم الذي يأبى تصور ارتباط مصلحة الحكم بزمان معين بحيث تنتهي عنده ، وإلا الوهم الذي يرى في كتمان هذا الزمان المعين عن الناس جهلا من الله بذلك الزمان . وهذا الوهم يزول حين نلاحظ بعض النظائر

الاجتماعية التي ترى فيها شيئا اعتياديا ليس فيه من المحال أثر ولا من العبث والبداء .

فالطبيب حين يعالج مريضا ويرى أن مرحلة من مراحل المرض التي يجتازها المريض يصلح لها دواء معين فيصف له هذا الدواء لمدة معينة ثم يستبدله بدواء آخر يصلح لمرحلة أخرى لا يوصف عمله بالعبث والجهل، مع أنه قام بوضع أحكام معينة لهذا المريض في زمان محدود ثم رفعها عنه بعد مدة من الزمن، وحين وضع الحكم كانت هناك مصلحة تقتضيه كما أنه حين رفع الحكم كانت هناك مصلحة تقتضي هذا الرفع، وهو في كل من الحالين كان يعلم المدة التي يستمر بها الحكم والحكمة التي تقتضي رفعه .

ونظير هذا يمكن أنْ نتصوره في النسخ، فان الله سبحانه حين وضع الحكم المنسوخ وضعه من اجل مصلحة تقتضيه، وهو سبحانه يعلم الزمان الذي سوف ينتهي فيه الحكم وتتحقق المصلحة التي من اجلها شرع ، كما أنه حين يستبدل الحكم المنسوخ بالحكم الناسخ استبدله من اجل مصلحة معينة تقتضيه ، فكل من وضع الحكم ورفعه كان من اجل حكمة هي معلومة عند جعل الحكم المنسوخ . فليس هناك جهل وبداء ، كما أنه ليس هناك عبث لتوفر عنصر العلم والحكمة في الجعل والرفع . نعم هناك جهل الناس بواقع جعل الحكم المنسوخ حيث كان يبدو استمرار الحكم نتيجة للإطلاق في البيان الذي وضع الحكم فيه ولكن النسخ إنما يكون كشفا عن هذا الواقع الذي كان معلوما لله سبحانه من أول الأمر .

س٤ : هل وقع النسخ فعلاً من قبله تعالى (النسخ الشرعي)؟

ج: نعم واقع كما في بعض الموارد التي تحقق فيها النسخ سواء في الشريعة الموسوية، أو الشريعة المسيحية، أو الشريعة الإسلامية، حيث جاءت نصوص في

التوراة والإنجيل وفي الشريعة الإسلامية تتضمن النسخ، ورفع ما هو ثابت في نفس الشريعة أو في غيرها من الشرائع السابقة ، نذكر منها الموارد الآتية:

١- تحريم اليهود العمل الدنيوي في يوم السبت، مع الاعتراف بان هذا الحكم لم يكن ثابتا في الشرائع السابقة، وإنما كان يجوز العمل في يوم السبت كغيره من أيام الأسبوع[1].

٢- أمر الله سبحانه بني إسرائيل قتل أنفسهم بعد عبادتهم للعجل ثم رفعه لهذا الحكم عنهم بعد ذلك [2].

٣- الأمر ببدء الخدمة في خيمة الاجتماع في سن الثلاثين، ثم رفع هذا الحكم وإبداله بسن خمس وعشرين سنة ، ثم رفعه بعد ذلك وإبداله بسن العشرين[3].

٤- النهي عن الحلف بالله في الشريعة المسيحية – مع ثبوته في الشريعة الموسوية – والإلزام بما التزم به في النذر أو اليمين[4].

٥- الأمر بالقصاص في الشريعة الموسوية[5]، ثم نسخ هذا الحكم في الشريعة المسيحية ونهي عن القصاص[6].

٦- تحليل الطلاق في الشريعة الموسوية[7]، ونسخ هذا الحكم في الشريعة المسيحية[1].

1- انظر سفر الخروج ١٦ : ٢٥ – ٢٦ ، و ٢٠ : ٨ – ١٢ ، و ٢٣ : ١٢ ، و ٣١ : ١٦ – ٧ ، و ٣٥ : ١ – ٣ ،

2- سفر الخروج ٣٢ : ٢١ – ٢٩ .

3- سفر العدد ٤ : ٢ – ٣ و ٨ : ٢٣ – ٢٤ ، وسفر أخبار الأيام الأول ٢٣ : ٢٤ و ٣٢ .

4- سفر العدد ٣٠ : ٢ ، إنجيل متي ٥ : ٣٣ – ٣٤.

5- سفر الخروج ٢١ : ٢٣ – ٢٥.

6- إنجيل متي ٥ : ١٣٨.

7- سفر التثنية ١٤ : ١ – ٣.

الفرق بين النسخ والبداء :

س١: إذا كان البداء مستحيل على الله سبحانه وتعالى، فلماذا يعتقد به الشيعة؟

حتى ذكروا له عدة روايات، في تعظيم البداء ؟ بل نجد بعض الباحثين من إخواننا السنة يحملون على إخوانهم الامامية بشكل عنيف، متهمين إياهم بالانحراف والضلال، حتى إن بعضهم يكاد أن يقول: أن الامامية أشد انحرافا من اليهود والنصارى حين حاولوا إنكار النسخ، لان أولئك أنكروا النسخ في محاولة لتنزيه الله سبحانه من النقص، وهؤلاء قالوا بالبداء فأثبتوا الجهل والنقص لله سبحانه[٢]؟

ج: إذ كان معنى البداء، أنّ الله سبحانه بدا له من جهلٍ، فهذا هو المستحيل، ونتبرأ من كل من يعتقد بهذه العقيدة الباطلة، بل الشيعة الإمامية، تعتقد بالبداء لله تعالى ليس بهذا المعنى، لذا يجدر بنا ونحن ندرس النسخ أن نلقي ضوءا على هذه الفكرة أيضا ، لنحدد موقفنا منها بشكل دقيق وواضح ، ونعرف مدى صحة هذه التهم التي رمى بها بعض المسلمين مذهب الإمامية في قولهم بالبداء .

١- فالبداء تارة نفهمه على أساس أنْ يعتقد الله شيئا ، ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقده ، كأن يرى في الحكم مصلحة ثم يظهر له خلاف ذلك ، أو يرى خلق شيء من مخلوقاته حسنا ثم يظهر له خلاف ذلك، فهذا شيء باطل لا يقول به أحد من المسلمين – من دون فرق بين الاماميين وغيرهم – بل أنكره حتى اليهود والنصارى ، ونزهوا الله عنه .

وقد وردت النصوص التي تؤكد هذا المعنى عن طريق أهل البيت عليهم السلام:

---

[1]- إنجيل متي ٥: ٣١-٣٢.

[2]- بهذا الصدد راجع الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى : (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)(البقرة : ١٠٦) والدكتور مصطفى زيد ، النسخ في القرآن .

×فقد روى الصدوق في إكمال الدين عن الإمام الصادق عليه السلام قال: ((من زعم أن الله عز وجل يبدو له في شيء لم يعلمه أمس فابرؤا منه)) [1].

٢- والبداء - تارة أخرى - نفهمه على أساس آخر بان نتصوره نسخا في التكوين ، فليس هناك فرق أساسي بينه وبين النسخ من حيث الفكرة .

وهذا هو المعنى الذي يعتقده الشيعة الإمامية، ولا يلزم منه أي محذور قطعاً .

س٢: ما الفرق بين النسخ والبداء؟

ج: الفرق بينهما في الموضوع الذي يقع النسخ فيه أو البداء، فالإزالة والتبديل إذا وقعا في التشريع سميناهما نسخا، وإذا وقعا في الأمور التكوينية من الخلق والرزق والصحة والمرض وغيرها سميناهما بداء .

والجدير بالذكر أن هذه الفكرة للبداء من شبهة أثارها اليهود حول قدرة الله - تعالى - وسلطانه، وأشار القرآن الكريم إليها كما ناقشها أيضا بقوله تعالى:﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء...﴾ [2].

وخلاصة الشبهة: أن الله سبحانه إذا خلق شيئا وقضى فيه أمره استحال عليه أنْ تتعلق مشيئته بخلافه ، فهو حين يخلق قانون الجاذبية للأرض - مثلا - أصبح مسلوب القدرة والسلطان أمام هذا القانون ، فلا يقدر ان يشاء خلافه أو ينسخه ، شأنه في هذا شأن صاحب البندقية ، فإنه حين يضغط على الزناد يفقد قدرة التحكم في الرصاصة . وهذا المعنى هو الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله:﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ كما جاء ذلك في رواية الصدوق عن

---

[1]- البيان في تفسير القرآن، للسيد الخوئي، البداء، ص٢٧٠.

[2]- المائدة: ٦٤.

الصادق عليه السلام حيث قال : ((لم يعنوا أنه هكذا ولكنهم قالوا فرغ عن الأمر فلا يزيد ولا ينقص)) .

وقد ناقض القرآن الكريم هذه الشبهة في مجالات متعددة ، منها الآية الكريمة التي سبق ذكرها، ومنها قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَاب﴾[1] وغير ذلك .

فالقول بالبداء عند الإمامية يعني فكرة النسخ مطبقة في المجال التكويني ومنطلقة من مفهوم قوله تعالى : ﴿بل يداه مبسوطتان ينفق ما يشاء﴾ وقوله تعالى : ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ فهي تؤمن بعلم الله سبحانه بما يقدمه وما يؤخره، وما ينقصه وما يزيده، وما يستبدل به ، كما أنها تؤمن بقدرته على هذا التقديم والتأخير والاستبدال، وهناك نصوص كثيرة تؤكد أن فكرة الامامية عن البداء لا تتعدى حدود هذا المعنى ولا تتجاوز عنه .

×ففي رواية العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام يقول : ((إن الله يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، ويمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، وعنده أم الكتاب . وقال : فكل أمر يريده الله فهو علمه قبل أنْ يصنعه ، وليس شيء يبدو له إلا وقد كان علمه ، إنّ الله لا يبدو له عن جهل)) [2].

×وروى الكليني عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام : ((ما بدا لله في شيء إلا كان في علمه قبل أنْ يبدو له))[3].

[1]- الرعد: ٣٩.

[2]- تفسير العياشي، ج٢،ص٢١٨، ح٧١.

[3]- الكافي،ج١،ص١٤٨،ح٩.

×وروى الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة عن الرضا عليه السلام: " قال علي بن الحسين وعلي بن أبي طالب قبله ومحمد بن علي وجعفر بن محمد عليهم السلام : ((كيف لنا بالحديث مع هذه الآية :﴿ يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَاب﴾ فأما من قال بأن الله تعالى لا يعلم الشيء إلا بعد كونه فقد كفر وخرج عن التوحيد)) [1].

وبعد هذا كله لا نجد مجالا للتشكيك في فكرة البداء إذا أخذناها في حدود فكرة النسخ مطبقة على التكوين.

[1]– كتاب الغيبة، ص٤٣٠.

الدرس الحادي عشر

تكملة بحث النسخ
النسخ في الشريعة الإسلامية
أقسام النسخ

النسخ في الشريعة الإسلامية

س١: هل وقع النسخ في الشريعة الإسلامية؟

ج: أما النسخ في الشريعة الإسلامية فهو أمر ثابت، سواء في ذلك ما كان نسخا لأحكام الشرائع السابقة أو ما كان نسخا لبعض أحكام الشريعة الإسلامية نفسها .

س٢: أذكر بعض موارد النسخ في الشريعة الإسلامية؟

ج: ومن هذه النسخ ما صرح به القرآن الكريم حيث نسخ حكم التوجه في الصلاة إلى القبلة الأولى وأمر بالتوجه شطر المسجد الحرام .

س٣: وهل هذا محل إتفاق بين العلماء؟

ج: بل النسخ مثارا للخلاف في علوم القرآن حيث وقع الجدال في أن شيئا من الأحكام الثابتة في القرآن الكريم منسوخ بالقرآن الكريم نفسه، أو بالسنة النبوية المتواترة .

س٤: ما نوع الخلاف الواقع بين العلماء؟

ج: وهذا الخلاف جاء على صياغتين:

الأولى: الخلاف الذي أثاره أبو مسلم الأصفهاني المتوفى سنة (٣٢ ه(حيث ذهب - على أحسن الاحتمالات في كلامه - إلى عدم جواز وقوع النسخ في القرآن الكريم مستدلا على ذلك بقوله تعالى في وصف القرآن : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [1] فهذه الآية تقول: أن القرآن لا يعتريه البطلان، ولما كان النسخ إبطالا لما في الآية من حكم فهو لا يرد على القرآن الكريم.

[1]- فصلت: ٤٢.

س٥: ما رأي المصنف بما أثاره أبو مسلم؟

ج: **أولاً**: هذه الآية الكريمة لا يمكن أنْ تكون دليلا لمذهب أبي مسلم ، لان النسخ ليس باطلا حتى يكون وروده على القرآن الكريم خلافا لمنطوق الآية، وإنما هو محض حق وموافق لواقع الحكمة والمصلحة على أساس ما ذكرناه عن حقيقته ، وإذا كان النسخ باطلا فلا نحتاج في رفضه إلى الاستعانة بالآية الكريمة بل يكفي بطلانه سببا لذلك .

ثانياً: إنّ ما أثاره على أساس من المغالطة والإيهام ، حيث يقصد من الباطل هنا ما يكون قبالة الحق سواء في العقيدة أو في النظام أو الأسلوب البياني، والقرآن الكريم لا يأتيه شيء من الباطل في كل هذه الجوانب ، ولا يقصد منه الإبطال والإزالة اللذان هما بمعنى النسخ .

والثانية: الخلاف الذي أثاره بعض علماء القرآن ، حيث ذهبوا إلى عدم وقوع النسخ في القرآن الكريم خارجا ، وان كان لا يوجد مانع عقلي أو شرعي عنه . ويكاد يقول آية الله السيد الخوئي قدس سره في كتابه " البيان في تفسير القرآن " بهذا الرأي، حيث ذكر لذلك مناقشة واسعة ، أشار فيها إلى الآيات التي يحتمل فيها النسخ ونقد مبدأ النسخ فيها على هدي دراسة علمية دقيقة - عدا آية النجوى - وخلص إلى الرأي الآنف الذكر .

هل للنسخ أقسام ؟

س١: ما أقسام النسخ؟

ج: قد قسموا النسخَ إلى ثلاثة أقسام نوجزها بما يلي :

الأول : نسخ التلاوة دون الحكم : ويقصد بهذا النسخ أنْ تكون هناك آية قرآنية نزلت على الرسول صلى الله عليه وآله، ثم نسخت تلاوتها ونصها اللفظي مع الاحتفاظ بما تضمنه

من أحكام . وقد مثلوا لهذا القسم بآية الرجم التي روي عن عمر بن الخطاب نصها : " إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم " حيث قيل إنها كانت آية في القرآن الكريم نسخت تلاوتها مع الاحتفاظ بحكمها.

س٢: ما صحة هذا القسم من النسخ؟

ج: هذا القسم وان كاد يعترف به أكثر الباحثين من علماء الجمهور في علوم القرآن إلا أنه لا يكاد يعترينا الشك ببطلانه وعدم ثبوته في القرآن الكريم عندما ندرسه بشكل موضوعي ، وذلك لأنه :

أولا: نجد أن الاعتراف بهذا اللون من النصوص والروايات التي أوردتها بعض الكتب الصحيحة (السنية) يؤدي بنا إلى الالتزام بالتحريف، لان منطوق هذه الروايات يصر على ثبوت هذه الآية وغيرها في القرآن الكريم حتى وفاة رسول الله ﷺ، وأنها سقطت منه في المدة المتأخرة من حياته .

وثانيا: نجد أن هذه الروايات لم تصل إلينا إلا بطريق الآحاد ، ولا يجوز لنا أنْ نلتزم بالنسخ على أساس رواية الآحاد لإجماع المسلمين على ذلك ، مضافا إلى طبيعة الأشياء التي تحكم بضرورة شيوع الأمور المهمة بين الناس ومن هذه الأمور المهمة نسخ آية من القرآن الكريم ، فكيف يقتصر النقل فيه على خبر الآحاد ؟

الثاني : نسخ التلاوة والحكم معا : ويقصد بهذا القسم أنْ تكون آية قرآنية ثابتة لفظا ومعنى في وقت من أيام الشريعة ، ثم تنسخ تلاوتها ومضمونها . وقد مثلوا لهذا القسم بآية الرضاعة المروية عن عائشة بهذا النص : ((وكان فيما انزل من القرآن " وعشر رضعات يحرمن " ثم نسخن بخمس معلومات فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن))[1].

[1]- صحيح مسلم ٤: ١٦٧.

س٣: ما صحة هذا القسم من النسخ؟

ج: ويناقش هذا القسم بنفس المناقشتين اللتين ذكرناهما في القسم الأول من النسخ .

الثالث: نسخ الحكم دون التلاوة: ويقصد به النسخ الذي ينصب على جانب المضمون في الآية القرآنية ، مع الاحتفاظ بصياغتها وطريقة التعبير فيها .

وهذا القسم هو ما اشتهر بين العلماء والمؤلفين ، حتى ألفوا كتبا مستقلة فيه .

س٤: هذا القسم من النسخ، كيف يمكن تصويره؟

ج: والنسخ في هذا القسم يمكن أنْ نتصوره على أنحاء ثلاثة :

أ- أنْ ينسخ الحكم الثابت في القرآن الكريم بالسنة المتواترة أو بالإجماع القطعي الذي يكشف عن صدور النسخ من المعصوم .

ب- أنْ ينسخ الحكم الثابت في القرآن الكريم بآية أخرى من القرآن ، ناظرة في طريقة عرضها وبيانها إلى الحكم المنسوخ ، وهذان النحوان لا إشكال فيهما من ناحية واقعية ، وان كان الشك في وقوعهما بحسب الخارج .

ج- أنْ ينسخ الحكم الثابت بالقرآن الكريم بآية أخرى، غير ناظرة إلى الحكم المنسوخ ولا مبينة لرفعه وإنما يلتزم بالنسخ على أساس التعارض بين الاثنين ، فيلتزم بنسخ الآية المتقدمة زمانا بالآية المتأخرة .

س٥: وهل يصح هذا القسم من النسخ؟

ج: يوجد قولان:

الأول: للسيد الخوئي: حيث أشكل على جواز هذا النحو من النسخ على أساس أنه يتنافى ومنطوق الآية القرآنية التي تقول : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند

غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[1]، وحين يقع التنافي بين الآيتين يتحقق هذا الاختلاف الذي نفاه الله سبحانه عن القرآن ، ولا تنفع لتفادي الاختلاف دعوى النسخ لان مثل هذه الدعوى يمكن أنْ تقال في كل اختلاف يقع في كلام غير الله سبحانه وإضافة إلى هذه المناقشة نجد السيد الخوئي ﷺ يكاد يذهب إلى أنه ليس هناك حكم ثابت في القرآن الكريم منسوخ بشيء من القرآن ولا بغيره .

الثاني: للمصنف: حيث قال: (ونحن وان كنا نختلف مع استاذنا السيد الخوئي ﷺ في بعض الجوانب التي جاءت في مناقشته هذه ، وقد نختلف معه من ثم في شمول مبدئه للآيات القرآنية كلها، ولكننا سوف نقتصر في دراستنا هذه على مناقشة بعض الآيات بالطريقة التي سار عليها تقريبا).

نماذج من الآيات التي ادعي نسخها مع مناقشاتها :

الآية الأولى: قوله تعالى : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فأعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ۞ إنّ الله على كل شيء قدير﴾[2] .

×وقد روى جماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم[3] القول بأنها آية منسوخة بآية السيف وهي قوله تعالى : ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [4]. فان الآية الأولى تأمر بالعفو والصفح عن

---

[1] – النساء: ٨٢.

[2] – البقرة: ١٠٩.

[3] – أنظر تفسير مجمع البيان،ج١،ص٨٥.

[4] – التوبة: ٢٩.

أهل الكتاب ، مع أنهم يودون من صميم قلوبهم أنْ يردوا المؤمنين كفارا ، والآية الثانية تأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ولما كانت الآية الثانية متأخرة عن الآية الأولى كان الالتزام بنسخ آية السيف لآية سورة البقرة أمرا لا مناص منه .

وقد ناقش السيد الخوئي قدس سره القول بالنسخ هذا بمناقشتين :

الأولى: أنه لا يمكن القول بنسخ الآية بالآية الثانية بعد أن كان الحكم في الآية المدعى نسخها له غاية ووقت ، وهما وان كانا مذكورين فيها على سبيل الإجمال لا التعيين إلا إنّ هذا المقدار يكفي في عدم الالتزام بالنسخ فيها ، حيث إن النسخ لا يكون في حكم المؤقت الذي يرتفع بانتهاء وقته، وإنما يكون في الحكم الذي يكون ظاهره الاستمرار والتأبيد بحسب إطلاق اللفظ دون أن يكون صريحا في ذلك، وعلى هذا الأساس يكون دور الآية الثاني هو: بيان الوقت والغاية للحكم المذكور في الآية الأولى دون أن تكون ناسخة له .

الثانية: أن آية السيف لا تأمر بقتل أهل الكتاب بشكل مطلق حتى تصبح معارضة للآية الأولى ، وإنما هي تأمر بقتالهم عند عدم دفعهم للجزية. وحينئذ فمجرد أنْ يكونوا من أهل الكتاب لا يكفي في جواز قتالهم ، وإنما يشترط في قتالهم توفر إحدى حالات ثلاث ، كما يستفاد ذلك من مجموع الآيات القرآنية وهي :

أ- مبادأة أهل الكتاب المسلمين بالقتال : ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [1].

[1] - البقرة: ١٩٠.

ب- محاولتهم فتنة المسلمين عن دينهم : ﴿... وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ...﴾ [1] .

ج-إمتناعهم عن إعطاء الجزية للآية المتقدمة وفي غير هذه الحالات لا يجوز قتال أهل الكتاب ، وإنما يكتفى بالصفح والعفو عنهم ، كما جاء في الآية الأولى المدعى نسخها ، فتكون الآية الثانية مقيدة لإطلاق الآية الأولى لا ناسخة لها.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ۞ وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾ [2] .

وقد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم أن الآية الأولى من هاتين الآيتين مختصة بزنا النساء، والعقاب فيها هو الايذاء بالشتم والإهانة وضرب النعال - كما جاء عن ابن عباس [3] ذلك - وهما في كلا الموردين تشملان البكر والثيب منهما . وقد نسخت كلتا الآيتين بحكم الجلد مائة مرة للبكر من النساء والرجال ، كما في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [4] وبحكم الرجم للمحصن من النساء والرجال ، كما ثبت ذلك في السنة النبوية .

وقد ناقش السيد الخوئي قدس سره **مبدأ النسخ في هذه الآية** ، على أساس أن كل واحدة من هذه الآيات تبين حكما يختلف عن الحكم المبين في الآية الأخرى ،

---

[1] - البقرة: ١٩١.

[2] - النساء: ١٥-١٦.

[3] - أنظر تفسير مجمع البحرين،ج٢،ص٢١.

[4] - النور: ٢.

ولا مانع من الأخذ بهذه الأحكام كلها لاختلاف موضوعاتها . ومن أجل أنْ تتضح هذه المناقشة لا بد من أن نستعرض بعض الأمور التي لها ارتباط وثيق في تفسير الآيتين المدعى نسخهما ، لنعرف بعد ذلك مدى صحة دعوى النسخ فيهما :

١- إن للفظ الفاحشة في اللغة والقرآن الكريم معنى واسعا شاملا ، ينطوي تحته كل ما تزايد قبحه وتفاحش، دون أنْ يكون مختصا بعملية الزنا وحدها ، فقد تكون لواطا أو سحاقا أو زنا ، ولا ظهور ولا انصراف للفظ الفاحشة في خصوص الزنا .

٢- إن المقصود بالسبيل في الآية الكريمة هو المخرج والمخلص الذي يكون في حقيقته وواقعه أقل كلفة وضررا على المرأة من الحبس في الدار، لان الآية تجعل السبيل للمرأة لا عليها، وحينئذ فلا يمكن تفسير السبيل بالعقوبة التي وضعها الإسلام الحنيف بالنسبة إلى الزانية والزاني - البكر منهما والثيب - لان هذه العقوبة ليست سبيلا للمرأة تخلص به من شدة الحبس وعقابه، وإنما هو أشد وأقسى من الحبس نفسه .

٣- إن لفظ الإيذاء في الآية الكريمة ليس له ظهور في الشتم، والسب، والإهانة وضرب النعال، وإنما هو معنى شامل لهذه الأمور، ولغيرها من ألوان الإيذاء الأخرى كالجلد والرجم وغيرهما .

وبعد ملاحظة هذه النقاط الثلاث: يمكن أنْ نذهب:

في خصوص الآية الأولى إلى أن المقصود بالفاحشة : (المساحقة): وحكمها الثابت بالآية هو الحبس حتى الموت، أو السبيل الذي يهيئه الله سبحانه لها بان تتوفر الظروف التي تجعل المرأة في مأمن من ارتكاب المنكر ، كأن تتزوج أو

تبلغ العمر الذي تموت فيه طاقتها الجنسية أو تخمد أو تتوب وتصلح . وبهذا اللون من التفسير يمكننا أنْ نلتزم بعدم النسخ في هذه الآية لبقاء حكمها ، في الوقت الذي يلتزم به بالجلد والرجم بالنسبة إلى الزاني . وإضافة إلى ذلك يمكننا أنْ نذهب إلى أن الحكم بالحبس ليس عقابا وحدّاً لارتكاب الفاحشة ، وإنما هو عمل وقائي رادع عن العودة لارتكاب المنكر مرة أخرى ، ويجب في كل الحالات التي يستشعر فيها الخطر من الوقوع في المنكر حتى قبل وقوعه ، وحينئذ فلا ضرورة للالتزام بالنسخ حتى مع الالتزام بأن المقصود من الفاحشة في الآية الكريمة خصوص زنا النساء، لان الالتزام بالجلد والرجم يمكن أنْ ينسجم مع الالتزام – في الوقت ذاته – بثبوت الحكم الوقائي الرادع .

وفي خصوص الآية الثانية يكون المقصود بالفاحشة: (اللواط): وحكمه الإيذاء ، سواء فسرنا الإيذاء بالشكل الذي روي عن ابن عباس ، أم بالشكل الآخر الواسع ، فإنه في كل من الفرضين يمكن أن نلتزم بالحد الشرعي الثابت في الشريعة المقدسة على أن تفسير مفهوم الإيذاء بشكل يشمل الجلد والرجم يجعل آية الجلد وغيرها في موقف المفسر المحدد لنوعية الإيذاء المتخذ ضد الزاني من الرجال والنساء ، دون أنْ يكون ناسخا للآية الأولى . وهناك قرينة لفظية في الآية تدل على أن المراد من الاسم الموصول (اللذان) هو خصوص الرجلين دون الرجل والمرأة ، كما هو التفسير القائل بالنسخ ، وهذه القرينة هي ملاحظة سياق الآيتين الذي يقرر أن المراد من ضمير الجمع المخاطب المذكور فيهما ثلاث مرات من جنس واحد ، بحيث لا يختلف الثالث عن الأوليين . ولما كان المراد بالأوليين منهما خصوص الرجال، لإضافة النساء في أحدهما للضمير وربط الشهادة بالرجال في الثاني ، ويجب ان يكون المراد من الثالث خصوص الرجال

أيضا، وهذا ينتهي بنا إلى أن المراد بالاسم الموصول خصوص الرجال ، ومع هذه القرينة لا بد من الالتزام بان المراد من الفاحشة هي اللواط بالخصوص .

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿... فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً...﴾ [1].

ولا بد من معرفة مفاد الآية الكريمة قبل البحث عن كونها آية منسوخة الحكم . وبهذا الشأن فقد جاءت الروايات الكثيرة من طريق أهل السنة والامامية تذكر أن المقصود من الآية الكريمة نكاح المتعة (الزواج المؤقت) .

ولذلك اشتهر بين علماء العامة أن الآية منسوخة، حيث ذهب هؤلاء إلى أن حلية نكاح المتعة قد نسخت بعد تشريعه لمدة من الزمان في الشريعة المقدسة، وقد وقع الاختلاف بين الباحثين في أمر الناسخ لهذه الآية الكريمة، وبهذا الصدد ذكرت أقوال أربعة :

الأول:أن الناسخ لها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ..﴾ [2]على أساس أن نكاح المتعة لا طلاق فيه ، وإنما تنفسخ عقدة النكاح فيه بانتهاء المدة المضروبة في النكاح أو هبة الباقي منها ، كما أن عدته تختلف عن عدة الطلاق في النكاح الدائم ، ولما كانت هذه الآية تذكر الطلاق طريقا لانفصال الزوجية كانت ناسخة للنكاح الذي يكون انفصال الزوجية فيه عن طريق آخر ، في الوقت الذي تختلف عدته عن عدة النكاح الذي يقع فيه الطلاق .

س٦: ما رأي المصنف حول القول الأول؟

ج: هذا القول يكاد يكون أوهن الأقوال وأبعدها عن الفهم القرآني الصحيح، لانّ الآية الثانية لا تشير - لا من قريب ولا من بعيد - إلى موارد الطلاق وأنه لا بد في

---

[1]- النساء: ٢٤.

[2]- الطلاق: ١.

كل زواج أنْ يقع الانفصال فيه بالطلاق ، وإنما هي بصدد بيان ضرورة العدة في حالة وقوع الطلاق على أن نكاح المتعة تجب العدة فيه أيضا ، ولا تعرض في الآية إلى مقدار العدة ومدتها ، فهي بعيدة عن النسخ كل البعد وليست لها علاقة بآية المتعة .

الثاني: إنّ الناسخ هو قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ. . . ﴾[1] .

على أساس أن نكاح المتعة لا توارث فيه وهذه الآية تقرر بإطلاقها وراثة الزوج لكل زوجة ، فيدور الأمر بين القول بوراثة الزوج للزوجة في نكاح المتعة – وقد ثبت عدمه – وبين القول بنسخ المتعة ، ليبقى إطلاق الآية على حاله ، وهو المطلوب من دعوى النسخ .

س٧: ما رأي المصنف حول القول الثاني؟

ج: وهذا القول كسابقه من حيث مجافاته للواقع والفهم العرفي ، لأنه يمكن الالتزام بان الدليل الذي دل على عدم التوارث بين الزوجين في نكاح المتعة يكون مخصصا لمفاد الآية الكريمة دون اللجوء إلى القول بنسخ آية المتعة ، كما يلتزم بذلك المسلمون في بعض الموارد الأخرى من الإرث ، فان الزوجة إذا كانت كافرة لا ترث زوجها ، أو إذا كان أحد الزوجين قاتلا للآخر فإنه لا ارث بينهما أيضا .

الثالث: أن الناسخ هو النصوص التي تدل على أن نكاح المتعة قد نسخ بعد تشريعه في الإسلام ، وقد رويت هذه النصوص بطرق مختلفة كان ينتهي بعضها إلى الإمام علي عليه السلام، وبعضها إلى الربيع بن سبرة، وغير ذلك[2].

---

[1]- النساء: ١٢.

[2]- البيان، للسيد الخوئي،ص٣١٧.

س٨: ما رأي المصنف حول الرأي الثالث؟

ج: ناقش المصنف بهذه النصوص بالوجوه الثلاثة التالية :

أولا: إن النسخ لا يثبت بخبر الواحد ، لما أشرنا إليه سابقا من الإجماع على ذلك ، وان طبيعة النسخ تقتضي شيوع النسخ واشتهاره بين المسلمين .

ثانيا: إن هناك نصوصا متواترة مروية عن طريق أهل البيت ، تعارض بمضمونها هذه النصوص وتكذبها ، مما يفرض علينا الأخذ بنصوص أهل البيت خاصة لأنهم الثقل الثاني للكتاب الذي ثبت عن النبي ﷺ أنهم لا يفترقون عنه.

ثالثا: النصوص الكثيرة التي وردت في الصحاح التي تؤكد بقاء حلية هذا النكاح حتى وفاة النبي ﷺ، والنسخ لا يجوز من غير النبي ، وقد ذكر السيد الخوئي قدس سره بعض هذه النصوص والتي وردت في صحيح مسلم وسنن البيهقي ومسند أحمد وغيرهم ، ومن هذه الروايات ما رواه مسلم عن أبي الزبير قال: " سمعت جابر بن عبد الله يقول : كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر ، حتى نهى عنه (نكاح المتعة) عمر في شأن عمرو ابن حريث "[1] مع مناقشته للنصوص الأخرى الدالة على النسخ في كتابه (البيان) .

الرابع: أن الناسخ هو إجماع الأمة على حرمة نكاح المتعة .

س٩: ما رأي المصنف حول الرأي الرابع؟

ج: يمكن مناقشته بالأمرين التاليين : **الأول**: أن دعوى الإجماع غير صحيحة فان جماعة من المسلمين ، ومنهم جمع من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون بجواز المتعة ، وقولهم هذا موافق لقول أهل البيت عليهم السلام الذين هم ثقل الكتاب وقد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، ومن هؤلاء الصحابة علي بن أبي

---

[1] – صحيح مسلم: باب نكاح المتعة،ج٤،ص١٤١.

طالب عليه السلام، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وعبد الله ابن مسعود ، وعبد الله بن عباس . **الثاني**: أن هذا الإجماع لو تم فهو ليس بحجة، لان حجية الإجماع، تتوقف على كشفه عن رأي المعصوم ، ولم يكن تحريم نكاح المتعة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ولا بعده إلى أن مضت مدة من عهد عمر، ولا يصح بأي حال الإعراض عن كتاب الله وسنة نبيه لمجرد إجماع جماعة من المسلمين لم يعصموا عن الخطأ والاشتباه، وإلا لأمكن نسخ كل الأحكام.

الدرس الثاني عشر

التفسير والتأويل

التفسير والتأويل

التفسير[1] :

س١ : ما معنى التفسير لغةً؟

ج: معناه البيان والكشف[2]. وفي القرآن الكريم قد ورد بهذا المعنى، قال تعالى: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) [3]فتفسير الكلام – أي كلام – معناه : الكشف عن مدلوله ، وبيان المعنى الذي يشير إليه اللفظ .

س٢: هل يعتبر بيان المعنى الظاهر من اللفظ الذي يتبادر منه تفسيرا، بحيث يصدق عليه لفظ التفسير بمعناه اللغوي أو لا ؟

ج: يوجد إتجاهان:

الإتجاه الأول – وهو السائد بين الأصوليين – يقول: إن الكشف والبيان الذي أخذناه في معنى التفسير يستبطن افتراض وجود درجة من الخفاء والغموض في المعنى ، ليكشف ويزال الغموض عنه بعملية التفسير، فلا يصدق التفسير حينئذ إلا في حالة الغموض والخفاء، فمن يسمع كلاما له معنى ظاهر يتبادر من ذلك الكلام، فيعلن عن ذلك المعنى لا يكون مفسرا للكلام، لأنه لم يكشف عن شيء خفي ، وإنما يصدق التفسير على الجهد الذي يبذله الشخص في سبيل اكتشاف معنى الكلام المكتنف بشيء من الغموض والخفاء، وبتعبير آخر أن من أظهر معنى اللفظ يكون قد فسره وأما حيث يكون المعنى ظاهرا ومتبادرا بطبيعته فلا إظهار ولا تفسير . وسيرا مع هذا الاتجاه لا يكون من التفسير إلا إظهار أحد

---

[1]– كتبه الشهيد الصدر (قدس سره) .

[2]– لسان العرب : مادة (فسر).

[3]– الفرقان : ٣٣.

محتملات اللفظ ، واثبات انه هو المعنى المراد، أو إظهار المعنى الخفي غير المتبادر، واثبات انه هو المعنى المراد بدلا من المعنى الظاهر المتبادر، وأما ذكر المعنى الظاهر المتبادر من اللفظ فلا يكون تفسيرا.

الإتجاه الثاني – للمصنف – : هو أن ذكر المعنى الظاهر قد يكون في بعض الحالات تفسيرا أيضا ، وإظهاراً لأمر خفي كما أنه – في بعض الحالات الأخرى – قد لا يكون تفسيرا لأنه يفقد عنصر الخفاء والغموض ، فلا يكون إظهاراً لأمر خفي أو إزالة لغموض .

س٣: لكن كيف نتعرف على موارد الظهور التي ينطبق عليها (التفسير) والموارد التي لا ينطبق عليها معنى (التفسير)؟

ج: وذلك من خلال تقسم الظهور إلى قسمين :

أحدهما: الظهور البسيط: وهو الظهور الواحد المستقل المنفصل عن سائر الظواهر الأخرى .

والآخر: الظهور المعقد: وهو الظهور المتكون نتيجة لمجموعة من الظهورات المتفاعلة .

ولأجل توضيح هذا التقسيم نضرب مثالا لذلك من العرف، بأن يقول شخص لولده : اذهب إلى البحر في كل يوم ، أو يقول له: اذهب إلى البحر في كل يوم ، واستمع إلى كلامه .

فبالنسبة إلى القول الأول نعتبر الظهور ظهورا بسيطا، إذ لا توجد في الكلام إلا صورة واحدة تتبادر إلى الذهن وهي: صورة بحر من الماء ، يطلب الأب من ولده أن يذهب إليه في كل يوم .

وأما بالنسبة إلى القول الثاني فالظهور معقد لأنه مزدوج فهناك نفس الظهور السابق، إذ يتبادر إلى الذهن من كلمة البحر: البحر من الماء ، يذهب إليه الولد في كل يوم . ويقابله ظهور آخر وهو ظهور الاستماع إلى كلام البحر، إذ يتبادر إلى الذهن من ذلك : أن البحر ليس بحرا من ماء بل هو بحر من العلم ، لان بحر الماء لا يستمع إلى كلامه لأنه ليس له كلام وإنما يستمع إلى صوت أمواجه .

وهكذا نواجه في القول الثاني ظهورين بسيطين متعارضين، وحين نلاحظ الكلام بصورة كاملة متفاعلة يجب أن ندرس نتيجة التفاعل بين ذينك الظهورين ، وما ينجم عنهما من ظهور بعد تصفية التناقضات الداخلية بينهما ، وهذا الظهور الناجم عن ذلك نسميه : بالظهور المعقد أو المركب .

وإذا ميزنا بين الظهور البسيط والظهور المعقد أمكننا أن نعرف أن إبراز الظهور المعقد ، وتحديد معنى الكلام على أساسه يعتبر (تفسيرا) ، لان تعقيده وتركيبه يجعل فيه درجة من الخفاء والغموض جديرة بالكشف والإبانة، فيصدق عليه اسم (التفسير) ، وأما الظهور البسيط ففي الغالب لا يعتبر إبراز معنى الكلام على أساسه تفسيرا، لان المعنى ظهر بطبيعته فلا يحتاج إلى إظهار .

والنتيجة أن في صدق التفسير على بيان المعنى في موارد الظهور اتجاهين :

أحدهما : القائل بعدم صدقه مطلقا ، سواء كان الظهور بسيطا أم معقدا .

والآخر: - وهو الاتجاه الصحيح - القائل بأن التفسير ليصدق على بيان المعنى في موارد الظهور المعقد ، دون بعض موارد الظهور البسيط .

أهمية التمييز بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى :

س١ : ما الفرق بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى ؟

ج: تفسير اللفظ يكون على صعيد المفاهيم ، وتفسير المعنى بتجسيده في صورة محددة على صعيد المصاديق .

س٢ : ما أهمية التمييز ما بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى؟

ج: يعتبر التمييز نقطة جوهرية جدا في تفسير القرآن الكريم ، وأداة لحل التناقض الظاهري الذي قد يبدو بين حقيقتين قرآنيتين وهما :

الحقيقة الأولى: أنّ القرآن كتاب هداية للبشرية ، أنزله الله سبحانه لإخراجها من الظلمات إلى النور ، وإرشادها إلى الطريقة الفضلى في جوانب حياتها ، وقد وصف نفسه بأنه ﴿...هُدًى لِّلنَّاسِ...﴾[١] و ﴿...نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[٢] ﴿...تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.[٣] وهذه الحقيقة تفرض أنْ يجئ القرآن ميسر الفهم، وان يتاح للإنسان استخراج معانيه منه، إذ لا يحتاج للقرآن أنْ يحقق أهدافه ويؤدي رسالته لو لم يكن مفهوما من قبل الناس .

والحقيقة الثانية: أنّ كثيرا من الموضوعات التي يستعرضها القرآن أو يشير إليها لا يمكن فهمها بسهولة، بل قد تستعصي على الذهن البشري، ويتيه في مجال التفكير فيها لدقتها وابتعادها عن مجالات الحس والحياة الاعتيادية التي يعيشها الإنسان، وذلك نظير ما يتعلق من القرآن باللوح، والقلم، والعرش، والموازين، والملك، والشيطان، وإنزال الحديد ورجوع البشرية إلى الله ، والخزائن ، وملكوت السماء، وتسبيح ما في السماوات والأرض وما إلى ذلك من موضوعات .

---

[1]- البقرة : ١٨٥ .

[2]- المائدة : ١٥.

[3]- النحل : ٨٩.

إنْ قلت: إذا كانت حقيقة أهداف القرآن الكريم ورسالته تفرض أن يكون ميسر الفهم ولكن واقع بعض موضوعاته يستعصي على الفهم ويتيه فيها الذهن البشري، وهذا نوعٌ من التناقض!.

قلت: حل التناقض الظاهري بين هاتين الحقيقتين إنما يكون بالتمييز بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى، لان الحقيقة الأولى أهداف القرآن ورسالته إنما تفرض أن يكون القرآن ميسر الفهم ، بوصفه كلاما دالا على معنى : أي بحسب تفسير اللفظ، وهو بهذا الوصف ميسر الفهم ، سهل على الناس استخراج معانيه ، وإنما الصعوبة في تحديد الصور الواقعية لمعانيه ومفاهيمه.

فكل الآيات التي استعرضت تلك الموضوعات التي أشرنا إليها في الحقيقة الثانية تعتبر مفهومة من ناحية لغوية ، ولا صعوبة في التفسير اللفظي لها ، وإنما الصعوبة تكمن في تفسير معنى اللفظ لا في تفسير اللفظ نفسه ، لان تلك الموضوعات ترتبط بعوالم أرقى من عالم الحس الذي يعيشه الإنسان، فيكون من الطبيعي أنْ يواجه الإنسان صعوبات كبيرة إذا حاول تحديد المعنى في مصداق معين ، وتجسيد المفهوم في الذهن ضمن واقع خاص .

س٣: ما هي الضرورة التي دعت القرآن الكريم إلى أن يتعرض لمثل هذه المعاني التي يستعصي تفسيرها على الذهن البشري، فيخلق بذلك صعوبات ومشاكل هو في غنى عنها؟

ج: الواقع أن القرآن الكريم لم يكن بإمكانه أنْ يتفادى هذه الصعوبات والمشاكل، لان القرآن بوصفه كتاب دين يستهدف بصورة رئيسة ربط البشرية بعالم الغيب وتنمية غريزة الإيمان بالغيب فيها ، أو تقريب صورته إلى الذهن الإنساني المادي ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق تلك الموضوعات التي تنبه الإنسان

إلى صلته بعالم أكبر من العالم المنظور ، وإن كان غير قادر على الإحاطة بجميع أسراره وخصوصياته.

س٤: هل التفسير معنى إضافي أو موضوعي؟

ج: **أ- على ضوء الاتجاه الصحيح نعرف**: أن التفسير معنى (إضافي) ، لان التفسير بيان المعنى وإيضاحه حتى في مورد ظهور اللفظ . والمعنى الواحد قد يكون بحاجة إلى البيان والكشف بالنسبة إلى شخص ، ولا يحتاج إلى بيان وكشف عندما نضيفه إلى شخص آخر ، فيكون بيانه - إضافة إلى من يحتاج البيان - تفسيرا دون الشخص الآخر .

ب- وأما إذا أخذنا بالاتجاه الآخر الذي يرى: أن التفسير لا يشمل موارد حمل اللفظ على معناه الظاهر مهما كان الظهور معقدا، وأن التقسيم مختص بحمل اللفظ على ما يكون ظاهرا من اللفظ فبالإمكان أن نتصور للتفسير معنى (موضوعيا) مطلقا لا يختلف باختلاف الأفراد، لأننا نلاحظ عندئذ اللغة نفسها، فإن كان المعنى الذي يذكر للفظ هو المعنى الذي يقتضيه الاستعمال اللغوي بطبيعته فلا يكون ذلك تفسيراً، حتى إذا كان محاطا بشيء من الخفاء والغموض بالنسبة إلى بعض الأشخاص، وان كان المعنى معنى آخر لا يقتضيه الاستعمال اللغوي بطبيعته، وإنما عيناه بدليل خارجي فهو (التفسير) .

س٥: ما المقصود بتفسير اللفظ وتفسير المعنى؟ مع بيان لحاظ القسمة؟

ج: لحاظ القسمة باعتبار الشيء المفسّر :

١- تفسير اللفظ عبارة عن (بيان معناه لغة) .

٢- وأما تفسير المعنى فهو: تحديد مصداقه الخارجي الذي ينطبق عليه ذلك المعنى فحين نسمع شخصا يقول: إن دول الاستكبار الكافر تملك أسلحة ضخمة ، تارة نتساءل : ما هو معنى الأسلحة ؟ ونجيب عن هذا السؤال : إن الأسلحة هي الأشياء التي يستعين بها صاحبها في قهر عدوه، وأخرى نتساءل : ما هي نوعية السلاح الذي تملكه تلك الدول؟ ونجيب : إن سلاحها القنابل الذرية أو الصواريخ بعيدة المدى أو أقمار التجسس الفضائية أو الغواصات الذرية أو . . . ففي المرة الأولى فسرنا اللفظ إذ ذكرنا معناه لغة ، وفي المرة الثانية فسرنا المعنى إذ حددنا المصداق الذي ينطبق عليه معنى الجملة ويشير إليه .

فتسمى المرحلة الأولى: بمرحلة (تفسير اللفظ) أو التفسير اللغوي ، وهي مرحلة تحديد المفاهيم .

وتسمى المرحلة الثانية: مرحلة (تفسير المعنى) وهي مرحلة تجسيد تلك المفاهيم في صور معينة محددة . وأمثلة ذلك من القرآن الكريم كثيرة ، فنحن نلاحظ في القرآن أن الله سبحانه يوصف بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام ، ونواجه بالنسبة إلى هذه الكلمات بحثين :

أحدهما: البحث عن مفاهيم هذه الكلمات من الناحية اللغوية .

والآخر: البحث عن تعيين مصداق تلك المفاهيم بالنسبة إلى الله تعالى . فكيف يسمع سبحانه ؟ وهل يسمع بجارحة أو لا ؟ وكيف يعلم ؟ وهل يعلم بصورة زائدة على ذاته ؟

والأول: يمثل التفسير اللفظي للآية أو تفسير اللفظ ، والثاني : يمثل التفسير المعنوي أو تفسير المعنى .

ومن أمثلة ذلك أيضا:

×قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ. . .﴾ [1].

×وقوله تعالى: ﴿. . . وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ. . . ﴾[2].

×وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ.. .﴾ [3] .

فنحن نجد هذه الآيات تتحدث عن أشياء قد أنزلت من قبيل : (الكتاب) (الحديد) (الماء) .

وتفسير اللفظ: يعني - بصدد هذه الآيات - أن نشرح معنى (النزول) لغة ونحدد مفهوم كلمة " أنزلنا " الواردة في الآيات الثلاث ، ونعرف أنها تستبطن معنى الهبوط من جهة عالية مرتفعة.

وتفسير المعنى: هو أن ندرس حقيقة هذا الإنزال ونوع تلك (الجهة العالية) التي هبط منها الكتاب والحديد والماء، وهل هي جهة مادية أو معنوية ؟

التفسير بوصفه علما :

س١ : يوصف التفسير بأنّه علمٌ، فعلى أي أساس يكون ذلك؟

ج: أما التفسير بوصفه علما فهو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم بوصفه كلاما لله تعالى.

وتوضيح ذلك : أن القرآن الكريم له عدة اعتبارات:

×فهو تارة يلحظ بوصفه حروفا كتابية ترسم على الورق.

×وأخرى : يلحظ بوصفه أصواتاً نقرؤها ونرددها بلساننا.

×وثالثة : يلحظ باعتباره كلاما لله تعالى .

---

[1] - الأنعام:٩٢.

[2] - الحديد: ٢٥.

[3] - المؤمنون:١٨.

والقرآن الملحوظ بأي واحد من هذه الاعتبارات يقع موضوعا لعلم يتكون من بحوث خاصة به .

×فالقرآن من حيث إنه حروف تكتب: موضوع لعلم الرسم القرآني الذي يشرح قواعد كتابة النص القرآني .

×والقرآن من حيث إنه يقرأ : موضوع لعلم القراءة وعلم التجويد .

×والقرآن من حيث إنه كلام الله : يقع موضوعا لعلم التفسير .

س٢: على ماذا يشتمل علم التفسير؟

ج: يشتمل على جميع البحوث المتعلقة بالقرآن بوصفه كلام الله ، ولا يدخل في نطاقه البحث في طريقة كتابة الحرف، أو طريقة النطق بصوته، لان الكتابة والنطق ليسا من صفات نص القرآن بوصفه كلاما لله ، إذ ليس لكونه كلاما لله دخل في كيفية كتابته أو قراءته .

وإنما يدخل في علم التفسير في ضوء ما ذكرناه له من تعريف البحوث الآتية :

أولاً: البحث عن مدلول كل لفظ أو جملة في القرآن الكريم، لان كون هذا المعنى أو ذاك مدلولا للفظ القرآني من صفات القرآن بوصفه كلاما لله، وليس من صفات الحروف أو أصواتها بما هي حروف أو أصوات .

ثانيا: البحث عن إعجاز القرآن والكشف عن مناحي الإعجاز المختلفة فيه ، فان الإعجاز من أوصاف القرآن باعتباره كلاما دالا على المراد .

ثالثا: البحث عن أسباب النزول ، لان الآية حين ندرس سبب نزولها نلاحظها بما هي كلام، أي بما هي لفظ مفيد دال على معنى ، لان ما لا يكون كلاما ولا يدل على معنى، لا يرتبط بحادثة معينة لتكون سببا لنزول الآية .

رابعا: البحث عن الناسخ والمنسوخ والخاص والعام والمقيد والمطلق ، فان كل ذلك يتناول النص القرآني بوصفه كلاما دالا على معنى .

خامسا: البحث عن أثر القرآن في التأريخ، ودوره العظيم في بناء الإنسانية وهدايتها فإن اثر القرآن ودوره مردهما إلى فعالية القرآن بوصفه كلاما لله لا بوصفه مجرد حروف تكتب أو صوت أو أصوات تقرأ .

إلى غير ذلك من البحوث التي ترتبط بالقرآن باعتباره كلاما لله تعالى .

ومن خلال تعريف علم التفسير نحدد موضوعه أيضا وهو (القرآن) من حيث كونه كلاما لله تعالى .

س٣: هل يختلف علم التفسير عن علم الناسخ والمنسوخ، وعلم أسباب النزول وغير ذلك؟

ج: أن إطلاق اسم علم (الناسخ والمنسوخ) أو علم (أسباب النزول) أو علم (إعجاز القرآن) : على البحوث المتعلقة بهذه الموضوعات ، لا يعني عدم إمكان اندراجها جميعا في نطاق علم واحد باسم علم : (التفسير) فهي في الحقيقة جوانب من هذا العلم، لوحظ في كل جانب منها تحقيق هدف خاص يتعلق بالبحث في ناحية خاصة من كلام الله ،

ففي علم (إعجاز القرآن) يدرس كلام الله في القرآن مقارنا بالنتاج البشري أو بالإمكانات البشرية ، ليدلل على أنه فوق تلك الإمكانات وهو معنى الإعجاز .

وفي علم (أسباب النزول) يدرس كلام الله في القرآن من حيث ارتباطه بالأحداث والوقائع التي لابست نزوله ، وهكذا الأمر في سائر الجوانب الأخرى .

وإنما أفردت هذه الأسماء وأعطيت عناوين مستقلة، باعتبار أن العلماء بعد التوسع في علم التفسير أفردوها أحيانا بالبحث للتركيز على الأهداف التفصيلية لها، كما

صنعوا ذلك في آيات الأحكام، وفي القصص والأمثال وأسلوب القرآن وغيرها، مع أن هذه الأبحاث وجدت وترعرعت في أحضان علم التفسير .

التأويل[١] :

والتأويل كلمة أخرى ظهرت إلى جانب كلمة: (التفسير) في بحوث القرآن عند المفسرين، واعتبروها متفقة بصورة جوهرية مع كلمة التفسير في المعنى، فالكلمتان معا تدلان على بيان معنى اللفظ والكشف عنه ، قال صاحب القاموس : " أوّل الكلام تأويلا : دبره وقدره وفسره "[٢]. والمفسرون الذين كادوا اتفقوا على التوافق بين الكلمتين بشكل عام اختلفوا في تحديد مدى التطابق بين الكلمتين .

س١ : ما الفرق بين التأويل والتفسير؟

ج: توجد عدة إتجاهات في بيان الفرق بينهما ومنها:

١- **الاتجاه العام لدى قدماء المفسرين**: الذي يميل إلى القول بالترادف بينهما ، فكل تفسير تأويل، والعكس صحيح أيضا، وعلى هذا فالنسبة بينهما هي التساوي ، ولعل منه قول مجاهد : إن العلماء يعلمون تأويله ، وقول ابن جرير الطبري عند تفسيره للآية " القول في تأويل قوله كذا . . . واختلف أهل التأويل في الآية . . . ".

٢- **الاتجاه العام لدى من تأخر عنهم من المفسرين**: الذي يميل إلى القول بأن التفسير يخالف التأويل في بعض الحدود : أما في طبيعة المجال المفسر والمؤول، أو في نوع الحكم الذي يصدره المفسر والمؤول ، أو في طبيعة الدليل الذي يعتمد عليه التفسير والتأويل ، فهنا مذاهب نذكر منها ثلاثة :

---

[1]- كتبه الشهيد الصدر (قدس سره).

[2]- القاموس: مادة (أوّل).

أ- التمييز بين التفسير والتأويل في طبيعة المجال المفسَّر: ويقوم هذا المذهب على أساس القول بأن التفسير يخالف التأويل بالعموم والخصوص ، فالتأويل يصدق بالنسبة إلى كل كلام له معنى ظاهر ، فيحمل على غير ذلك المعنى فيكون هذا الحمل تأويلا ، والتفسير أعم منه لأنه بيان مدلول اللفظ مطلقا أعم من أن يكون هذا المدلول على خلاف المعنى الظاهر أو لا.

ب- التمييز بين التفسير والتأويل في نوع الحكم: ويقوم هذا المذهب على أساس القول بأن التفسير والتأويل متباينان، لان التفسير هو : القطع بأن مراد الله كذا ، والتأويل : ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، وهذا يعني أن المفسر أحكامه قطعية والمؤول أحكامه ترجيحية .

ج- التمييز بينهما في طبيعة الدليل: ويقوم هذا المذهب على أساس القول بأن التفسير هو : بيان مدلول اللفظ اعتمادا على دليل شرعي ، والتأويل هو بيان اللفظ اعتمادا على دليل عقلي .

س٢: ما رأي المصنف حول هذه الإتجاهات؟

ج: موقفنا من هذه الاتجاهات : والبحث في تعيين مدلول كلمة التأويل ، والمقارنة بينها وبين كلمة التفسير يتسع - في الحقيقة - بقبول كل هذه الوجوه حين يكون بحثا اصطلاحيا يستهدف تحديد معنى مصطلح معين لكلمة التأويل في علم التفسير ، لان كل تلك المعاني داخلة في نطاق حاجة المفسر ، فيمكنه أن يصطلح على التعبير عن أي واحد منها بكلمة التأويل، لكي يشير إلى مجال خاص أو درجة معينة من الدليل، ولا حرج عليه في ذلك ، ولكن الأمر يختلف عندما يكون البحث عن معنى كلمة (التأويل) عندما ترد في الكتاب والسنة فإن الخطر

يكمن في اتخاذ المعنى المصطلح معنى وحيدا للفظ، وفهم كلمة (التأويل) على أساسه إذا جاءت في النص الشرعي (القرآن أو السنة) .

ونحن إذا لاحظنا كلمة التأويل وموارد استعمالاتها في القرآن نجد لها معنى آخر، لا يتفق مع ذلك المعنى الاصطلاحي الذي يجعلها بمعنى التفسير ولا يميزها عنه إلا في الحدود والتفصيلات.

س٣: لكن كيف نفهم معنى التأويل؟

ج: لابد أن نتناول إضافة إلى معناها الاصطلاحي معناها الذي جاءت به في القرآن الكريم . وقد جاءت كلمة التأويل في سبع سور من القرآن الكريم :

الأولى: سورة آل عمران ، ففيها قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ. . . ﴾[1].

والثانية: سورة النساء ، ففيها قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[2].

والثالثة: سورة الأعراف ، ففيها قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ

[1] – آل عمران : ٧ .

[2] – النساء : ٥٩ .

نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ...﴾[1].

والرابعة: سورة يونس ، ففيها قوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . . . ﴾[2] .

والخامسة: سورة يوسف ، جاء فيها قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ . . . ﴾[3] .

والسادسة والسابعة: سورتا الإسراء والكهف[4] ، إذ جاءت فيهما كلمة التأويل على هذا المنوال أيضا .

وبدراسة هذه الآيات: نعرف أن كلمة التأويل لم ترد فيها بمعنى التفسير وبيان مدلول اللفظ ، بل يبدو عدم إمكانية ورودها بهذا المعنى إلا في الآية الأولى فقط ، لان التأويل في الآية الأولى أضيف إلى الآيات المتشابهة، ولهذا ذهب كثير من مفسري الآية إلى القول: بأن تأويل الآية المتشابهة هو تفسيرها وبيان مدلولها ، وتدل الآية عندئذ على عدم جواز تفسير الآية المتشابهة ، ومن ثم أن قسما من القرآن يستعصي على الفهم ولا يعلمه إلا (الله) أو (الله والراسخون في العلم) ، على الاحتمالين في الوقف والوصل[5]، وأما ما يتاح للإنسان الاعتيادي فهمه وتفسيره ومعرفة معناه من القرآن فهو الآيات المحكمة منه فقط .

---

[1] – الأعراف : ٥٢-٥٣.

[2] – يونس : ٣٩.

[3] – يوسف : ٦.

[4] – الإسراء : ٣٥ ، والكهف : ٧٨.

[5] – أي بناءً على الوقف على (الله) فالتأويل منحصر بالله فقط، وأمّا (الواو) استئنافية، وأمّا بناءً على الوصل وأنّ (الواو) عاطفة، فالتأويل لله تعالى وكلذلك للراسخين في العلم. ففي قوله تعالى: ((...وما يعلم تأويله إلاّ الله

وهذا الموقف الذي وقفه أولئك المفسرون من هذه الآية الكريمة، وحملهم لكلمة التأويل على ضرب من التفسير يأتي نتيجة لانسياقهم مع المعنى الاصطلاحي لكلمة التأويل . ونحن بإزاء موقف من هذا القبيل يجب أن نعرف قبل كل شيء أن المعنى الاصطلاحي هل كان موجودا في عصر القرآن ؟ وهل جاءت كلمة التأويل بهذا المعنى وقتئذ ؟ ولا يكفي مجرد انسياق المعنى الاصطلاحي مع سياق الآية لنحمل كلمة التأويل فيها عليه .

وملاحظة ما عدا الآية الأولى من الآيات التي جاءت فيها كلمة التأويل تدل على أنها كانت تستعمل في القرآن الكريم بمعنى آخر غير التفسير، ولا نملك دليلا على أنها استعملت بمعنى التفسير في مورد ما من القرآن . والمعنى الذي يناسب تلك الآيات هو أنْ يكون المراد بتأويل الشيء هو ما يؤول وينتهي إليه في الخارج

والراسخون في العلم...))(آل عمران: ٧). إنّ الواو في (الآية الشريفة) يحتمل معنيين: **المعنى الأوّل**: أنَّ الواو في قوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...) واو استئناف، وعليه يكون الرَّاسخون مبتدأً وخَبَرُهُ ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا...) وبه لا تكون الآية دالَّةً على أنَّ الرَّاسخين في العلم يعلمون تأويل الكتاب وإنَّما هي متصدِّيةٌ لبيان أنَّ الرَّاسخين في العلم يؤمنون بالمُحكم والمُتشابه وإنْ كانُوا لا يعلمون بالمُتشابهة بل يتوقَّفون فيه إلا أنَّهم يقولون أنَّ كُلاًّ مِن المُحكم والمُتشابه مِن عِند ربِّنا، وذلك في مقابل من كان في قلوبهم زيغٌ فإنَّهم يَتَّبِعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

المعنى الثاني: أنّ الواو في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...﴾ ، واوٌ عاطفة، وذلك يقتضي أنَّ الرَّاسخين في العلم يعلمون بتأويل الكتاب، وعليه يكون قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا...﴾

في موقع الحال أي أنَّ الرَّاسخين في العلم يعلمون تأويل الكتاب حال كونهم يقولون آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِند ربّنا، أي أنّ كلمة ﴿يَقُولُونَ﴾ فعلٌ مضارعٌ والفاعل هو الضَّمير أعني الواو ومرجعه الرَّاسخون، والجملة من الفِعل والفاعل في موقع الحال للاسم المعطوف وهو ﴿الرَّاسِخُونَ﴾.

المتعيّن من المعنيين: المعنى الثَّاني هو المُستظهَر من الرّوايات المتصدّية لتفسير الآية المباركة، وعليه لا بدّ من ترجيحه على المعنى الأول وإن كان محتملاً، نظراً لكون الأئمة من أهل البيت (ع) هم ورثة الكِتاب بمقتضى الأدلة القطعية فما يَثبُتُ عنهم من تفسير يكون هو المتعيَّن دون غيره.

والحقيقة ، كما تدل عليه مادة الكلمة نفسها، ولهذا أضيف التأويل إلى الرد إلى الله والرسول تارة ، والى الكتاب أخرى ، والى الرؤيا ، والى الوزن بالقسطاس المستقيم .

وهذا نفسه هو المراد – كما عرفنا سابقا – من كلمة التأويل في الآية الأولى التي أضيف فيها التأويل إلى الآيات المتشابهة في قوله تعالى : ﴿... فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ...﴾ [1] ، فتأويل الآيات المتشابهة ليس بمعنى بيان مدلولها وتفسير معانيها اللغوية ، بل هو ما تؤول إليه تلك المعاني، لان كل معنى عام حين يريد العقل أنْ يحدده ويجسده ويصوره في صورة معينة ، فهذه الصورة المعينة هي تأويل ذلك المعنى العام . وعلى هذا الأساس يكون معنى التأويل في هذه الآية هو ما أطلقنا عليه اسم تفسير المعنى ، لان الذين في قلوبهم زيغ كانوا يحاولون أن يحددوا صورة معينة لمفاهيم الآيات المتشابهة إثارة للفتنة، لان كثيرا من الآيات المتشابهة تتعلق معانيها بعوالم الغيب ، فتكون محاولة تحديد تلك المعاني وتجسيدها في صورة ذهنية خاصة – مادية أو منسجمة مع هوى ورأي المؤول – عرضة للخطر وللفتنة .

ونستخلص من ذلك أمرين :

أحدهما: التأويل جاء في القرآن بمعنى ما يؤول إليه الشيء لا بمعنى التفسير ، وقد استخدم بهذا المعنى للدلالة على تفسير المعنى لا تفسير اللفظ ، أي على تجسيد المعنى العام في صورة ذهنية معينة .

---

[1]– آل عمران:٧.

والآخر: إنّ اختصاص الله سبحانه والراسخين في العلم بالعلم بتأويل الآيات المتشابهة لا يعني أن الآيات المتشابهة ليس لها معنى مفهوم ، وان الله وحده الذي يعلم بمدلول اللفظ وتفسيره ، بل يعني أن الله وحده الذي يعلم بالواقع الذي تشير إليه تلك المعاني ، ويستوعب حدوده وكنهه . وأما معنى اللفظ في الآية المتشابهة فهو مفهوم بدليل أن القرآن يتحدث عن إتباع مرضى القلوب للآية المتشابهة ، فلو لم يكن لها معنى مفهوم لما صدق لفظ (الإتباع) هنا ، فما دامت الآية المتشابهة يمكن أنْ تتبع فمن الطبيعي أنْ يكون لها معنى مفهوم ، وكيف لا يكون لها معنى مفهوم وهي جزء من القرآن الذي أنزل لهداية الناس وتبيان كل شيء !

والواقع أن عدم التمييز بين تفسير اللفظ وتفسير معنى اللفظ: هو الذي أدى إلى الاعتقاد بأن التأويل المخصوص علمه بالله هو تفسير اللفظ ومن ثم إلى القول بأن قسما من الآيات ليس لها معنى مفهوم ، لان تأويلها مخصوص بالله، ونحن إذا ميزنا بين تفسير اللفظ وتفسير المعنى نستطيع أن نعرف أن المخصوص بالله هو تأويل الآيات المتشابهة ، بمعنى تفسير معانيها لا تفسير ألفاظها . وهكذا يمكننا في هذا الضوء أنْ نضيف إلى المعاني الاصطلاحية التي مرت بكلمة التأويل معنى آخر يمكن استنباطه من القرآن الكريم هو : تفسير معنى اللفظ ، والبحث عن استيعاب ما يؤول إليه المفهوم العام ، ويتجسد به من صورة ومصداق.

الدرس الثالث عشر

التدبر والتفسير بالرأي

الشروط التي يجب توفرها في المُفسِّر

التدبر والتفسير بالرأي

س١: هل يعتبر التدبر تفسيراً صحيحاً؟ وهل يُعتبر التفسير بالرأي صحيحاً؟

ج: نعم من يعتمد التدبر[1] فهو من التفسير الصحيح، لأنّه يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية، وبينما من يعتمد على التفسير بالرأي فهو التفسير الباطل.

س٢: هل توجد أدلة في التأريخ ما يؤكد بطلان التفسير بالرأي ؟

ج: نعم فهذا الموضوع من القضايا ذات البعد التأريخي، الذي يرجع إلى عهد الرسول ﷺ.

×فقد ورد عنه ﷺ النهي عن التفسير بالرأي ، فعنه ﷺ: ((من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)) [2] . ولعل الآية الكريمة: ﴿...فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة... ﴾ تشير إلى أحد مصاديق هذا النوع من التفسير أيضاً

---

[1]- تدبَّرَ في يتدبَّر ، تَدبُّرًا ، فهو مُتدبِّر، تدبَّر الأَمرَ / تدبَّر في الأمرِ : تأمَّله وتفكّر فيه على مَهَلٍ ، ونظر في عاقبته: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾(محمد:٢٤)

[2]- أخرجه الترمذي ١١ : ٦٧ بألفاظ مختلفة عن ابن عباس ، ورواه الصدوق في الغنية في حديث طويل عن النبي (صلى الله عليه وآله) بلفظ آخر . وقد أورد الحر العاملي في كتابه المعروف " وسائل الشيعة " مجموعة من الأحاديث في الجزء ١٨ ، الباب ١٣ ، من أبواب صفات القاضي ، منها الحديث القدسي : " ما آمن بي من فسر كلامي برأيه " الحديث ٢٨ ، و " من فسر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب " الحديث ٣٧ ، و " من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر وإن أخطأ فقد خر أبعد من السماء " الحديث ٦٦ . وأحاديث عديدة أخرى .

إضافة إلى عدد كبير من الأحاديث الواردة عن المعصوم عليه السلام والمروية عن طرق الفريقين، والتي تدل على هذا المعنى[1].

س٣: ما معنى التفسير بالرأي؟

ج: توجد احتمالات ثلاثة في معنى (التفسير بالرأي) الذي يكون موضوعا لذاك النهي الوارد عن المعصوم عليه السلام في روايات متواترة في مضمونها (بالتواتر الإجمالي) ولا بد من تمحيصها ، وهي :

الأول: أن المراد من التفسير بالرأي هو أن يفسر الإنسان النص القرآني اعتمادا على رأيه وذوقه الشخصي، في مقابل الفهم العام للقرآن المتمثل بالظهور العرفي والذي يعتمد على القرائن السابقة .

وتوضيح ذلك : أن علماء الأصول يذكرون أن ظهور الكلام على نحوين :

أحدهما: (الظهور النوعي): وهو أنْ يكون ظهور الكلام ظهورا قائما لدى العرف العام ويفهمه (نوع الناس) وعامة الناس .

والآخر: (الظهور الشخصي): وهو الفهم الذي يختص به شخص ما من الناس والذي يعتمد عادة على الظروف الذهنية والنفسية والذوقية لذاك الإنسان، حيث تجعله تحت تأثيرات معينة بحيث يفهم من الكلام معنى خاصا لا يفهمه غيره من الناس .

---

[1] – تناول علماء الأصول هذا البحث بشكل مفصل مرتبطا مع موضوع آخر في بحث (حجية الظاهر) . ولعل أفضل من تناول هذا البحث هو استاذنا الشهيد الصدر (قدس سره) من المتأخرين ، كما جاء في تقريراته الـتي كتبها الحجة السيد محمود الهاشمي حفظه الله .

وقد تناولناه هنا مختصرا وبالمقدار الذي يناسب البحث(المؤلف) .

س٤: أي النوعين يُفترض أنْ يعتمده المفسَّر؟

ج: الظهور العام هو المعتمد لفهم وتفسير القرآن الكريم بقرينة العقيدة الصحيحة المأخوذة من القرآن ذاته.

وأمّا الظهور الثاني لفهم للقرآن الكريم وهو الفهم الشخصي له والمعتمد على الظهور الشخصي لدى المفسر هو تفسير للقرآن بالرأي وهو التفسير المنهي عنه، مثل تفسير المتصوفة أو بعض أصحاب العقائد الفاسدة الذين لهم ذهنيات ومصطلحات خاصة تكونت ضمن ثقافتهم، ويفسرون القرآن على أساس تلك التصورات والمصطلحات.

وهذا النحو من التفسير يختلف تماما عن فهم القرآن وتفسيره اعتمادا على الخلفية الذهنية والعقائدية الصحيحة للمفسر، لان هذا التفسير تفسير معتمد على رأي شخصي ووفق ظروف الشخص وأوضاعه.

الثاني: أن يكون النهي الوارد على لسان الرسولﷺ عن التفسير بالرأي هو معالجة لظاهرة برزت في زمن الرسولﷺ في تفسير القرآن وبشكل محدد، ثم تطورت وبشكل واسع حتى تكونت على أساسها مدارس في المجتمع الإسلامي.

حيث ورد النهي آنذاك عن البحث في تفسير الآيات العقائدية أو التأريخية تأثرا بالديانات السابقة، وفلسفاتها وتأريخها كاليهودية والنصرانية والبوذية وغيرها، الأمر الذي أدى إلى ابتعاد بعض المسلمين عن المفاهيم القرآنية.

ونتيجة لذلك، فقد حاول بعض المسلمين الأوائل أنْ يفرضوا مثل هذه الآراء على القرآن، ويفسروا بها على خلاف مضمونه ومعناه الصحيح، متأثرين في ذلك بالمتبنيات الذهنية والفكرية والعقائدية المسبقة على القرآن: ﴿... وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ

مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ. . . ﴾ [1]. ﴿. . . يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ. . . ﴾ [2]. ولا شك أن هذا النوع من التفسير يختلف عن تفسير القرآن على أساس العقائد المستنبطة من القرآن نفسه .

الثالث: وهو المعنى الذي ينسجم مع معنى (الرأي) في (مدرسة الرأي) في الفقه الإسلامي ، ففي الفقه الإسلامي يوجد اتجاهان في (الاستنباط) :

أحدهما: الاتجاه الذي يعتمد في الاستنباط وفهم الحكم الشرعي على القرآن وسنة المعصوم عليه السلام باعتبارهما المصدرين الأساسيين، واليهما يرجع (العقل) و (الإجماع) أيضا .

والآخر: اعتماد الفقيه في استنباط الحكم الشرعي – إذا لم يجد نصا يدل عليه في الكتاب والسنة – على (الاجتهاد) و (الرأي) بدلا من النص ، و (الاجتهاد) هنا يعني الرأي الشخصي للفقيه، مثل القياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها وحينئذ يكون (الاجتهاد) دليلا من أدلة الفقه ومصدرا من مصادره، إضافة إلى الكتاب والسنة .

س٥: هل تبنى هذا الرأي بعض المدارس ؟

ج: نادت بهذا المعنى للاجتهاد مدارس كبيرة في الفقه السني، وقامت منذ أواسط القرن الثاني مدرسة فقهية كبيرة كانت تحمل اسم مدرسة (الرأي والاجتهاد) حيث إنه لم يصح لدى أبي حنيفة صاحب هذه الدروس إلا عدد محدود من الأحاديث قيل : إنها دون العشرين .

[1]- البقرة: ٧٥.

[2]- المائدة:١٣.

س٦: ما موقف الأئمة عليهم السلام تجاه هذه المدرسة؟

ج: انتقد الأئمة عليهم السلام هذه المدرسة واتجاهها انتقادا شديدا، وقد يُشِّكل هذا الانتقاد الشديد للأئمة عليهم السلام قرينة على أن المراد من (التفسير بالرأي) المنهي عنه هو (الرأي) في هذه المدرسة باعتبار أنها تشكل اتجاها خطيرا في الفكر الإسلامي، لا من ناحية النتائج التي انتهت إليها فقهيا فقط، وإنما باعتبار الاتجاه والطريق الخاطئ الذي انتهجته في عملية الاستنباط والمعتمد بالأساس على القياس والاستحسان والمصالح المرسلة، وما أشبه ذلك من قضايا مرجعها إلى الرأي، والتي تنتهي في نهاية المطاف إلى انحراف خطير في فهم القرآن والسنة وعلى هذا الأساس كان النقد الذي وجهه أهل البيت إلى هذا الاتجاه أكبر من نقد المذاهب الفقهية الأخرى، والتي لم تلتزم بهذا الطريق الخطير في عملية الاستنباط وان كانت نتائجها غير صحيحة أيضا .

وحينئذ قد يراد من التفسير بالرأي هذا النوع من الرأي هو الاعتماد في فهم المضامين القرآنية على الذوق والاستحسان فيرى أن هذا النوع من المضمون هو الأقرب إلى النفس أكثر من غيره .

وفرق هذا الرأي عن الرأي الأول، هو أن الحالة الذاتية كان لها دور في فهم (تفسير اللفظ) في الرأي الأول ، بينما كان لها دور في فهم و (تفسير المعنى ، وتشخيص المصداق) بناء على هذا الرأي .

وعلى هذا الأساس نجد أن الكثير من المفسرين وقع في خطأ حينما فسروا بعض مفاهيم القرآن، متأثرين بكثير من القضايا الغربية التي أنشأت في أنفسهم استحسانات معينة، ففسروا آية الشورى مثلا تفسيرا يجعل مفهوم الشورى في

الإسلام مفهوما مطابقا لمفهوم (الديمقراطية) أو الانتخابات البرلمانية الغربية ، وهكذا .

إن هذا النوع من الاستحسان والقياس والاعتماد على الجانب الشخصي في تفسير (المعنى) هو في الواقع من تفسير القرآن بالرأي ، ومن ثم يكون واقعا في طريق النهي الوارد بخصوص التفسير بالرأي . وهذا الاحتمال الثالث لا يكون متضاربا مع ما ذكرناه من صحة تفسير القرآن اعتمادا على الخلفية العقائدية الصحيحة ، لان هذه العملية ليست عملية استحسان وقياس، وإنما هي تصورات عقائدية مأخوذة من القرآن الكريم ومفاهيمه .

وقد حاول بعض المفسرين: أنْ يعطي لقضية (التفسير بالرأي) ومفهوم (الرأي) دائرة أوسع، بحيث تشمل كل جهد يمارسه الإنسان الباحث والمفسر العالم في فهمه للقرآن الكريم، ويفترض بأن هذه النتائج هي (رأي)، لأنه انتهى إليه من خلال جهده ونظره ومن ثم يكون مصداقا لذلك الحديث: " من فسر القرآن برأيه فقد هوى " . وبهذه الطريقة يحاول هذا (البعض) أن يعطل البحث في القرآن الكريم وتفسيره ، ويقول بأن الشيء الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في تفسير القرآن الكريم إنما هو النصوص الواردة عن المعصومين عليهم السلام. وقد أكد هذا الاتجاه بعض النصوص المروية عن أهل البيت والتي حاول أن يفهمها أصحاب هذا الاتجاه على أنها تمنع من ممارسة التفسير ما لم يعتمد على النصوص الواردة عن المعصومين ولعل من الآثار التي تركها وجود هذا النوع من التفكير في مدرسة أهل البيت عليهم السلام هو: عدم تطور حركة التفسير في هذه المدرسة تطورا يناسب التطورات المهمة في المجالات الأخرى لهذه المدرسة المعطاءة ذات المستوى العالي ، والذي يمكن ملاحظته من خلال ما وصلتْ إليه بحوث علم

الفقه والحديث والأصول والكلام فيها بل بقي التفسير فيها مواكبا للحركة العامة للتفسير لدى المسلمين .

إلا أن هذا الفهم للتفسير بالرأي فهم خاطئ: وهناك مجموعة من الأدلة والبراهين تشير إلى عدم صحته ، كما أن هناك طريقين يمكن إتباعهما لإثبات ذلك وهما :

أولا: البحث في الروايات والنصوص الواردة في موضوع التفسير بالرأي تفصيلا ، حيث نتوصل من خلال ذلك إلى أن ما ذكر فيها لا ينطبق على هذا المفهوم الواسع المذكور للتفسير بالرأي.

ثانيا: إن يتم من خلال الرجوع إلى مجموعة القرائن والأدلة والشواهد الموجودة في الكتاب والسنة الشريفة ، مما لا يمكن أنْ ينسجم مع افتراض أن يكون (الرأي) المقصود بهذه الروايات هو هذا المعنى (الواسع) الشامل لحالة الجهد الشخصي الذي يتخذ مسيرا صحيحا ، وينتهي إلى رأي تفسيري معين ، حتى وإن لم يكن هذا التفسير مرتبطا بالرواية عن المعصومين عليهم السلام ، ومن هذه القرائن والأدلة ما يلي :

الدليل الأول : ما ورد من الآيات القرآنية المؤكدة : أن القرآن الكريم قد نزل بلسان عربي مبين ، وأنه نور وهدى للعالمين ، وأنه فيه تبيان كل شيء:

× كقوله تعالى : ﴿... لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [1] .

× وقوله تعالى: ﴿... قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [2] .

[1]- النحل: ١٠٣.

[2]- المائدة: ١٥.

× وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]. وغيرها من الآيات.

فإنّ هذه الآيات وآيات كثيرة وإن جاءت بأساليب ومضامين متعددة ، كلها تصب في مصب واحد، هو : أن القرآن الكريم وبحسب طبيعته يمكن أنْ يتفاعل معه الإنسان العادي ، ويشكل القرآن حينئذ مصدر الهداية ويكون تبيانا لكل شيء ، مما يدل على إمكانية فهم الكثير من المضامين والمعاني والهداية والنور الموجود فيه ، وبشكل مباشر، ولا يكون هذا الفهم من التفسير بالرأي حتى إذا كان بدون الاستناد إلى رواية أو حديث معين، وإنما نتيجة لجهد الإنسان الشخصي من خلال مراجعته لمجموعة المعلومات والقرائن المتوفرة عنده . وتأكيد القرآن : أنه﴿لسان عربي مبين﴾ يؤكد هذه الحقيقة ، إذ إن هذه الإبانة لا يمكن ان تفترض في كتاب لا يمكن فهمه إلا بالرجوع إلى الروايات الموجودة في كتب الحديث ، لان الإبانة حينئذ لا تكون – في الواقع – إبانة للقرآن الكريم ، بل للأحاديث وهي التي ستكون (المبين)، وهذا هو خلاف الافتراض في أن القرآن بنفسه فيه حالة الإبانة والتوضيح والهداية . خصوصا وأن هذه الإبانة أحيانا تنسب إلى النص القرآني من قبيل قوله تعالى:﴿ لسان عربي﴾ واللسان يعبر عن حالة النص والجانب المرتبط باللفظ لا الجانب المرتبط بالمضمون ولذا فلا مجال لادعاء أن هذا المضمون القرآني لا نفهمه إلا من خلال الروايات عن الأئمة عليهم السلام، وحينئذ يكون مبينا بعد فهمه من خلال الروايات .

---

[1] – الشورى: ٥٢.

الدليل الثاني: وهو ما ورد في آيات الحث على التدبر والتأمل، وفهم القرآن وأخذ معانيه والاهتداء بهديه.

× كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [١].

× وقوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[٢]

× وقوله تعالى: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾[٣]. إنّ هذه الآيات تختلف عن تلك الآيات التي تشير إلى وجود النور والهدى في القرآن الكريم لاحتوائها على أمر المسلمين بالتدبر والتفكر في معاني ومفاهيم القرآن . ومثل هذه الأوامر تكون أوامر لا فائدة منها لو فرضنا بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يفهم مباشرة، إلا بالاستعانة بالروايات والأحاديث الشريفة ، خصوصا وأن هذه الروايات لم تأت إلا في عصور متأخرة .

الدليل الثالث: هي الروايات المتواترة عن الأئمة عليهم السلام والتي وردت في طلب عرض أخبارهم ، وكذلك الشروط التي تشترط في (العقود) و (المعاملات) على القرآن، من أجل التعرف على أن مضمون هذا الشرط أو الخبر هل هو منسجم مع الشريعة أم لا ؟

×فعن الإمام الصادق عليه السلام: ((ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف)) [٤].

---

[1] – محمد: ٢٤.

[2] – ص: ٢٩.

[3] – النساء: ٨٢.

[4] – وسائل الشيعة ١٨،ص٧٨،ب٩.

×وعنه عليه السلام : ((الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة، إن على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نورا ، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه)) [1].

× وقوله عليه السلام: ((وكل شرط خالف كتاب الله فهو رد)) [2].

×وقوله عليه السلام: ((فإذا كان شرط يخالف كتاب الله فهو رد إلى كتاب الله عز وجل))[3]. بحيث جعلوا عليهم السلام القرآن الكريم ميزانا وفرقانا لمعرفة الشرط الصحيح من غيره والأخبار الصحيحة (مضمونا) من غيرها . وهذا لا يمكن أن يتم إلا بافتراض إمكانية فهم النص القرآني والتفاعل معه بشكل مباشر ، وافتراض صحة هذا التعامل والنتائج التي يتوصل إليها حتى وإن احتيج في هذا إلى إعمال نظر وبذل وجهد ، كما أن في هذا الأمر دلالة على أن الروايات نفسها تحتاج إلى أن يؤيد النص القرآني مضامينها ، فكيف يمكن حصر طريق فهم النص القرآني بها فقط؟! وهذا الأمر من الأمور الواضحة جدا عند مدرسة أهل البيت عليهم السلام بل عند المسلمين جميعا .

والدليل الرابع: هو السيرة الواضحة والمتواترة للأئمة عليهم السلام في تعليمهم المسلمين في أن يأخذوا من القرآن الكريم مباشرة . فقد ورد في كثير من أحاديث الأئمة عليهم السلام استشهادهم على الأحكام التي يصدرونها بآية قرآنية ، مما يدل على إمكانية فهم هذا الحكم وبشكل مباشر من الآية القرآنية ، إذ لو كان النص

[1] – المصدر السابق.

[2] – المصدر السابق.

[3] – المصدر السابق: ١٦٥،الباب ٤، من أبواب الصلح،ح١.

القرآني مغلقا لما كان لهذا الاستشهاد معنى، ولكان على الإمام عليه السلام أنْ يقول : أنا أفهم من الآية هكذا . . .

×فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام مثلا: ″ يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عز وجل ﴿... وما جعل عليكم في الدين من حرج...﴾ [1] . فقد استشهد الإمام عليه السلام بهذه الآية في مقام استنباط حكم شرعي من قاعدة كلية وهي قاعدة (لا حرج). وقد علم الإمام عليه السلام السائل كيف يستنبط هذا (الحكم) من تلك (القاعدة) الكلية . وهذا معناه أن الآية المباركة : ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ يمكن أن يفهمها هذا الإنسان وبشكل مباشر ، مما يدل على صحة فهم المعنى من النص القرآني مباشرة ، وان اعتمد على جهد الباحث .

وخلاصة القول: أن (التفسير بالرأي) المنهي عنه قد يشتمل على أحد الاحتمالات الثلاثة المذكورة سابقا، وليس لهذا علاقة بقضية التدبر في القرآن وفهم معانيه ، والتي تؤدي بالإنسان إلى الهداية والى الصراط المستقيم، الأمر الذي أمر القرآن الكريم نفسه بهذا التدبر، كما قرأناه في الآيات السابقة .

المُفسِّر [2]:

س١: ما هي الشروط الواجب توفرها في المُفَسِّر؟ إذ التفسير بوصفه علما تتوقف ممارسته على شروط كثيرة لا يمكن بدونها أنْ ينجح البحث في القرآن ويوفق المفسر في مهمته؟

ج: ويمكن أنْ نلخص تلك الشروط في الأمور الأربعة التالية :

---

[1] – وسائل الشيعة،ج١،ص٣٢٧،ب٣٩ من أبواب الطهارة،ح٥.

[2] – كتبه الشهيد الصدر (قدس سره).

١- يجب على المُفسِّر أن يدرس القرآن ويفسره بذهنية (إسلامية) أي : ضمن الإطار الإسلامي للتفكير، فيقيم بحوثه دائما على أساس أن القرآن كتاب الهي، انزل للهداية وبناء الإنسانية بأفضل طريقة ممكنة، ولا يخضع للعوامل والظروف والمؤثرات التي يخضع لها النتاج البشري في مختلف حقول المعرفة الإنسانية، فإنّ هذا الأساس هو الأساس الوحيد لإمكان فهم القرآن وتفسير ظواهره بطريقة صحيحة وأما حين يستعمل المفسر في دراسة القرآن نفس المقاييس التي يدرس في ضوئها أي كتاب دعوى أخرى أو أي نتاج بشري ، فهو يقع نتيجة لذلك في أخطاء كبيرة واستنتاجات خاطئة، كما يتفق ذلك لبحوث المستشرقين الذين يدرسون القرآن في ضوء نفس المقاييس التي يدرسون بها أي ظاهرة من ظواهر المجتمع التي تنشأ فيه وترتبط بمؤثراته وعوامله وتتكيف بموجبها . وهذا الشرط تفرضه طبيعة الموقف العلمي، لان المفهوم الذي يكونه المفسر عن القرآن ككل يشكل القاعدة الأساسية لفهم تفصيلاته ، ودرس مختلف جوانبه ، فلا بد أن يبنى التفسير على قاعدة سليمة ومفهوم صحيح عن القرآن، يتفق مع الإطار الإسلامي للتفكير ، لكي يتجه اتجاها صحيحا في الشرح والتحليل، وأما إذا أقيم التفسير على أساس تقييم خاطئ للقرآن ومفهوم غير صحيح عنه، فسوف ينعكس انحراف القاعدة على التفصيلات ، ويفرض على اتجاه البحث انحرافا في التحليل والاستنتاج .

وفيما يلي نذكر بعض الأمثلة التي يتجلى فيها مدى الفرق في الاتجاه بين دراسة القرآن بوصفه كتابا إلهيا للهداية، ودراسته بوصفه ظاهرة في مجتمع تتأثر به وتتفاعل مع عوامله ومؤثراته وكيف تنعكس القاعدة التي يقام على أساسها التفسير في التفصيلات وطريقة التحليل والاستنتاج ؟

أ- ففي إقرار القرآن لعدد من الأعراف وألوان من السلوك التي كانت سائدة بين العرب قبل بزوغ نور الرسالة الجديدة، قد يخيل لمن ينطلق من قاعدة خاطئة ويحاول أن يفسر القرآن بمقاييس غيره من منتجات الأرض أن ذلك الإقرار يعبر عن تأثر القرآن بالمجتمع الذي وجد فيه، ولكن هذا التفسير لا معنى له حين ننطلق من القاعدة الصحيحة ، ونفهم القرآن الكريم بوصفه كتابا إلهيا للهداية وبناء الإنسانية بالصورة التي تعيد إليها فطرتها النقية، وتوجهها نحو أهدافها الحقيقية الكبرى. بل نستطيع على أساس هذه القاعدة الصحيحة أنْ نفهم ذلك الإقرار من القرآن فهما صحيحا، إذ ليس من الضروري لكتاب هداية من هذا القبيل أنْ يشجب كل الوضع الذي كانت الإنسانية عليه قبله، لان الإنسانية مهما تفسد وتنحرف عن طريق الفطرة والأهداف الحقيقية الكبرى فهي لا تفسد كلها ، بل تبقى في العادة جوانب صالحة في حياة الإنسانية تمثل فطرة الإنسان أو تجاربه الخيرة ، فمن الطبيعي للقرآن أنْ يقر بعض الجوانب ويشجب أكثر الجوانب في عملية التغيير العظيم التي مارسها ، وحتى هذا الذي أقره وضعه في إطاره الخاص وربطه بأصوله وقطع صلته بالجاهلية وجذورها .

ب- وفي تدرج القرآن الكريم في التشريع ، قد يخيل لمن ينطلق من القاعدة الخاطئة التي تقول ببشرية القرآن يرتبط بطبيعة عملية البناء التي يمارسها القرآن، لان القرآن لم ينزل ليكون كتابا علميا يدرسه العلماء، وإنما نزل لتغيير الإنسانية وبنائها من جديد على أفضل الأسس ، وعملية التغيير تتطلب التدرج .

ج- وفي القرآن الكريم نجد كثيرا من التشريعات والمفاهيم الحضارية التي كانت متبناة من قبل الشرائع السماوية الأخرى كاليهودية والنصرانية. وقد يخيل لمن

يدرس القرآن على أساس القاعدة الخاطئة بأن القرآن قد تأثر وانفعل في ذلك بهذه الأديان، فانعكس هذا الانفصال ومن ثم على القرآن نفسه .

ولكن الواقع - وعلى أساس المفهوم الصحيح - أن القرآن يمثل الإسلام الذي هو امتداد لرسالات السماء وخاتمها، ومن الطبيعي أنْ تشتمل الرسالة الخاتمة على الكثير مما احتوته الرسالات السماوية السابقة ، وتنسخ الجوانب التي لا تتلاءم مع التطورات النفسية والفكرية والاجتماعية للمرحلة التي وصل إليها الإنسان بشكل عام ، لان مصدر الرسالات هذه كلها واحد وهو الله سبحانه . خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار إيمان الإسلام بهذه الوحدة في مصدر الرسالات وتأكيده إياها .

٢- وبعد سلامة القاعدة الأساسية في فهم القرآن وتقييمه يجب أنْ يتوفر في المفسِّر مستوى رفيع من الاطلاع على اللغة العربية ونظامها، لانّ القرآن جاء وفق هذا النظام، فإذا لم تكن لدينا صورة عن النظام العام للغة العربية لا نستطيع أن نستوعب معاني القرآن، فيحتاج المفسر إلى الاطلاع على علم النحو، والصرف، والمعاني والبيان، وغيرها من العلوم العربية، والقدر اللازم توفره من هذا الشرط يختلف باختلاف الجوانب التي يريد المفسر معالجتها من القرآن الكريم، فحين يريد أنْ يدرس فقه القرآن مثلا، لا يحتاج التعمق في أسرار اللغة العربية بالدرجة التي يحتاجها المفسِّر إذا أراد أن يدرس الفن القصصي في القرآن، أو المجاز في القرآن مثلا .

٣- ولا بد للمفسِّر أن يحاول إلى أكبر درجة ممكنة الاندماج كليا في القرآن عند تفسيره ، ونقصد بالاندماج في القرآن أن يدرس النص القرآني ويستوحي معناه دون تقييد مسبق باتجاه معين غير مستوحى من القرآن نفسه ، كما يصنع كثير من أصحاب المذاهب الذين يحاولون في تفسيرهم إخضاع النص القرآني لعقائدهم ،

فلا يدرسون النص ليكتشفوا اتجاهه بل يفرضون عليه اتجاههم المذهبي، ويحاولون فهمه دائما ضمن إطارهم العقائدي الخاص، وهذا ليس تفسيرا وإنما هو محاولة توجيه للمذهب وتوفيق بينه وبين النص القرآني، ولهذا كان من أهم الشروط في المفسر أنْ يكون على درجة من التحرر الفكري تتيح له الاندماج بالقرآن ، وجعله قاعدة لتكوين أي إطار مذهبي بدلا من جعل الاتجاه المذهبي المحدد قاعدة لفهم القرآن .

٤- وأخيرا لا بد للمفسِّر من منهج عام للتفسير، يحدد فيه عن اجتهاد علمي طريقته في التفسير، ووسائل الإثبات التي يستعملها ، ومدى اعتماده على ظهور اللفظ وعلى نصوص السنة، وعلى إخبار الآحاد، وعلى القرائن العقلية في تفسير النص القرآني لان في كل واحد من هذه الأمور خلافا علميا، ووجهات نظر عديدة ، فلا يمكن ممارسة التفسير دون أن تدرس تلك الخلافات درسا دقيقا، والخروج من هذه الدراسة بوجهات نظر معينة تؤلف المنهج العام للمفسر، الذي يسير عليه تفسيره . ولما كانت تلك الخلافات تتصل بجوانب من الأصول والكلام والرجال وغيرها كان لزاما على المفسِّر لدى وضعه للمنهج، ودراسته لتلك الخلافات أنْ يكون ملما إلماما كافيا بتلك العلوم .

الدرس الرابع عشر

التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي

س١: هل المنـهج التفسيري عند المفسرين من نوعٍ واحد ؟

ج: لا بل مختلف ومتفاوت، فإذا لاحظنا الدراسات التفسيرية منذ العصور الإسلامية الأولى نجد بينها اختلافا كثيرا في الانطباعات، وتفاوتا كبيرا بالموضوعات ذات العلاقة في البحوث القرآنية على أنحاء مختلفة، ومنها:

١- حيث نرى بعض المفسرين يتجه إلى تأكيد الجوانب اللغوية واللفظية في النص القرآني.

٢- وبعضهم الآخر يتجه إلى تأكيد الجانب التشريعي والفقهي من القرآن.

٣- وبعض آخر يتجه إلى تأكيد الجانب العقيدي.

٤- وبعض آخر يتجه إلى تأكيد الجانب الأخلاقي.

٥- وبعض آخر الجانب العلمي التجريبي .

٦- وبعض آخر الجانب العرفاني منه.

٧- وبعض آخر الجانب القصصي .

وكل واحد من هذه البحوث، يحتاج إلى منهج خاص به، يتعامل معه.

س٢: توجد طريقتان في تفسير القرآن الكريم ، أذكرهما؟

ج: **الأولى: التفسير التجزيئي (الترتيبي)** : حيث اعتادَ المفسرون على أن ينهجوا في البحث طريقة تفسير الآيات القرآنية بحسب تسلسل عرضها في القرآن الكريم ، وتنتهي مهمة تفسيرها عند تحديد معنى الآية موضوع البحث مع ملاحظة بعض ظروف السياق أو بعض الآيات الأخرى المشتركة معها في نفس الموضوع.

نعم نلاحظ إنّ مجموعة من الآيات اهتم المفسرون بها بشكل خاص لوجود قاسم مشترك بينها، كآيات الأحكام، أو القصص القرآني، أو الآيات الناسخة،

والمنسوخة أو غيرها، ولكن لم تدرس كموضوع مستقل بل باعتبار وجود الجامع والخصوصية المشتركة .

الثانية: التفسير الموضوعي: وحصل ذلك في وقت متأخر من تأريخ علم التفسير أخذت تنمو بوادر منهج جديد في التفسير أو البحث القرآني ، يقوم على أساس محاولة استكشاف النظرية القرآنية في جميع المجالات : العقيدية والفكرية والثقافية والتشريعية والسلوكية من خلال عرضها في مواضعها المختلفة من القرآن الكريم . فحين نريد أن نعرف رأي القرآن الكريم في (الإلوهية) يستعرض هذا المنهج الجديد الآيات التي جاءت تتحدث عن هذا الموضوع في مختلف المجالات وفي جميع المواضع القرآنية، سواء في ذلك ما يتعلق بأصل وجود الإله أو بصفاته وحدوده ، ومن خلال هذا العرض العام والمقارنة بين الآيات وحدودها نستكشف النظرية القرآنية في (الإله) .

ونظير هذا الموقف يتخذه في كل المفاهيم والنظريات أو بعض الظواهر القرآنية ، فيبحث عن (الأسرة) أو (التقوى) أو (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أو (المجتمع) أو (الجهاد) أو (فواتح السور) أو (القصص القرآني) أو (الإنسان) أو غير ذلك من الموضوعات القرآنية . وقد يقتصر البحث على مقطع قرآني واحد لان القرآن لم يعرض لموضوع البحث إلا في هذا المقطع ، ومع ذلك نجد هذا الاختلاف بين المنهج الجديد والمنهج السابق في دراسة هذا المقطع الواحد ، حيث تكون مهمة المنهج الجديد استخلاص الفكرة والنظرية من خلال هذا المقطع دون المنهج السابق.

فالتفسير الموضوعي - إذن - يقوم على أساس دراسة موضوعات معينة تعرض لها القرآن الكريم في مواضع متعددة أو في موضع واحد، وذلك من أجل تحديد النظرية القرآنية بملامحها وحدودها في الموضوع المعين.

س٣: وضّح معنى منهج التفسير الموضوعي ؟

ج: لابد أولاً أن نفهم مصطلح الموضوعية، فقد ذكر ثلاثة معان لمصطلح الموضوعية :

أولا: (الموضوعية) في مقابل (الذاتية) و (التحيز) : وهي عبارة عن الأمانة والاستقامة في البحث، والتمسك بالأساليب العلمية المعتمدة على الحقائق الواقعية في نفس الأمر والواقع ، دون أن يتأثر الباحث بأحاسيسه ومتبنياته الذاتية ولا أن يكون متحيزا في الأحكام والنتائج التي يتوصل إليها .

وهذه (الموضوعية) أمر صحيح ومفترض في كلا المنهجين (التجزيئي و الموضوعي) ولا اختصاص لأحدهما بها .

ثانيا: (الموضوعية) بمعنى أن يبدأ في البحث من (الموضوع) ، الذي هو (الواقع الخارجي) ويعود إلى (القرآن الكريم) [1] لمعرفة الموقف تجاه الموضوع الخارجي "فيركز المفسر في منهج التفسير الموضوعي نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل ، وما قدمه الفكر الإنساني من حلول وما طرحه التطبيق التأريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ ، ثم يأخذ النص القرآني . . .

[1] -المدرسة القرآنية، للشهيد الصدر، ص٢٩.

ويبدأ معه حوارا ، فالمفسِّر يسأل والقرآن يجيب . . . وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح . . . "[1].

س٤ : ماذا يُسمى هذا المنهج؟ ولماذا؟ وما المقصود منه؟

ج: وقد سمى هذا المنهج أيضا بالمنهج (التوحيدي) " باعتبار أنه يوحد بين (التجربة البشرية) و(القرآن الكريم) لا بمعنى أنه يحمل التجربة البشرية على القرآن بل بمعنى أنه يوحد بينهما في سياق بحث واحد لكي يستخرج نتيجة هذا السياق ...المفهوم القرآني الذي يمكن أن يحدد موقف الإسلام تجاه هذه التجربة أو المقولة الفكرية " .

ثالثا: وقد يراد من (الموضوعية) ما ينسب إلى الموضوع ، حيث يختار المفسِّر موضوعا معينا ثم يجمع الآيات التي تشترك في ذلك الموضوع فيفسرها ، ويحاول استخلاص نظرية قرآنية منها فيما يخص ذلك الموضوع . ويمكن أن يسمى مثل هذا المنهج منهجا توحيديا أيضا " باعتبار انه يوحد بين هذه الآيات ضمن مركب نظري واحد ".

ولا شك أن المعنى الأول ليس موضوع البحث، إذ لا يختلف التفسير الموضوعي عن التفسير التجزيئي في ضرورة توفر هذا الوصف فيه، ويبقى عندنا المعنى الثاني والثالث .

س٥ : وضّح حاجة العصر إلى التفسير الموضوعي ؟

ج: لقد عرف الإسلام في أنظمته وتشريعاته طريقه إلى المجتمع في بداية الأمر من خلال التطبيق، وذلك لان الجانب الاجتماعي من الإسلام لم يطرحه الرسول

---

[1] – المصدر نفسه: ص١٩.

الأعظم ﷺ كنظريات عامة ومبادئ دستورية عن المجتمع وعلاقاته المختلفة، ثم جاء التشريع والتقنين بناء فوقيا لها ليشمل جميع مناحي الحياة، وإنما طرحه الرسول الأعظم ﷺ في كثير من الأحيان من خلال التقنين والتشريع وبيان الأحكام المختلفة في قضايا المجتمع التفصيلية .

ومن هنا لا نجد البحث الموضوعي النظري يدخل في الشريعة الإسلامية إلا في العصور المتأخرة من تأريخ المسلمين، لانّ المجتمع الإسلامي كان يباشر التطبيق للقانون الإسلامي على أساس أنه تشريع وأحكام من قبل الله سبحانه لا بد من الالتزام بها ضمن نطاقها المعين وفي حدودها الخاصة، بلا حاجة إلى معرفة النظرية التي يقوم عليها الحكم الشرعي ، وكيفية معالجتها لمشاكل الحياة الاجتماعية ويكاد يختص هذا الأمر بالشريعة فقط دون الجانب العقيدي للإسلام، فإنه كان ولا يزال مجالا للبحث النظري بسبب أن جانب التطبيق فيه هو فهم النظرية والإيمان بها، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ فأنه طرح في العقيدة النظرية الإسلامية بشكلها العام .

وحين انحسر الإسلام عن التطبيق في مجتمع المسلمين وواجه النظريات المذهبية المختلفة ظهرت الحاجة الملحة إلى البحث الموضوعي القرآني في مختلف المجالات، لان الإسلام أصبح بحاجة إلى أن يعرض كـ)نظرية) مذهبية جاء بها الرسول محمد ﷺ عن طريق الوحي، وذلك من أجل مواجهة النظريات المذهبية الأخرى ، ومن أجل أن يتضح مدى صلاحيته لمعالجة مشاكل الحياة المعاصرة وصلته بتلك النظريات المذهبية ، كما أن فهم الإسلام كـ (نظرية) عامة هو الذي ييسر لنا سبيل أنْ نتبناه نظاما للحياة ، ندافع عنه ونكافح من أجل تطبيقه وصيانته .

فالحاجة إلى التفسير الموضوعي في هذا العصر تنبع - في الحقيقة - من الحاجة إلى عرض الإسلام ومفاهيم القرآن عرضا نظريا، يتكفل الأساس الذي تنبثق منه جميع التفصيلات والتشريعات الأخرى، حيث من الممكن أن نستكشف النظريات العامة من خلال التشريع والقانون الإسلامي لوجود الارتباط الوثيق بين النظرية والتطبيق[1].

س٦: إذكر الموضوعات التي عرض لها القرآن إجمالا وبيّن طريقته في هذا العرض ؟

ج: لقد عرض القرآن الكريم إلى موضوعات كثيرة ، حيث تناول في ما تعرض له أكثر الجوانب الفكرية والثقافية المرتبطة بالحياة والكون والمجتمع سواء، ما يتعلق منها بالعقيدة أو بالتشريع أو بالأخلاق أو الحكم والعلاقات الاجتماعية أو التأريخ أو غير ذلك من الجوانب الأخرى . وهنا نشير إلى فهرست عام للنقاط الرئيسة التي تناولها القرآن الكريم، علما بأن أكثر هذه النقاط تتفرع إلى نقاط أخرى وموضوعات ثانوية تصلح للبحث الموضوعي والدرس العلمي، وهذه النقاط هي كالتالي :

١- الإلوهية .

٢- أفعال الله.

٣- عالم الغيب.

٤- الإنسان قبل الدنيا.

٥- الإنسان في هذه الدنيا.

---

[1]- أنظر اقتصادنا لأستاذنا السيد محمد باقر الصدر (قدس سره)٢ : ١٦(المؤلف) .

٦- الإنسان بعد هذه الدنيا.

٧- الأخلاق الإنسانية.

٨- التشريع الإسلامي.

٩- الكون والحياة.

١٠- حركة الدعوة الإسلامية .

وتتناول النقطة الأولى : كل المعلومات التي ترتبط بأسماء الله سبحانه وصفاته من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها .

وتتناول النقطة الثانية : كل المعلومات التي ترتبط بالخلق والإرادة والأمر، والمشيئة، والهداية، والإضلال والقضاء والقدر والجبر والتفويض والرضا والسخط والحب وغيرها .

وتتناول النقطة الثالثة: كل المعلومات التي ترتبط بالحجب واللوح والقلم والعرض والكرسي والبيت المعمور والسماء والأرض والملائكة والشياطين والجن ، وغير ذلك .

وتتناول النقطة الرابعة: كل المعلومات التي ترتبط بآدم وكيفية خلقه وخلافته وخلق إبليس وعلاقته بآدم وذريته وحياته في الجنة مع زوجه وغيرها .

وتتناول النقطة الخامسة: كل المعلومات التي ترتبط بتأريخ الإنسان ومزاجه النفسي والروحي والعقلي والقوانين الاجتماعية العامة التي تتحكم في سلوكه وعلاقاته وحركته الاجتماعية والتأريخية ، ومدى صلته بالسماء وأساليب هذه الصلة من النبوة والوحي والإلهام والدين والكتاب والشريعة ، وجميع صفات الأنبياء التي تستنبط من قصصهم .

وتتناول النقطة السادسة: كل المعلومات التي ترتبط بالبرزخ والمعاد والجنة والنار.

وتتناول النقطة السابعة: كل المعلومات التي ترتبط بالقيم والمثل والصفات التي يجب أن يتحلى بها الإنسان والتي ترتفع به في عالم الإنسانية وتوصله إلى الكمال المنشود، وكذلك الأمثال والمواعظ التي لها دور في تربية هذا الإنسان وتكميله وتوجيهه .

وتتناول النقطة الثامنة: كل المعلومات التي ترتبط بالشريعة الإسلامية بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والفردية والتجارية والحربية وغيرها.

وتتناول النقطة التاسعة: كل المعلومات المرتبط بالسماء والأرض والجبال والماء والحيوان والنبات والمطر والرياح ، والعوالم التي تحيط بهذا الإنسان في هذا الكون الواسع .

وتتناول النقطة العاشرة: كل الأحداث التي واجهها النبي والمسلمون ، والمواقف التي اتخذها القرآن الكريم تجاهها ، وكذلك الإثارات والأسئلة والشبهات والمشكلات التي كانت تطرح من قبل أعداء الرسالة أو المسلمين أنفسهم ومعالجتها والتطورات والمراحل التي مرت بهذه الرسالة والقضايا ذات العلاقة ببناء القاعدة الإنسانية الثورية التي حملت أعباء الرسالة بعد ذلك . وقد سلك القرآن الكريم لتبيان هذه الموضوعات منهجا فريدا يكاد يتميز عن سائر مناهج الكتب الدينية الأخرى حيث نرى أنه لا تكاد تمر سورة من القرآن الكريم أو جزء منه إلا وقد تناول الكثير من هذه الموضوعات ، بأسلوب غاية في التناسق والربط والانسجام .

الدرس الخامس عشر

القصص القرآني

(١)

القصص القرآني

س١ : ما الفرق بين أسلوب القصص القرآني وغيره؟

ج: يختلف القصص القرآني عن غيره من القصص في ناحية أساسية هي ناحية الهدف والغرض الذي جاء من أجله ، ذلك أن القرآن الكريم لم يتناول القصة لأنها عمل (فني) مستقل في موضوعه وطريقة التعبير فيه ، كما أنه لم يأت بالقصة من أجل التحدث عن أخبار الماضين وتسجيل حياتهم وشؤونها - كما يفعل المؤرخون - وإنما كان عرض القصة في القرآن الكريم مساهمة في الأساليب العديدة التي سلكها لتحقيق أهدافه وأغراضه الدينية التي جاء الكتاب الكريم من أجلها .

س٢ : ما معنى استخدام القرآن الكريم القصص ؟

ج: القصص القرآني من أهم الأساليب لتحقيق الهدف والغرض الذي جاء من أجله القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم رسالة دينية قبل كل شيء تهدف بصورة أساسية إلى عملية التغيير الاجتماعي بجوانبها المختلفة ، هذه العملية التي وجدنا بعض مظاهرها وآثارها في طريقة نزول القرآن التدريجي وفي طريقة عرض المفاهيم المختلفة ، وفي ربط نزول القرآن بالأحداث والوقائع والأسئلة، وفي أسلوب القرآن في القصر والإيجاز أو المزج بين الصور والمشاهد المتعددة، الأمر الذي أدى إلى نشوء كثير من الدراسات القرآنية، عرفنا منها الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والمكي والمدني وغيرها .

س٣: ما هو الغرض الأساسي من عرض القصص في القرآن الكريم؟

ج: هو المساهمة في عملية التغيير الإنساني بجوانبها المتعددة .

س٤: فما هي الأغراض ذات الأثر الرسالي التي استهدفتها القصة القرآنية ؟

ج: أنّ القصة القرآنية تكاد تستوعب في مضمونها وهدفها جميع الأغراض الرئيسة التي جاء من أجلها القرآن الكريم، ونظرا لكثرة هذه الأغراض تشعبها نجد من المستحسن أن نقتصر في عرضنا لأغراض القصة في القرآن على الأغراض القرآنية المهمة ، لنتعرف – من خلال ذلك – أهمية ذكر القصة في القرآن الكريم والفوائد التي تترتب عليها :

أ- إثبات الوحي والرسالة:

إنّ ما جاء به القرآن الكريم لم يكن من عند محمد ﷺ وإنما هو وحي أوحاه الله تعالى إليه وأنزله هداية للبشرية .

× فقد جاء في سورة يوسف : ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [1].

× وجاء في سورة القصص بعد عرضه لقصة موسى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۞ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [2] .

---

[1] – يوسف: ٣.

[2] – القصص: ٤٤-٤٦.

× وجاء في سورة آل عمران في مبدأ قصة مريم : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1]. وغيرها من الآيات .

فكل هذه الآيات الكريمة وغيرها تشير إلى أن القصة إنما جاءت في القرآن تأكيدا لفكرة الوحي التي هي الفكرة الأساس في الشريعة الإسلامية .

ب – وحدة الدين والعقيدة لجميع الأنبياء :

أكدت القصة أن الدين كله من الله سبحانه وان الأساس للدين الذي جاء به الأنبياء المتعددون هو أساس واحد لا يختلف بين نبي وآخر ، فالدين واحد ومصدر الدين واحد أيضا وجميع الأنبياء أمة واحدة تعبد هذا الإله الواحد وتدعو إليه .

وهذا الغرض من الأهداف الرئيسة للقرآن الكريم حيث يهدف القرآن من جملة ما يهدف إليه إبراز الصلة الوثيقة بين الإسلام الحنيف وسائر الأديان الإلهية الأخرى التي دعا إليها الرسل والأنبياء الآخرون ، ليحتل الإسلام منها مركز الخاتمية التي يجب على الإنسانية أن تنتهي إليها، ويسد الطريق على الزيغ الذي يدعو إلى التمسك بالأديان السابقة على أساس أنها حقيقية موحاة من قبل الله تعالى . كما جاء في سورة الأنبياء:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۞ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ۞وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ

---

[1] – آل عمران: ٤٤.

وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۞ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾
إلى قوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ۞ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ۞ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ۞ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

﴿ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا أنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾ .

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۞ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۞ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ .

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ۞ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ۞ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. ويبدو أن القرآن الكريم يريد أن يشير إلى الغرض الأصيل من هذا الاستعراض لقصص الأنبياء بالآية الخاتمة المعبرة عن هذه الوحدة العميقة الجذور في القدم للأمة المؤمنة بالإله الواحد ، وتأتي بقية الأغراض الأخرى في ثنايا هذا الغرض .

ج – تشابه طرق الدعوة والمجابهة : من أغراض القصة بيان إنّ وسائل الأنبياء وأساليبهم في الدعوة واحدة وطريقة مجابهة قومهم لهم واستقبالهم متشابهة ، وان القوانين والسنن الاجتماعية التي تتحكم في تطور الدعوة وسيرها واحدة أيضا ، فالأنبياء يدعون إلى الإله الواحد ويأمرون بالعدل والإصلاح، والناس يتمسكون بالعادات، والتقاليد البالية، ويصر على ذلك أصحاب المنافع الشخصية والأهواء الخاصة بشكل خاص، والطواغيت والجبابرة منهم بشكل أخص. وتبعا لهذه الأهداف ترد قصص كثيرة من الأنبياء مجتمعة مكررة فيها طريقة الدعوة على نحو ما جاء:

× في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۞ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[1] إلى أن يقول : ﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ

[1] – ٢٥-٢٧.

عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ. . .﴾ والى أنْ يقولوا له : ﴿. . . يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وغيرها من الآيات الشريفة الدالة على نفس الهدف.

د – النصر الإلهي للأنبياء : بيان نصرة الله لأنبيائه وانّ نهاية المعركة تكون في صالحهم مهما لاقوا من العنت والجور والتكذيب – كل ذلك – تثبيتا لرسوله محمد ﷺ وأصحابه وتأثيرا في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان . وقد نص القرآن الكريم على هذا الهدف الخاص أيضا بمثل قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ [1] ﴾. وتبعا لهذا الغرض وردت بعض قصص الأنبياء مؤكدة على هذا الجانب بل جاءت بعض هذه القصص مجتمعة ومختومة بمصارع من كذبوهم وقد يتكرر عرض القصة نتيجة لذلك كما جاء في سورة هود والشعراء والعنكبوت ولنضرب مثلا من سورة العنكبوت :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۞ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

إلى أن يقول : ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

[1] – هود: ١٢٠.

﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾.. إلى أن يقول : ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۞وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وغيرها من الآيات الدالة على وحدة الدعوة وطريقة المجابهة.

ه – **تصديق التبشير والتحذير** : فقد بشر الله سبحانه عباده بالرحمة والمغفرة لمن أطاعه منهم وحذرهم من العذاب الأليم لمن عصاه منهم ، ومن أجل إبراز هذه البشارة والتحذير بصورة حقيقية متمثلة في الخارج عرض القرآن الكريم لبعض الوقائع الخارجية التي تتمثل فيها البشارة والتحذير ، فقد جاء في سورة الحجر التبشير والتحذير أولا ، ثم عرض النماذج الخارجية لذلك ثانيا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ ۞ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِ بْرَاهِيمَ ۞ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۞قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ . . . وفى هذه القصة تبدوا لرحمة والبشارة .

و – **اللطف الإلهي بالأنبياء** : بيان نعمة الله على أنبيائه ورحمته بهم وتفضله عليهم وذلك توكيدا لارتباطهم وصلتهم معه، كبعض قصص سليمان وداود وإبراهيم ومريم وعيسى وزكريا ويونس وموسى . ذلك أن الأنبياء يتعرضون – عادة – إلى مختلف ألوان الآلام والمحن والعذاب، فقد يتوهم السذج والبسطاء من الناس أن ذلك إعراض من الله تعالى عنهم، فيأتي الحديث عن هذه النعم والألطاف الإلهية التي شملتهم تأكيدا لعلاقة الله سبحانه وتعالى بهم، ولذلك نشاهد أن بعض الحلقات من قصص هؤلاء الأنبياء تبرز فيها النعمة في مواقف شتى، ويكون إبرازها هو الغرض الأول منها وما سواه يأتي في هذا الموضوع عرضا.

ز– عداوة الشيطان : بيان غواية الشيطان للإنسان وعداوته الأبدية له وتربصه به الدوائر والفرص وتنبيه بني آدم لهذا الموقف المعين منه، ولا شك أن أبراز هذه المعاني والعلاقات بواسطة القصة يكون واضحا وأدعى للحذر والالتفات، لذا نجد قصة آدم تكرر بأساليب مختلفة تأكيدا لهذا الغرض ، بل يكاد أن يكون هذا الغرض هو الهدف الرئيس لقصة آدم كلها .

ح – **أهداف بعثة الأنبياء** : بيان أن الغايات والأهداف من إرسال الرسل والأنبياء هي من أجل هداية الناس وإرشادهم وحل الاختلافات والحكم بالعدل بينهم ومحاربة الفساد في الأرض ، وفوق ذلك كله هو إقامة الحجة على الناس ، ولذا جاء استعراض قصص الأنبياء بشكل واسع لبيان هذه الحقائق . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الهدف من القصة في عدة مواضع : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ. . . ﴾[1].

﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [2].

ط – **أهداف تربوية أخرى** : وبيان أغراض آخري ترتبط بالتربية الإسلامية وجوانبها المتعددة ، فقد استهدف القرآن بشكل رئيس تربية الإنسان على الإيمان بالغيب وشمول القدرة الإلهية لكل الأشياء ، كالقصص التي تذكر الخوارق والمعاجز كقصة خلق آدم ، ومولد عيسى ، وقصة إبراهيم مع الطير الذي آب إليه بعد أن جعل على كل جبل جزءا منه ، وقصة ﴿ . . . الذي مر على قرية وهي

---

[1] -البقرة: ٢١٣.

[2] -النساء: ١٦٥.

خاوية على عروشها . . .﴾ وإحياء الله له بعد موته مائة عام . كما استهدف تربية الإنسان على فعل الخير والأعمال الصالحة وتجنبه الشر والفساد ، وذلك ببيان العواقب المترتبة على هذه الأفعال ، كقصة النبي آدم وقصة صاحب الجنتين ، وقصص بني إسرائيل بعد عصيانهم ، وقصة سد مأرب ، وقصة أصحاب الأخدود . ومما استهدفه القرآن الكريم في التربية الاستسلام للمشيئة الإلهية والخضوع للحكمة التي أرادها الله سبحانه من وراء العلاقات الكونية والاجتماعية في الحياة ، إلى غيرها مما لا يمكن أحصائها كلها.

ظواهر عامة في القصة القرآنية :

وفي ضوء هذه الأهداف للقصة يحسن بنا أن ندرس ثلاث ظواهر أساسية برزت في مجمل القصة القرآنية :

أ – ظاهرة التكرار في القصة القرآنية .

ب – ظاهرة اختصاص قصص الأنبياء في القرآن بأنبياء منطقة الشرق الأوسط .

ج – ظاهرة تأكيد قصص بعض الأنبياء كإبراهيم وموسى عليهما السلام.

أ – تكرار القصة في القرآن الكريم :

من ظواهر القصة في القرآن الكريم هي ظاهرة تكرار القصة الواحدة في مواضع مختلفة من القرآن ، وقد أثيرت بعض المشاكل حول هذه الظاهرة حيث يقال : إن هذا التكرار قد يشكل نقطة ضعف في القرآن الكريم ، لان القصة بعد أن تذكر في القرآن مرة واحدة تستنفد أغراضها الدينية والتربوية والتأريخية ، وقد أثيرت

هذه المشكلة في زمن متقدم من البحث العلمي ، لذا نجد الإشارة في مفردات الراغب الأصفهاني ، وفى مقدمة تفسير التبيان للشيخ الطوسي.

والطوسي وان كان يبدو أنه لم يعالج المشكلة بشكل رئيس ، ولكنه يدل على الأقل أن المشكلة قد طرحت على صعيد البحث القرآني . ونحن هنا نذكر بعض الوجوه التي يمكن أن تكون تفسيرا لتكرار القصة الواحدة في القرآن الكريم :

الأول: إنّ التكرار إنما يكون بسبب تعدد الغرض الديني الذي يترتب على القصة الواحدة ، وقد عرفنا في بحثنا السابق لأغراض القصة. أن أهداف القصة متعددة فقد تجئ القصة في موضع لأداء غرض معين وتأتي في موضع آخر لأداء غرض آخر وهكذا .

الثاني: أن القرآن الكريم اتخذ من القصة أسلوبا لتأكيد بعض المفاهيم الإسلامية لدى الأمة المسلمة ، وذلك عن طريق ملاحظة الوقائع الخارجية التي كانت تعيشها الأمة وربطها بواقع القصة من حيث وحدة الهدف والمضمون . وهذا الربط بين المفهوم الإسلامي في القصة والواقعة الخارجية المعاشة للمسلمين قد يؤدي إلى فهم خاطئ للمفهوم المراد إعطاؤه للأمة ، فيفهم انحصاره في نطاق الواقعة التي عاشتها القصة وظروفها الخاصة ، فتأتي القصة الواحدة في القرآن الكريم مكررة من أجل تفادي هذا الحصر والتضييق في المفهوم من أجل تأكيد شموله واتساعه لكل الوقائع والأحداث المتشابهة ليتخذ صفة القانون الأخلاقي أو التأريخي الذي ينطبق على كل الوقائع والأحداث . . . إضافة إلى فاعليته كمنبه للأمة على علاقة القضية الخارجية التي تواجهها – في عصر النزول أو بعده – بالمفهوم الإسلامي لتستمد منه روحه ومنهجه . ولعل هذا السبب هو ما يمكن أن نلاحظه في تكرار قصة موسى والفرق بين روحها العامة في القصص المكي

وروحها في القصص المدني ، فإنها تؤكد في القصص المكي منها العلاقة العامة بين موسى من جانب وفرعون وملئه من جانب آخر، دون أن تذكر أوضاع بني إسرائيل تجاه موسى نفسه، إلا في موردين يذكر فيهما انحراف بني إسرائيل عن العقيدة الإلهية بشكل عام، وهذا بخلاف الروح العامة لقصة موسى في السور المدنية فإنها تتحدث عن علاقة موسى مع بني إسرائيل، وتتحدث عن هذه العلاقة وارتباطها بالمشاكل الاجتماعية والسياسية . وهذا قد يدلنا على أن هذا التكرار للقصة في السور المكية إنما كان يعني نزول القصة لمعالجة روحية تتعلق بحوادث مختلفة كانت تواجه النبي والمسلمين ، ومن أهداف هذه المعالجة توسعة نطاق المفهوم العام الذي تعطيه قصة موسى في العلاقة بين النبي والجبارين من قومه أو القوانين التي تحكم هذه العلاقة ، وان هذه العلاقة مع نهايتها لا تختلف فيها حادثة عن حادثة أو موقف عن موقف .

الثالث: إنّ الدعوة الإسلامية مرت بمراحل متعددة في سيرها الطويل ، وقد كان القرآن الكريم يواكب هذه المراحل ويماشيها في عطائه وطبيعة أسلوبه ، وهذا كان يفرض أن تعرض القصة الواحدة بأساليب متفاوتة في الطول والقصر ، نظرا لطبيعة الدعوة وطريقة بيان المفاهيم والعبر فيها ، كما نجد ذلك في قصص الأنبياء حين تعرض في السورة القصيرة المكية ، ثم يتطور العرض بعد ذلك إلى شكل أكثر تفصيلا في السور المكية المتأخرة أو السور المدنية .

الرابع: إنّ تكرار القصة لم يأت في القرآن الكريم بشكل يتطابق فيه نص القصة مع نص آخر لها ، وإنما تختلف الموارد في بعض التفاصيل وطريقة العرض ، وطريقة عرض القصة القرآنية قد تستبطن مفهوما دينيا يختلف عن المفهوم الديني الآخر الذي تستنبطه طريقة عرض أخرى، هذا الأمر الذي نسميه بالسياق

القرآني وهذا يقتضي التكرار أيضا لتحقيق هذا الغرض السياقي الذي يختلف عن الغرض السياقي الآخر لنفس القصة ، وسوف تتضح معالم هذه النقاط بشكل أكثر عند دراستنا التطبيقية التالية لقصة موسى في القرآن الكريم .

ب - اختصاص القصة بأنبياء الشرق الأوسط :

وأما الظاهرة الثانية فمن الملاحظ أنّ القرآن الكريم تحدث عن مجموعة من الأنبياء يشتركون في خصوصية: أنهم يعيشون جميعا في منطقة الشرق الأوسط ، أي المنطقة التي كان يتفاعل معها العرب الذين نزل القرآن في محيطهم ومجتمعهم . وقد تفسر هذه الظاهرة لأول وهلة بأن النبوات لما كانت بالأصل في هذه المنقطة ومن خلالها انتشر الهدى في جميع أنحاء العالم ، حيث كانت البشرية تعيش في البداية بهذه المنطقة ولا يوجد في المناطق الأخرى نبوات وأنبياء، كما قد يفهم ذلك من خلال الاستعراض التأريخي للنبوات وتأريخ الإنسان في التوراة، وحينئذ لا تعني هذه الخصوصية ظاهرة تحتاج إلى تفسير ، بل هي قضية فرضتها الحقيقة التأريخية ويكفي في تفسيرها هذا الواقع التأريخي .

الرسالات الإلهية لا تختص بمنطقة الشرق الأوسط :

ولكن توجد شواهد في القرآن الكريم تنفي هذا التفسير لهذه الظاهرة ، فالقرآن يشير في بعض آياته إلى أن هناك مجموعة أخرى من الأنبياء لم يتحدث عنهم ، مع أن حياتهم لا بد وأنها كانت زاخرة بالأحداث شأنهم في ذلك شأن الأنبياء الآخرين : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ

وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً۞ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [1].

علما بأن سورة النساء من السور المدنية المتأخرة ، ومن هنا فلا مجال لاحتمال أن هذه الآية نزلت في مدة زمنية لم يكن القرآن قد تعرض فيها إلى جميع قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم فعلا . كما أن هناك مجموعة من الآيات تدل على أن الأنبياء والرسل كانوا يبعثون إلى كل قرية ومدينة لإقامة الحجة من الله على الناس ، كما نفهم من الآية (١٦٥) من سورة النساء ، التي جاءت في سياق الآيتين السابقتين : ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾.

إضافة إلى موارد أخرى لها هذه الدلالة : ﴿ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ. . . ﴾ [2].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [3].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [4].

وجاء التعبير في بعض الآيات عن ذلك بوجود الشهيد في كل أمة.

تفسير الاختصاص بالمنطقة المحدودة :

إنّ القرآن الكريم إنما خص هؤلاء الأنبياء بالذكر باعتبار أن الغرض الأساس من القصة – كما ذكرنا – هو انتزاع العبرة واستنباط القوانين والسنن التأريخية منها

---

[1] -النساء: ١٦٣-١٦٤.

[2] – التوبة: ١١٥.

[3] – يونس: ٤٧.

[4] – فاطر: ٢٤.

ولم يكن الغرض من القصة السرد التأريخي لحياة الأنبياء أو كتابة تأريخ الرسالات ولذلك يتحدث القرآن عن الأمور العامة المشتركة بين هؤلاء الأنبياء عدا بعض الموارد التي يكون هناك غرض خاص في طرح بعض القضايا فيها .

ولما كان تأثير القصة في تحقيق هذه الأغراض يرتبط بمدى إيمان الجماعة بواقعيتها ، وإدراكهم لحقائقها ، ومدى انطباق ظروفها على ظروف الجماعة نفسها لذا تكون القصة المنتزعة من تأريخ الأمة نفسها ، ومن واقعها وظروفها وحياتها ، أكثر تأكيدا وانطباقا على السنة التأريخية . وبهذا تكون هذه القصص أكثر انسجاما مع هذا الهدف القرآني ، بلحاظ أن القاعدة التي يريد أن يحقق القرآن الكريم التغيير فيها في المرحلة الأولى هي الشعوب التي تسكن هذه المنطقة ، وتتفاعل مع هذا التأريخ وهذا لا يعني أن القرآن تختص هدايته بهذه الشعوب ، بل إن أحد أغراض القرآن هو إيجاد التغيير في هذه الشعوب كقاعدة ينطلق منها التغيير ويستند إليها في مسيرته إلى بقية الشعوب كما حصل ذلك فعلا . صحيح أنه قد تكون القصة المنتزعة من تأريخ النبوات التي كانت في الهند أو الصين – على فرض وجودها في تلك المناطق وهو فرض منطقي ومقبول جدا – مؤثرة في الشعب الهندي أو الصيني ، إلا أن القرآن الكريم كان مهتما بشكل خاص وفي مرحلة نزوله بتغيير القاعدة التي تتمثل بالشعب العربي والشعوب المتفاعلة معه فعلا في ذلك الوقت ، وضرب الأمثال وسرد القصص عن هذه الأمم ، مع أنها لم تكن موجودة في المحيط الذي نزل فيه القرآن ، يبعد القصة بأكملها عن الواقعية التي كان يحرص القرآن الكريم على تأكيدها في قصصه ، ولم يكن يكتفي منها إنها مجرد أمثال وتصورات ، بل كان يؤكد صدقها . وبلحاظ أن التغيير العام للإنسان الذي كان يستهدفه القرآن أيضا ، أريد له أن يطلق من تلك القاعدة ، وهذه

القصص هي التي يمكن أن تساهم في تحقيقه . وتبقى النتائج العامة المشتركة بين الأنبياء ذات تأثير عام بالنسبة إلى مختلف الشعوب ، فقصة النبي الواحد لها تأثير خاص يرتبط بالوسط الذي تواجد فيه ذلك النبي ، باعتبارها حالة التجسيد المعاش في ذلك الوسط ، وذات التأثير الشعوري والوجداني بالنسبة إلى ذلك الوسط ، وفي الوقت نفسه يكون للقصة تأثير عام ضمن المفاهيم العامة والسنن التأريخية التي توحي بها القصة ، والعبر التي يمكن أن تستلخص منها ، وهذا ما يمكن أن تستفيد منه كل الشعوب . وبذلك يتحقق للقرآن الكريم بعده العام الشامل ويبقى حيا ومؤثرا في هذا الوسط وغيره من الأوساط الانسانية . ولكن يكون للبعد الأول المتمثل في التأثير الخاص أثره في تحقيق الهدف التغييري في خلق القاعدة التي تنطلق منها الرسالة .

نعم من الصحيح أن نقول أيضا : إن أنبياء مثل : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى يمثلون الأصول العامة للنبوات في كل العالم ، وكان خاتمهم النبي محمد ﷺ يمثل امتدادا لتلك النبوات ، ولكن نجد أن القرآن لم يتحدث عن هذه الأصول وتفرعاتها فحسب ، بل تحدث عن أنبياء مثل صالح وشعيب وهود ويونس وإدريس وغيرهم ممن يمثلون نبوات ليست بهذا القدر من الأهمية على الظاهر .

الدرس السادس عشر

القصص القرآني

(٢)

ج ـ ظاهرة تأكيد دور إبراهيم وموسى عليهما السلام:

وأما الظاهرة الثالثة : فمن الملاحظ إنّ القرآن الكريم أكد دور بعض الأنبياء في ذكر تفاصيل حياتهم وظروفهم أكثر من دور بعضهم الآخر وبالخصوص النبي إبراهيم وموسى عليهما السلام مع أن الخصائص العامة التي يراد منها بالأصل استنباط العبرة والموعظة واستخلاص القانون والسنة التأريخية متشابهة ، ولذا تأتي الإشارة إلى قصص مجموعة من الأنبياء في كثير من الموارد في سياق واحد ، فهل يعني هذا التأكيد أهمية شخصية هذا النبي وفضله بالمقارنة مع بقية الأنبياء فقط ؟ أو يمكن أن يكون وراء ذلك – إضافة إلى هذه الأهمية – مقاصد وأهداف أخرى اقتضت هذا اللون من التأكيد ؟ قد يكون في الحقيقة أن بعض هؤلاء الأنبياء أفضل من بعضهم الآخر كما أنه قد يكون هذا (البعض) هو إبراهيم وموسى ، ولكن لا يعني ذلك أن يؤكد القرآن دور هذين النبيين مثلا ، أو غيرهما كعيسى الذي جاء الحديث عنه بنسبة أقل لمجرد فضلهم ، لان القرآن بالأصل ليس بصدد تقييم عمل هؤلاء الأنبياء والحديث عن التفاضل بينهم ، وإنما الأهداف الأصلية للقصة التي أشرنا إليها وذكرها القرآن هي : العبرة والموعظة والتثبيت وإقامة الحجة والبرهان على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومضمون رسالته :

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِين﴾ [1] .

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [2] .

---

[1] – هود: ١٢٠.

[2] – يوسف: ١١١.

﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[1] .

ولذلك يمكن أن نقول بأن القرآن إنما كان يؤكد دور هؤلاء الأنبياء في حديثه عنهم لأنه كان يواجه حقيقة هي : أن لهؤلاء الأنبياء إتباعا وأقواما يرتبطون بهم فعلا في المجتمع الذي كان يتفاعل القرآن معه عند نزوله ، وهذا الأمر كان يفرض - من أجل إيجاد القاعدة التغييرية - أن يتحدث عنهم القرآن بإسهاب .

أهمية تأكيد دور إبراهيم عليه السلام: فالنبي إبراهيم عليه السلام كان يمثل لدى القاعدة (المشركين ، واليهود ، والنصارى) أبا لجميع الأنبياء ويحظى باحترام الجميع . وتأكيد ارتباط الإسلام وشعائره به له أهمية خاصة في إعطاء الرسالة الإسلامية جذرا تأريخيا ممتدا إلى ما هو أبعد من الديانتين اليهودية والنصرانية ، ويعطي فكرة التوحيد التي طرحها القرآن على المشركين أصلا وانتماء يعيشه هؤلاء المشركون في تأريخهم : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[2]. ويتجلي هذا الربط التأريخي بشكل أوضح بحيث يصبح إبراهيم عليه السلام هو المبشر بالنبي العربي الأمي، وتكون بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ

---

[1] - النساء: ١٦٥.

[2] - الحج: ٧٨.

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۞ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1] .

إضافة إلى أنه يعطي الرسالة الاسلامية شيئا من الاستقلال عن اليهودية والنصرانية ومن ثم عدم الشعور بالتبعية لعلماء اليهود والنصارى:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3] .

هنا يأتي تأكيد قصة إبراهيم في بناء الكعبة التي جاءت في عدة موارد من القرآن الكريم ، وندائه بالحج ، وذلك للموقع الخاص الذي كانت تحتله الكعبة بين العرب عامة ، وللقرار الذي كان القرآن قد اتخذه بجعل الكعبة قبلة للمسلمين ، تأكيدا لاستقلالية الرسالة في كل معالمها لان صرف الأنظار عن الأرض المقدسة وبيت المقدس الذي كان يحظى بالقدسية الخاصة - وما زال - بسبب نشوء الديانات المختلفة فيه ، ووجود إبراهيم وأنبياء بني إسرائيل كلهم في هذه الأرض يحتاج إلى إعطاء هذه الأهمية للبيت والكعبة المشرفة وهذا الانتساب الأصيل إلى إبراهيم عليه السلام

---

[1] - البقرة: ١٢٧- ١٢٩.

[2] - آل عمران: ٦٧- ٦٨ .

[3] - البقرة: ١٣٥.

أهمية تأكيد دور موسى عليه السلام :

وأما النبي موسى عليه السلام فان موقعه من الديانة اليهودية والشعب الإسرائيلي والانجاز السياسي والاجتماعي الذي حققه لهم ، وكذلك ما تحقق من خلال التوراة من تشريع وحكمة وقانون ، إضافة إلى معاناته الطويلة التي تشبه معاناة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سواء تجاه الطغاة الفراعنة أم المنافقين من الإسرائيليين، أم في توطيد دعائم الحكم الإلهي في الأرض ، وموقعه من الديانتين اليهودية والنصرانية ، لان النصرانية أيضا كانت تعترف بالتوراة القائمة (العهد القديم) كل هذه الأمور كانت تفرض هذا اللون من التأكيد . ونجد ملامح الظروف الموضوعية القائمة التي كانت تواجهها الرسالة والقرآن الكريم في موطن نزوله ، والمجتمع الذي يعمل على تغييره موجودة في كل هذه الأمور المرتبطة بهذين النبيين العظيمين، لان القرآن كان يعايش ويتفاعل باستمرار مع أهل الكتاب وعلمائهم وأقوامهم، وكان بحاجة إلى هذه التفاصيل ، والحديث - أحيانا - حتى عن الحياة الشخصية لموسى عليه السلام ، لما في ذلك من التأثير في أوساطهم . خصوصا وان العرب المشركين كانوا ينظرون إلى علماء اليهود - الذين يتصلون بهم أحيانا - أنهم أهل الذكر والكتاب والوحي والمعرفة كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك ، وبذلك يكون القرآن الكريم أكثر تأثيرا في هذه الأوساط أيضا عندما يتحدث عن النبي موسى عليه السلام . كما أن القرآن كان يسعى جادا لإعطاء فكرة أن هذه الرسالات إنما تمثل امتدادا واحدا في الوحي الإلهي ، وانتسابا واحدا إلى السماء في الوقت الذي كان يؤكد استقلالية الرسالة الإسلامية ، بمعنى أنها ليست تابعة ومتشعبة من التحرك الرسالي أو السياسي للرسالات الأخرى ، كما انها ليست عملا تغييرا في اطار تلك الرسالات ، بل هي من جانب مصدقة لها ، ولكنها من جانب آخر وفي

الوقت نفسه مهيمنة عليها : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[1] . ويتضح ذلك بشكل أفضل بملاحظة سياق الآيات السابقة عليها والتي يشير فيها القرآن الكريم إلى نزول التوراة والإنجيل والنسبة بينهما ، والتي تختلف عن نسبة القرآن إليهما .

الحديث عن عيسى عليه السلام :

ومن الملاحظ أيضا – عندما ندرس ظاهرة القصة في ضوء الهدف التغييري – أن القرآن الكريم تعرض لقصص بعض الأنبياء ، أو لتفاصيل فيها على الأقل ، من أجل أن يزيل ما علق في أذهان الجماعة التي نزل فيها القرآن من أفكار وتصورات منحرفة عن الأنبياء تنافي عصمتهم أو علاقتهم بالله أو طبيعة شخصيتهم، كما يتضح ذلك بشكل خاص في الحديث عن عيسى عليه السلام الذي تحدث القرآن الكريم عن شخصيته وظروفها أكثر مما تحدث عن أعماله ونشاطاته : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۞ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ۞ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ

[1] – المائدة: ٤٨.

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [1] . وكذلك ما جاء من الحديث في القرآن عن حياة مريم وولادة عيسى في سورة آل عمران أو سورة مريم ، أو الاهتمام بمناقشة فكرة إلوهية عيسى التي جاءت في عدة موارد ، منها ما جاء في سورة المائدة .

دراسة قصة موسى عليه السلام :

بعد دراسة الظواهر السابقة للقصة يحسن بنا أن نتناول قصص الأنبياء موضوعا من موضوعات التفسير الموضوعي . ومن هذا المنطلق نجد أمامنا أبعادا متعددة وكثيرة لدراسة القصة في القرآن الكريم ، من أهمها البعد الأدبي والتصويري وكذلك البعد الذي يرتبط ببيان أغراض القصة في هذا الموضع أو ذاك ، إضافة إلى الجانب التأريخي أو السنن والمفاهيم العامة التي يمكن انتزاعها منها . ولكن سوف نتناول هنا مثالا واحدا للقصة وهو (قصة موسى) عليه السلام ، حيث تعتبر قصة موسى عليه السلام من أكثر قصص الأنبياء ورودا في القرآن الكريم وتفصيلا .

ونعني هنا بالموارد القرآنية لهذه القصة : الموارد التي تحدث القرآن الكريم فيها عن علاقة موسى مع فرعون أو علاقته مع قومه أو لحالة اجتماعية قارنت عصره . وسوف ندرس قصة موسى في القرآن الكريم لنأخذها نموذجا لدراسة تفصيلية يمكن أن تستوعب قصص جميع الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم ، كما إننا سوف ندرسها من خلال بعض الأبعاد المهمة ذات العلاقة بالمضمون ، وبالقدر الذي يتناسب مع هذه الدراسة من حيث الاختصار والمنهج .

---

[1] - آل عمران: ٥٩- ٦٢.

١- دراسة القصة بحسب مواضعها في القرآن الكريم : ونأخذ النقاط التالية بعين الاعتبار في دراستنا للقصة هذه :

أ - التنبيه إلى أسرار تكرار القصة الواحدة في القرآن .

ب - التنبيه إلى الغرض الذي سيقت له في كل مقام .

ج- التنبيه إلى أسرار تغاير الأسلوب في القصة بحسب المواضع .

٢ - قصة موسى بحسب تسلسلها التأريخي .

٣ - دراسة عامة للقصة من خلال المراحل التي مر بها موسى والموضوعات العامة التي تناولها. ونكتفي هنا بالتنبيه بشكل إجمالي إلى هذه النقاط ، لنترك معالجة جميع التفصيلات وكذلك الأبعاد الأخرى إلى دراسة مستوعبة في ظرف آخر .

١ـ قصة موسى عليه السلام بحسب مواضعها من القرآن الكريم :

الموضع الأول : الآيات التي جاءت في سورة البقرة والتي تبدأ بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۞ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [1] إلى أن يختم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [2] .

---

[1] - البقرة: ٤٩- ٥١.

[2] - البقرة: ٧٤.

والملاحظ في هذا المقطع : أولا: جاء في سياق قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون﴾[1].

ثانيا : انه يتناول أحداثا معينة أنعم الله بها على بني إسرائيل مرة بعد الأخرى ، مع الإشارة إلى ما كان يعقب هذه النعم من انحراف في الإيمان بالله تعالى أو في الموقف العبادي الذي تفرضه طبيعة هذا الإيمان .

ثالثا : إنّ القرآن الكريم بعد أن يختم هذا المقطع يأتي ليعالج المواقف الفعلية العدائية لبني إسرائيل من الدعوة ويربط هذه المواقف بالمواقف السابقة لهم بقوله تعالى:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. . . وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2] .

وعلى أساس هذه الملاحظة يمكننا أن نقول: إن هذا المقطع جاء يستهدف غرضا مزدوجا وهو تذكير بني إسرائيل بنعم الله المتعددة عليهم ، وذلك موعظة وعبرة لهم تجاه موقفهم الفعلي من ناحية، ومن ناحية أخرى كشف الخصائص الاجتماعية والنفسية العامة التي يتصف بها الشعب الإسرائيلي للمسلمين، لئلا يقع المسلمون في حالة الشك والريب في هذه المواقف، فيتصور بعضهم أنها تنجم عن رؤية موضوعية تجاه الرسالة، الأمر الذي جعل اليهود يتوقفون عن الإيمان بها ، خصوصا وأن اليهود هم أهل الكتاب في نظر عامة المسلمين فأراد القرآن هنا أن يبين أن هذا الموقف إنما هو موقف نفسي وذاتي ومتأثر بهذه الخصائص الروحية والاجتماعية . وهذا الغرض فرض أسلوبا معينا على استعراض الأحداث إذ اقتصر المقطع على ذكر الوقائع التي تلتقي مع هذا الغرض وتتناسب مع هذا الهدف ،

---

[1] - البقرة: ٤٠.

[2] - البقرة: ٧٥- ١٢٢.

دون أن يعرض التفصيلات الأخرى للأحداث التي وقعت لموسى عليه السلام مع فرعون أو الإسرائيليين .

الموضع الثاني : الآيات التي جاءت في سورة النساء ، والتي تبدأ بقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾ إلى قوله تعالى:

﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [1] .

والملاحظ في هذا المقطع :

أولا: إنه جاء ضمن سياق عرض عام لمواقف فئات ثلاث من أعداء الدعوة الإسلامية تجاهها وهو موقف المنافقين وموقف اليهود من أهل الكتاب وموقف النصارى من أهل الكتاب، وعرض الموقف الأول يبدأ بقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [2] وعرض الموقف الثاني يبدأ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾[3] .

---

[1] – النساء: ١٥٣-١٦١.

[2] – النساء: ١٣٨.

[3] – النساء: ١٥٠.

وعرض الموقف الثالث يبدأ بقوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ . . ﴾[1] .

ثانيا: إن المقطع يتناول بعض الأحداث ذات الدلالة على نبوة موسى ، والمواثيق الغليظة المأخوذة على اليهود بصدد الامتثال والطاعة ، وموقف اليهود من ذلك والمخالفات التي ارتكبوها ، سواء فيما يتعلق بالجانب العقيدي من الفكرة أو بالجانب العملي التطبيقي منها .

وعلى أساس هاتين الملاحظتين يمكن أن نستنتج: أن هذا المقطع من القصة جاء ليوضح أن موقف اليهود من الدعوة بطلبهم المزيد من الآيات والبينات ليس نابعا من الشك بالرسالة ، وإنما هو موقف شكلي ذرائعي يستبطن الجحود والطغيان ، ولذا نجد المقطع يكتفي بعرض هذا الطلب العجيب الذي تقدم به اليهود إلى موسى ، ويضيف إلى ذلك المواثيق التي أخذت منهم في الطاعة ونكولهم عنها بمخالفاتهم العديدة ، الأمر الذي يكشف عن إصرارهم على الجحود والطغيان وأنهم يتذرعون بمثل هذه المطالب . وقد فرض السياق العام للسورة الكريمة تكرار القصة على أساس إيضاح ومعالجة موقف اليهود من الدعوة إلى جانب إيضاح ومعالجة موقف المنافقين والنصارى من أهل الكتاب ، لان هذه المواقف هي المواقف الرئيسة التي كانت تواجهها الدعوة الإسلامية حينذاك .

الموضع الثالث : الآيات التي جاءت في سورة المائدة وهي قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً

---

[1] – النساء: ١٧١.

وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ ۞ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِين﴾[1].

ويلاحظ في هذا المقطع :

أولا : انه جاء في سياق دعوة عامة لأهل الكتاب إلى الإيمان بالرسول الجديد ، مع إيضاح حقيقة رسالته ، ومناقشة ما يقوله اليهود والنصارى وإقامة الحجة عليهم بذلك ، إذ يختم هذا السياق بقوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2].

ثانيا : إن المقطع يكتفي بأن يذكر دعوة موسى لقومه إلى دخول الأرض المقدسة حيث كان دخولها منتهى آمالهم ، ولكنهم يأبون ذلك فيكون مصيرهم التيه أربعين سنة .

وعلى أساس هاتين الملاحظتين يمكن أن نستنتج: أن القرآن الكريم يبدو وكأنه يريد أن يذكر أهل الكتاب ويفتح الطريق أمامهم ليحققوا أهدافهم الصحيحة من وراء الدين والشريعة بدخولهم دعوة الإسلام ، ولا يكون موقفهم كموقف قوم موسى حين دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة، مع أنها أمنيتهم وهدفهم ، فتفوتهم الفرصة السانحة ويصيبهم التيه الفكري والعقائدي والاجتماعي في عصر نزول الرسالة ، كما أصابهم التيه السياسي والاجتماعي من قبل .

---

[1] – المائدة: ٢٠-٢٦ .

[2] – المائدة: ١٩.

ومن هنا نعرف السر الذي كان وراء اكتفاء القرآن الكريم بذكر هذا الموقف الخاص لبني إسرائيل دون غيره لأنه هو الذي يحقق هذا الغرض ، خصوصا إذا عرفنا أن هذه القصة مما يؤمن به اليهود والنصارى . كما أن هذا الجانب من القصة لم يذكر في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع .

الموضع الرابع : الآيات التي جاءت في سورة الأعراف والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ والتي تختم بقوله تعالى : ﴿ وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [1] .

ونلاحظ في هذا الموضع من القصة عدة أمور :

الأول: أن القصة جاءت في عرض قصصي مشترك مع قصة نوح ، وهود ، ولوط وشعيب ، تكاد تتحدد فيه صيغة الدعوة والتكذيب والعقاب الذي ينزل بالمكذبين.

الثاني: أن هذا العرض القصصي العام يأتي في سياق بيان القرآن الكريم لحقيقة حشر المخلوقات وصورته وأنهم يحشرون أمما بكاملهم من الجن والإنس ، وعلى صعيد واحد يتلاعبون بينهم ، أو يتحابون : ﴿قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ [2]. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ

---

[1]- الأعراف: ١٠٣-١٧١.

[2]- الأعراف: ٣٨.

نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]. ثم يعرض القرآن الكريم مشاهد متعددة من هذا الحشر وبعض العلاقات التي تسود الناس فيه ، وانه تصديق لدعوة الرسل وما بشروا وأنذروا منه

الثالث: إنّ القصة على ما جاء فيها من التفصيل واستعراض للحوادث تبدأ في سرد الوقائع من حين بدء البعثة والدعوة ، كما أنها تذكر الوقائع في حدود المجابهة - التي كان يواجهها الرسول - الخارجية مع فرعون وملئه ، والداخلية مع بني إسرائيل وفي إطار بيان ما ينزل بالمكذبين والمنحرفين من عذاب وعقاب.

الرابع : أن القصة تتناول في معرض حديثها عن الحوادث جوانب من المفاهيم الإسلامية العامة والسنن التأريخية كتأكيد أهمية (الصبر) و (وراثة المتقين للأرض) وأنّ الرحمة لا تنال إلا الذين اتقوا وآتوا الزكاة وآمنوا بآيات الله واتبعوا الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم .

وعلى أساس هذه الملاحظة يمكن أن نستنتج: أن القصة جاءت منسجمة مع السياق العام للعرض القصصي ومحققة لأغراضه على ما أشرنا إليه في حديثنا عن أغراض القصة، ومع ذلك فإنه لا تغفل عن الفرصة المناسبة لتأكيد المفاهيم الإسلامية العامة منسجمة مع الهدف القرآني العام في التربية . كما أنها تؤكد بصورة خاصة نبوة محمد ﷺ وكأنها سيقت بتفاصيلها لتحقيق ربط هذه الدعوات والرسالات بهذه النهاية الخاتمة لها ، وان هذه المفاهيم والسنن والأهداف التي

---

[1]- الأعراف:٤٢-٤٣.

عاشتها هذه الرسالات سوف تتحقق في نهاية المطاف في إتباع رسالة الإسلام: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ. . . ﴾ [1]. على أن هناك شيئا تجدر الإشارة إليه وهو أن القرآن الكريم يهتم عادة بتفصيل قصص الرسل الذين هم من أولي العزم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، ذلك لأغراض متعددة[2] يمكن أن يكون من جملتها :

أ- إنّ هؤلاء الأنبياء يمثلون مراحل مختلفة لرسالة السماء ، وأنهم مع صلة القربى والوحدة في دعوتهم نجدهم يشكلون مواضع فاصلة في تطور الدعوة الدينية النازلة من السماء .

ب- إنّ لبعض هؤلاء الأنبياء إتباعا وأمما عاشت حتى نزول رسالة الإسلام مما يفرض الاهتمام بمعالجة أوضاعهم وعلاقتهم بدعوة الإسلام الجديدة .

ج- إنّ أحداثا مفصلة ومختلفة عاشها هؤلاء مع أممهم وأقوامهم تمثل جوانب عديدة مما تعيشه كل دعوة دينية عامة واسعة النطاق تستهدف تغييرا جذريا لواقع ذلك المجتمع .

الموضع الخامس : الآيات التي جاءت في سورة يونس والتي تبدأ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ﴾[3] والتي تختم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ

---

[1] - الأعراف: ١٥٧.

[2] - تقدم ذلك .

[3] - يونس: ٧٥.

وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1] .

ونلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة الأمور التالية :

أولا: إن المقطع جاء بعد مقارنة عرضها القرآن الكريم بين مصير أتباع الحق والمؤمنين بالله وبالرسل والمصدقين بهم ، ومصير اتباع الباطل والمفترين على الله والمكذبين بالرسل : ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. . قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ۞ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾[2].

ثانيا : إن هذا المقطع من القصة جاء بعد إشارة قصيرة إلى نبأ نوح وقومه ، تتبعها لمحة عامة عن الرسل من بعد نوح وموقف قومهم منهم .

ثالثا : إن المقطع لا يتناول من التفاصيل إلا القدر الذي يرتبط بموقف فرعون وملئه من موسى والمصير الذي لاقاه هؤلاء ، نتيجة لأعراضهم عن الدعوة وتكذيبهم بها كما أنه يشير إلى نهاية بني إسرائيل الطيبة بعد معاناتهم الطويلة في المجتمع الفرعوني .

وبعد هذه الملاحظة يمكن أنْ نستنتج : أن القصة إنما جاءت هنا من أجل تصديق (الحقيقة) التي ذكرها القرآن الكريم في مقارنته بين الذين آمنوا والذين يفترون على الله الكذب . كما أن السياق العام هو الذي فرض مجيء القصة بشيء من

---

[1] – يونس: ٩٣.

[2] – يونس: ٦٣–٧٠.

التفصيل لان قصة موسى تمثل بتفاصيلها الانقسام بين جماعتين ، إحداهما مؤمنة به ، والأخرى كافرة بدعوته ، حيث يقع الصراع بينهما وينتهي بالغلبة للمؤمنين على الكافرين ، بخلاف قصص الأنبياء الآخرين فإنها تعرض في القرآن الكريم على أساس أن النبي لم يؤمن به إلا النزر اليسير من الناس ، ولذلك ينزل العذاب بقومه بشكل عام ، فهذه القصص تمثل جانبا واحدا من المقارنة وهو جانب المصير الذي يواجهه المكذبون والمنحرفون ، بخلاف قصة موسى فإنها تمثل الجانبين معا : جانب المؤمنين وجانب المكذبين.

ويؤكد هذا التفسير لسياق القصة ما أشرنا إليه في الملاحظة الثالثة من أن التفاصيل التي تناولها المقطع انحصرت في بيان التزام بني إسرائيل الحق ، دون أن تتعرض إلى الجوانب الأخرى لموقفهم ، والتي تمثل الانحراف والعصيان لأوامر موسى ، وهذا الالتزام يكاد يشعرنا إنّ القصة سيقت لإبراز صدق هذه المقارنة في التأريخ الإنساني والتي كانت تتحكم في المواجهة التي يلاقيها الأنبياء .

الدرس السابع عشر

القصص القرآني

(٣)

الموضع السادس: الآيات التي جاءت في سورة هود وهي قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۞ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ۞ وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴾[1].

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة ما يلي :

أولاً : إنه جاء في عرض قصصي عام يبدأ بنوح عليه السلام ويختم بهذه اللمحة عن قصة موسى عليه السلام .

ثانيا: إن هذا العرض العام جاء في سياق الحديث عن مكذبي الرسول ﷺ وما يجب أن يكون الموقف العام منهم والمصير الذي ينتظرهم في الآخرة، كما أنه يختم العرض بما يشبه بيان الغاية منه، وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۞ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۞ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[2].

ثالثا: إن المقطع جاء لمحة عابرة عن القصة ونهايتها على خلاف قصص الأنبياء الآخرين التي جاءت في شيء من التفصيل .

ومن هنا يمكن أن نستنتج: أن الإتيان بهذا المقطع من القصة كان من أجل إكمال الصورة التي بدأها بنوح وأراد القرآن الكريم أنْ يختمها بموسى ، ليظهر بذلك الارتباط الوثيق بين أسلوب الأنبياء في الدعوة إلى الله وجهودهم في سبيل هذه

---

[1] - هود: ٩٦-٩٩.

[2] - هود:١٠٠-١٠٢.

الغاية والمواجهة التي كانوا يلاقونها من أممهم وأقوامهم ، والنتيجة الحاسمة التي كان ينتهي إليها مصير هذه الأمم من العذاب الشديد والعقاب القاسي .

الموضع السابع: الآيات التي جاءت في سورة إبراهيم وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۞ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۞ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۞ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[1].

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة ما يلي :

أولا: إن القرآن الكريم قد مهد لهذه الإشارة بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [2].

ثانيا: إن القرآن يتحدث بعد هذا المقطع من القصة عن المفاهيم العامة التي كان يطرحها الرسل ، والأساليب التي كانوا يسلكونها لتحقيق أغراضهم الرسالية .

ثالثا: إن الحديث عن القصة في المقطع جاء بشكل مختصر وقد أكد المشكلة العامة التي كان يعانيها الإسرائيليون ، والنعمة العامة التي تفضل بها عليهم والدعوة لشكر النعمة وان الله لا يضره كفرانها .

---

[1] – إبراهيم: ٥–٨.

[2] – إبراهيم: ٤.

ومن هنا يمكن أن نستنتج : أن المقطع قصد به التمثيل على صدق الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم من مجئ كل رسول بلسان قومه ، حيث قد يراد بلسان القوم اللغة التي يتكلم بها القوم - كما لعله هو الظاهر - ولكن قد يراد من اللسان - كما يشير إليه السياق - هو الجوانب والمشاكل الاجتماعية والسياسية والإنسانية المثيرة التي تستقطب اهتمام الأمة ونظرتها ومشاعرها ، فيكون تأكيدها أسلوبا ولسانا لالفات نظر الأمة إلى الدعوة وقيمتها الروحية والاجتماعية ، ولذا جاءت قصة موسى مثالا لهذه الحقيقة لأنه دعا لإنقاذ قومه من مشكلة اجتماعية عامة كانوا يعانونها . ولعل ما يؤكد هذا القصد هو أن العرض جاء بلسان الخطاب إلى القوم لا بلسان الحديث عن القضايا والأحداث . ولما كانت الغاية الحقيقية من إرسال الرسل هي هداية الناس وإرشادهم ، لذلك نجد القرآن الكريم ، بعد هذه الإشارة إلى قصة موسى وتصديق الحقيقة يعود فيتحدث عن المفاهيم العامة التي كان يطرحها الرسل ، على أساس إنها الشيء المطلوب من الناس التصديق به ، دون أن يكون للأسلوب المعين المتبع في تحقيق هذا الهدف أهمية ذاتية خاصة .

الموضع الثامن : الآيات التي جاءت في سورة الإسراء وهي قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً۞ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً ۞ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً ۞ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾[1].

---

[1] - الإسراء: ١٠١-١٠٤.

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة ما يلي :

أولا: أنه جاء في سياق المطاليب التعجيزية المتعددة التي كان يقترحها المشركون والكفار على الرسول ﷺ وعدم اكتفائهم بالقرآن الكريم دليلا ومعجزة على النبوة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ۞ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً﴾ [1].

ثانيا: إن القرآن الكريم يعقب على القصة بالحديث عن القرآن بقوله : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [2].

ثالثا: إن القرآن لم يشر في هذا المقطع من القصة إلا إلى الآيات التسع التي جاء بها موسى ، ورفض فرعون لدعوته ومصيره نتيجة لهذا الرفض .

ويمكن أن نستنتج من هذه الملاحظة : أن القصة إنما جاءت هنا شاهدا على أن هذه المطالب المتعددة التي صدرت من الكفار لم تكن بسبب حاجة نفسية يحسها هؤلاء الكافرون تجاه هذه المطاليب وإنما هو أسلوب عام يتذرع به الكفار للتمادي في الضلال والإصرار عليه ، والشاهد على ذلك قصة موسى عليه السلام، حيث جاء موسى بتسع آيات ومع ذلك فقد كان موقف فرعون منها موقف المكذبين ، بالرغم من أن هذه الآيات التسع جاءت في أزمنة متعددة .

فالسياق هو الذي فرض الإتيان بالقصة على أساس الاستشهاد بها وهذا شئ تفرضه طبيعة الواقع التأريخي لرسالة موسى الذي أرسله الله سبحانه بالآيات التسع .

[1] – الإسراء: ٨٩-٩٢.

[2] – الإسراء: ١٠٥.

كما أن التكرار كان بسبب تأكيد مفهومين :

الأول: إنّ طلبات الكفار وتمنياتهم ليست نتيجة لواقع نفسي يدعوهم إلى الشك بالرسالة ويفرض عليهم التأكد من صحتها ، ولا يكون عدم إتيان الرسول بمطاليبهم حينئذ بسبب فقدان صلته بالسماء ، وإنما بسبب كفاية القرآن الكريم لإقامة الحجة عليهم ، كما دلت الآية الكريمة بعد القصة على ذلك .

الثاني: إنّ مصير هؤلاء المكذبين كمصير فرعون من الهلاك والهزيمة ، وان اتباع النبي يصيرون إلى ما صار عليه بنو إسرائيل من وراثة الأرض .

الموضع التاسع: الآيات التي جاءت في سورة الكهف والتي تبدأ بقوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ۞ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾ [1] والتي تختم بقوله تعالى:﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ [2] ويبدو هذا المقطع منفصلا عن قصة موسى المذكورة في مواضع مختلفة من القرآن الكريم ، لأنه يتحدث عن جانب معين من شخصية هذا الإنسان يختلف عن الجوانب الأخرى التي تصورها القصة ، والتي تظهر فيها شخصية موسى النبي صاحب الرسالة والدعوة الذي يجاهد من أجل التوحيد وإقامة العدل الإلهي والدفاع عن المستضعفين ، أو تتحدد فيها معالم هذه الشخصية من خلال سيرته ونشأته الذاتية ، أما هنا فيبدو موسى الإنسان الذي يسير في طريق التعلم والحريص على تفسير الظواهر غير

---

[1] – الكهف: ٦٠–٦١.

[2] – الكهف: ٨٢.

العادية . وحين نلاحظ أن القرآن الكريم يأتي بهذا المقطع في سياق قوله تعالى:﴿وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ۞ تلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا﴾ [1] قد نستنتج أن الإتيان به كان من أجل التدليل على مدى مطابقة الحكمة الإلهية للمصلحة وانسجامها مع واقع الأشياء مهما بدت غير واضحة المقصد والهدف .فان هاتين الآيتين اللتين جاء المقطع في سياقهما تشيران إلى وجود حكمة إلهية من وراء تأخير العذاب وعدم التعجيل به مع استحقاق الظالمين له ، مع أنه قد يبدو في النظرة السطحية الإنسانية إنّ التعجيل بالعذاب أوفق بالمصلحة، حيث يكون رادعا للآخرين عن الظلم ، فجاء المقطع تأكيدا لحقيقة الحكمة الإلهية ونظرتها البعيدة ، وان هذه الحكمة قد تخفى حتى على الأنبياء أنفسهم ، حيث نلاحظ في هذا المقطع ثلاثة أعمال وتصرفات يقوم بها العبد الصالح كلها تبدو في ظاهرها أنها بعيدة عن العدل والمصلحة، الأمر الذي يثير استغراب موسى إلى الحد الذي يجعله يتخلى عن التزامه السابق بعدم السؤال، ثم يشرح العبد الصالح هذه الأعمال ويبين مدى انسجامها مع العدل والمصلحة العامة . فالسياق العام للسورة هو الذي فرض الإتيان بالقصة في هذا المورد ، ولا حاجة إلى تكراره في مواضع أخرى مستقلا أو في سرد الحوادث لأنه ، لا يحقق الغرض الذي جئ به في هذا المورد .

الموضع العاشر : الآيات التي جاءت في سورة مريم وهي قوله تعالى :﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ۞ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ

[1] – الكهف: ٥٨-٥٩.

الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ [1]. وقد جاءت هذه اللمحة من القصة في عرض قصصي مشترك عن الأنبياء ، وذلك بصدد تعداد من أنعم الله عليهم من عباده وأنبيائه ، ومقارنتهم بمن خلف بعدهم ممن أضاع الصلاة واتبع الشهوات : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً ۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾[2].

فالسياق العام هو الذي فرض مجئ هذه القصة بهذا الشكل من العرض والاختصار وذلك لتعداد العباد الصالحين ونعمة الله عليهم .

الموضع الحادي عشر: الآيات التي جاءت في سورة طه والتي تبدأ بقوله تعالى :﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۞ إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾[3]. والتي تختم بقوله تعالى:﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً ۞ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾[4].

---

[1] – مريم: ٥١–٥٣.

[2] – مريم: ٥٨–٥٩.

[3] – طه: ٩–١٠.

[4] – طه: ٩٧–٩٨.

ونلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة الأمور التالية :

الأول: إنّ القصة جاءت في سياق بيان أن القرآن الكريم لم ينزل من أجل أن يشقى النبي ويتألم ، لمجرد أن قومه لم يؤمنوا به أو يظن في نفسه التخلف والتقصير أو القصور عن أداء الرسالة ، وإنما نزل القرآن تذكرة لمن يخشى من الناس : ﴿طه ۞ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [1].

الثاني: إنّ هذا المقطع القرآني ينتهي بقوله : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً﴾ [2].

الثالث: إنّ المقطع يؤكد بشكل خاص ملامح معاناة النبي موسى عليه السلام في سبيل الدعوة ، سواء في ذلك المعاناة النابعة من الذات : من الانفعالات والمخاوف النفسية أو الحرص الشديد على نجاح الدعوة وسلامتها والتزام أبنائها بها ، أو التي تكون نتيجة العقبات والمشاكل والصعوبات التي تثار عند المواجهة والتطبيق سواء من قبل الكافرين بالدعوة أصلا أو المؤمنين بها ، أو نعم الله وألطافه به من خلال ذلك .

فهناك عدة انعكاسات لمواقف الرسالة والدعوة في ذات موسى عليه السلام :

الأول: مفاجأته بالرسالة ، وكذلك فزعه من المعجزة وتحول العصا إلى حية .

الثاني: تردده في الإقدام على الدعوة بمفرده ، وطلبه انضمام أخيه هارون إليه .

الثالث: خوفه مع أخيه من التحدث إلى فرعون ومواجهته بالدعوة ، مع أنهما أمرا أن يقولا قولا لينا .

---

[1] - طه: ١-٣

[2] - طه:٩٩.

الرابع: إحساسه بالخوف من سحرهم وتوجسه من نتائج المباراة .

الخامس: موقفه مع ربه في المواعدة ومخاطبة الله له بأنه قد أعجل عن قومه .

السادس: غضب موسى وأسفه وموقفه الصارم من قومه وأخيه والسامري . وقد صاغ القرآن الكريم هذه الانفعالات من خلال طريقة العرض على الشكل الذي يؤكد معاناة النبي ويبرز ملامح شخصيته ، حيث كان يؤكد في طريقة العرض ضمير المخاطبة سواء بين الله وموسى أو بين موسى والآخرين . وإضافة إلى ذلك نجد أمام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مجموعة من العقبات والمشاكل الحقيقية المهمة مثل محاولة السحرة تضليل الناس ، أو استخدام فرعون لأسلوب القمع والتهديد به ، أو مطاردة فرعون وجيشه لموسى وبني إسرائيل في محاولتهم للعبور، أو فتنة السامري للإسرائيليين وتمردهم على هارون .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نستنتج :

أولا: إن القصة سيقت لإبراز معاناة الأنبياء في دعواتهم بصفتها نتيجة طبيعية لعظم المسؤولية التي يتحملونها والمشاكل التي تواجههم ، وبشكل خاص تشير إلى المعاناة الذاتية ، ويشهد لذلك أن القصة تؤكد المواقف التي تظهر فيها انفعالات الرسول كما أنها تؤكد ما ينعم به الله على الرسول خلال المجابهة ، وحين ينتهي عرض دور الانفعال نجد القصة تنتقل إلى عرض الدور الآخر دون أن تقف عند المشاهد الأخرى ، فهي مثلا تنتقل من العبور إلى المواعدة رأسا . كما إننا حين نقارن بين هذا المورد الطويل من القصة والمورد السابق الطويل منها الذي جاء في سورة الأعراف ، أو المورد الثالث الطويل منها الذي يأتي في سورة القصص

نجد هذا المورد هو الوحيد بينها يؤكد بهذا التفصيل هذه الملامح لشخصية الرسول .

ثانيا: إن السبب الذي فرض على القصة هذا الأسلوب الخاص من العرض والتصوير واقتضى في نفس الوقت بعض التكرار هو مخاطبة الرسول وتخفيف الألم والعذاب النفسي اللذين كان يعانيهما تجاه الدعوة ويدلنا على ذلك ما لاحظناه في الأمر الأول والثاني ، حيث استهدف القرآن الكريم إبراز الصلة الوثيقة بين ما يعانيه رسول الله ﷺ في دعوته وبين ما كان الأنبياء السابقون يعانونه: ﴿ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ۞ إلا تذكرة لمن يخشى﴾ ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾.

الموضع الثاني عشر: الآيات التي جاءت في سورة الشعراء والتي تبدأ القصة فيه بقوله تعالى:﴿وإذ نادى ربك موسى إنْ ائت القوم الظالمين ۞ قوم فرعون إلا يتقون﴾ والتي تختم بقوله تعالى: ﴿إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ۞ وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ [1].

ويلاحظ في هذا المقطع القرآني من القصة الأمور التالية:

الأول : أن المقطع من القصة جاء بعد عتاب من الله سبحانه لرسوله محمد ﷺ في إجهاده لنفسه وارهاقها حتى يكاد يقتلها بسبب إنّ قومه لم يكونوا مؤمنين: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [2] وبعد هذا العتاب يذكر القرآن الكريم قانونا اجتماعيا يتحكم في التأريخ وهو أن كل ذكر جديد من الله سبحانه يحدث ردة

[1]- الشعراء: ٧-٩.

[2]- الشعراء: ٣.

فعل كهذه لدى الكفار حيث يقاومونه ويعرضون عنه ، ولم يكن ذلك بسبب عجز الله سبحانه وعدم قدرته على إخضاعهم لرسالته وإرغامهم عليها : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ۞ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ [1].

الثاني : أن القرآن الكريم ينبه - بعد هذا التفسير العام للتأريخ - إلى أن هذا الموقف العام للكافرين تجاه الذكر لم يكن بسبب عدم توفر الدليل الصالح على صحة الرسالة : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[2].

الثالث : أن هذا المقطع جاء في عرض قصصي مشترك للأنبياء يتميز بطابع خاص إلى جانب هذا التفسير التأريخي للموقف العام وهو أن كل نبي نجده يبذل جهده في استعمال الأساليب المختلفة من الكلام اللين الهادئ أو التذكير بالنعم الإلهية الظاهرة التي يتمتع بها أقوامهم ، وقد يعضد أقواله هذه أحيانا بآية ومعجزة سماوية تشهد له على صحة دعوته ، ومع كل ذلك تكون النتيجة واحدة ويختتم بقوله تعالى : ﴿ إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ .

الرابع : أن القرآن الكريم بعد أن يأتي على نهاية العرض القصصي المشترك هذا يرجع فيتحدث عن ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ بوصفها شيئا مرتبطا بالسماء ومتصفا بجميع الصفات التي تبرز هذا الاتصال ، مما يسمح لذوي البصيرة والقلوب النيرة ان يطلعوا على واقعه ويهتدوا به .

---

[1] - الشعراء: الشعراء: ١٠-١١.

[2]- الشعراء: ٦٧-٦٨.

وعلى أساس هذه الملاحظة: يمكن أن نستنتج أن القصة جاءت لتحقيق هدفين ضمن عرض قصصي مشترك :

أحدهما: إيضاح القانون الطبيعي الذي يتحكم في مواجهة الأفكار الإلهية الجديدة ، وان تلكؤ الكافرين في الإيمان بالدعوة الإسلامية ورسالتها ليس بسبب تخلف الرسولﷺ عن المستوى الأمثل للعمل والنضال ، أو نتيجة لعدم توفر الأدلة الكافية على صحة الرسالة ، وإنما هو قانون عام له أسبابه النفسية والاجتماعية الأخرى وخضعت له الرسالات الإلهية كلها .

والآخر: إنّ النهاية سوف تكون لعباد الله الصالحين وإنهم هم الذين يرثون الأرض ، ومن أجل إلفات النظر إلى هذا الهدف - الذي قد يضيع ضمن العرض العام للقصص - وتأكيده جاءت قصة موسى بشئ من التفصيل الذي يؤكد هذا الجانب ، ويمكن أيضا أن نفسر التكرار للقصة بأحد السببين التاليين أو كليهما :

الأول : تأكيد هدف وغرض سبق أن استهدفه القرآن الكريم من قصة موسى نفسها في سورة طه وهو التخفيف من الألم الذي يعانيه الرسول ﷺ وهذا هو السبب الثاني من الأسباب الموجبة للتكرار .

الثاني : أن القصة استهدفت غرضا دينيا جديدا وهو تصوير المفهوم الإسلامي العام عن طبيعة موقف المشركين تجاه الرسالة ، وانه هو الموقف العام لهم تجاه كل الرسالات ، وهذا هو السبب الأول من الأسباب الموجبة للتكرار . وقد جاءت القصة في أسلوبها وطريقة عرض الأحداث فيها منسجمة مع أهدافها وأغراضها حيث تناولت جوانب معينة من حياة موسى وعرضت بشكل خاص تنتهي عند هذه الأهداف ، فنجد الحديث في القصة مثلا ينتهي عند العبور ، كما إنها أكدت شكل الأسلوب الذي سار عليه موسى وهارون في مخاطبة فرعون .

الموضع الثالث عشر : الآيات التي جاءت في سورة النمل والتي تبدأ بقوله تعالى:﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[1] والتي تختم بقوله تعالى :﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2].

ويلاحظ في هذا المقطع القصير الذي يتحدث عن القصة بشكل عام الأمور التالية :

الأول: أن القصة جاءت في سياق التحدث عن الكافرين بالآخرة وما سوف يلاقون من عذاب ، وعن واقع نزول القرآن وتلقيه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۞ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ۞ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[3].

الثاني : أن هذا المقطع يختم بقوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

الثالث : أن المقطع على اختصاره يكاد يختص بذكر الحوادث والآيات الغيبية، فهو يذكر المناداة ومعجزة العصا واليد ، ويشير إلى الآيات التسع .

وهذه الملاحظة تدعونا لان نستنتج : أن القصة سيقت لإظهار حقيقة من الحقائق التي ترتبط بالجانب النفسي للمجتمع الذي يواجه دعوة جديدة ، وهذه الحقيقة هي أن نكران الآخرة وعدم الإيمان بها إنما يقوم على أساس نفسي وعاطفي لا على أساس موضوعي ودراسة علمية ، هذا الشيء الذي عبر عنه القرآن الكريم

---

[1]– النمل: ٧.

[2]– النمل: ١٤.

[3]– النمل: ٤-٦ .

بالجحود، وذلك لان الدراسة الموضوعية كانت تقتضي أنْ تنتهي الحالة بالناس إلى الإيمان بالآخرة بعد أن أكدت الآيات والمعاجز ارتباط النبي بعالم الغيب ، وهذه الآيات والمعاجز توفر عناصر اليقين عند الإنسان العادي الذي يعيش وضعية عاطفية مستوية ومستقيمة ونتيجة لذلك (وهو عدم الإيمان بالرغم من توفر الأدلة والحجج) ينزل العذاب بالكافرين بعد أن لم يستجيبوا للحقائق والأدلة . ولا يفوتنا أنْ ننبه هنا إلى نكتة دقيقة ولطيفة وشاهد يؤكد لنا أن القصة سيقت لهذا الغرض هو أن القرآن يصور لنا خوف موسى من العصا بالشكل الذي يدعوه إلى الهروب ، وفي هذا تأكيد إنّ هذا التحول في حالة (العصا) كان نتيجة تدخل غيبي ولذا ترك أثره على موسى نفسه ، لا أنه نتيجة عمل بشري قام به موسى ، ولعل السر في تكرار القصة هنا هو السببان التاليان :

الأول: أن المقطع جاء في عرض قصصي مشترك لتأكيد تفسير إسلامي لموقف المنكرين للقرآن والدعوة على أساس عدم كفاية الآيات والمعجزات لإثباتها وقد عرفنا في هذا التأكيد السبب الثاني للتكرار كما سبق .

الثاني: أن القصة جاءت مختصرة في تصوير الموقف وهذا يدعونا لان نرى أنها وردت في مرحلة متقدمة من مراحل الدعوة حين كان يعالج القرآن مشاكلها بشكل مختصر ، وهذا ما ذكرناه سببا ثالثا للتكرار .

الدرس الثامن عشر

فواتح السور

فواتح السور

س١: ما المقصود بفواتح السور؟

ج: وهي الحروف المقطعة الموجودة في فاتحة (بداية) بعض السور القرآنية.

س٢: ما أهمية البحث في فواتح السور؟

ج: وتزداد أهمية هذا الموضوع عندما نلاحظ ما أثير حوله من مشاكل وشبهات قد تؤدي إلى الشبهة في القرآن الكريم نفسه .

س٣: هل جاءت الحروف المقطعة على شكلٍ واحدٍ؟

ج: بل جاءت هذه الحروف المقطعة في سور متعددة من القرآن وعلى أشكال مختلفة : ١- ما هو ذو حرف واحد مثل : ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ و ﴿ق والقرآن المجيد﴾ و ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ .

٢- ما هو ذو حرفين مثل : ﴿ طه ۞ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ و ﴿يس ۞ والقرآن الحكيم ﴾ و ﴿حم ۞ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

٣- ما هو ذو ثلاثة حروف أو أكثر مثل (ألم) و (المص) و (المر...) و(كهيعص) و (حم ۞ عسق) [1]. وغيرها .

س٤: هل حصل إتفاق بين العلماء حول تفسيرها؟ وما السبب في ذلك؟

ج: لم يحصل إتفاق بينهم حول تفسيرها، والسبب في ذلك :

١- لا نجد العرب قد عرفوا الأسلوب عند افتتاح كلامهم .

٢- كما إننا لا نجد لهذه الحروف معنى بإزائها غير مسمياتها من الحروف الهجائية .

---

[1] – في السور الآتية على الترتيب : ص : ١ ، ق : ١ ، القلم : ١ ، طه : ١ – ٢ ، يس : ١ – ٢ ، الجاثية : ١ – ٢ ، البقرة : ١ ، الأعراف : ١ ، الرعد : ١ ، مريم : ١ ، الشورى : ١ – ٢ .

٣- ولم يؤثر عن الرسول ﷺ شيء صحيح في تفسير هذه الحروف بل يكاد لا يؤثر عنه شيء في ذلك مطلقا - إلا النزر القليل - ليكون هو القول الفصل فيها .

س٥: ما الإتجاهات في تفسير فواتح السور؟

ج: هناك اتجاهان رئيسان في تفسير هذه الحروف :

الاتجاه الأول: هو الذي يرى أن هذه الحروف من الأشياء التي استأثر الله سبحانه بعلمها، ولذا فليس من الممكن لأحد أن يصل إلى معرفة المراد منها، ويؤيد هذا الاتجاه ما روي عن عدد من الصحابة والتابعين من أن الفواتح سر القرآن وأنها سر الله فلا تطلبوه، وذهب إليه كثير من العلماء والمحققين ، كما جاء ذلك أيضا في بعض الروايات عن طريق أهل البيت عليهم السلام [1] .

والاتجاه الثاني: هو الذي يرى أنه ليس في القرآن الكريم شيء غير مفهوم لنا أو غير معروف لدى العلماء والمحققين، وذلك انطلاقا من حقيقة أن الله سبحانه وتعالى وصف القرآن الكريم بصفات متعددة لا تتفق مع هذا الخفاء والاستتار، فهو جاء ﴿بلسان عربي مبين﴾ [2]، كما أنه نزل ﴿...تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ...﴾ [3] وهدى للناس وغير ذلك، وحين يكون القرآن بهذه الصفة لا يمكن إلا أن يكون مفهوما للناس وواضحا لهم . وقد نسب هذا الاتجاه إلى المتكلمين من علماء الإسلام [4].

وعلى أساس هذا الاتجاه نجد كثيرا من العلماء يحاولون تفسير هذه الحروف المقطعة، الأمر الذي استلزم تعدد مذاهبهم في ذلك، وقد ذكر الشيخ الطوسي

---

[1] – التبيان ١ : ٤٨ ، مجمع البيان ١ : ٣٢

[2] – الشعراء: ١٩٥.

[3] – النحل: ٨٩.

[4] – التفسير الكبير ،ج٢، ص٣ .

مذاهب مختلفة في تفسير هذه الحروف، وعد منها الفخر الرازي واحدا وعشرين تفسيرا ، وسوف نقتصر على ذكر المهم منها، إضافة إلى أن بعضها يمكن إرجاعه إلى بعض الآخر .

س٦: ما مذاهب تفسير فواتح السور؟ مع مناقشتها؟

ج: ذكر المصنف عدة مذاهب:

المذهب الأول : ما نسب إلى ابن عباس من أن هذه الحروف ترمز إلى بعض أسماء الله وصفاته وأفعاله ، فقد روي عنه في (ألم) : (أنا الله أعلم) ، وفي (المر) : (أنا الله أعلم وأرى) [١] إلى غير ذلك . ويؤيده ما روي عن معاوية بن قرة عن النبي ﷺ من أنها حروف من أسماء الله [٢].

الثاني: أنها أسماء للقرآن الكريم كالكتاب والفرقان والذكر، والى هذا المذهب صار جماعة من التابعين كقتادة ومجاهد وابن جريج والكلبي والسدي [٣].

الثالث: إنّ هذه الحروف مقتطعة من أسماء لها دلالة معينة بحسب الواقع، وهي مجهولة لنا معلومة للنبيﷺ، ويؤيد ذلك أن هذه الطريقة كانت معروفة لدى بعض العرب في مخاطباتهم وأحاديثهم ، وقد روي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وجماعة من الصحابة [٤].

ويلاحظ على هذه المذاهب الثلاثة: بأنها لا تستند إلى دليل علمي أو قرينة معتمدة ، وإنما هما من الرجم بالغيب فلا مناسبات الظروف الموضوعية، ولا

---

[1] – المصدر السابق، ص٦.

[2] – التبيان: ١:٥١.

[3] – التفسير الكبير ٢:٦.

[4] – التبيان: ١: ٤٧–٤٨.

مناسبات الكلام اللغوية هي التي تشير إلى هذا المعنى، وحالها حال كل تفسير أو فرضية أخرى يمكن أن تذكر في هذا المجال ، شريطة أن لا تتنافى مع بديهيات العقيدة القرآنية.

الرابع: إنها أسماء للسور التي جاءت فيها ، ف)ألم) اسم لسورة البقرة و (كهيعص) اسم لسورة مريم و(ن) اسم لسورة القلم وهكذا...وقد أختار هذا الرأي أكثر المتكلمين وجماعة من اللغويين[1] واستحسنه الشيخ الطوسي كما رجحه الطبرسي ودافعا عنه بعد أن أوردا عليه بعض الشبهات[2] كما اختاره أيضا الشيخ محمد عبده[3]، وتحمس الفخر الرازي في تأييده وأطنب في بيان الشبهات التي أوردوها عليه ونقضها[4].

وأهم ما أورد عليه الشبهتان التاليتان :

الشبهة الأولى : أن الاسم إنما يوضع للتمييز بين المسميات، وهذا لا يتفق مع تسمية عدة سور بإسم واحد كما حدث في البقرة وآل عمران، فأنه ورد في أولهما (ألم) وحدث في السجدة وغافر وفصلت فأنه في أولها (حم) .

الشبهة الثانية: أن الاسم لا بد أنْ يكون غير المسمى في الوقت الذي قام الإجماع على أن هذه الحروف جزء من السور التي جاءت فيها .

1- التفسير الكبير ج٢،ص٥.

2- التبيان:،ج١،ص٤٩.

3- المنار،ج١، ص١٢٢.

4- التفسير الكبير،ج٢،ص٨-١١.

وقد أجاب الشيخ الطوسي عن الشبهة الأولى : بأنه لا مانع من تسمية عدة أشياء باسم واحد مع التمييز بينهما بعلامة مميزة ، وقد وقع هذا في الأعلام الشخصية كثيرا .

كما أجاب عن الشبهة الثانية: بأنه لا مانع من تسمية الشيء ببعض ما فيه ، كما حدث في تسمية سورة البقرة وآل عمران والأعراف من السور .

يلاحظ على هذا الرأي: إنّ الحروف تقرأ مقطعة بذكر أسمائها (ألف - لام - ميم) لا مسمياتها، وهذا لا يناسب أن تكون أسماء للسور ، وإلا لكانت قراءتها بمسمياتها كما هي مكتوبة، وهذه الكيفية من القراءة تناسب أن تكون الحروف مقصودة في نفسها بالذكر لا أنها أسماء لأشياء أخرى وقد أشار الزمخشري[1] إلى هذه الملاحظة ولكن بصياغة أخرى ثم ردها .

فقد قال الزمخشري : فإنْ قلت فما بالها مكتوبة في المصحف على صور الحروف أنفسها لا على صور أساميها؟

قلت: لان الكلمة لما كانت مركبة من ذوات الحروف ، واستمرت العادة حتى تهجيت وحتى قيل للكاتب اكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء وتقع في الكتابة الحروف أنفسها عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة الفواتح[2].

الخامس: أن هذه الحروف إنما جئ بها ليفتتح بها القرآن الكريم وليعلم بها ابتداء السورة وانقضاء ما قبلها ، وقد اختار هذا الرأي البلخي وروي عن مجاهد أيضا، وذكر له الشيخ الطوسي بعض الأمثلة من استعمالات العرب[3]، ويؤيده قول أحمد

[1] – الكشاف،ج١،ص٢٨.

[2] – المصدر السابق.

[3] – التبيان،ج١،ص٤٧.

ابن يحيى بن ثعلب : إن العرب إذا استأنفت كلاما فمن شأنهم أن يأتوا بشيء غير الكلام الذي يريدون استئنافه فيجعلونه تنبيها للمخاطبين على قطع الكلام الأول واستئناف الكلام الجديد.

وقد يلاحظ على هذا الرأي:

أولاً: بعدم شمول هذه الطريقة لجميع سور القرآن الكريم ، ويبقى الاختصاص حينئذ سرا نحتاج إلى إيضاحه والكشف عنه . نعم قد يقال : إن هذه الطريقة إنما كانت الحاجة إليها موجودة في السور الطوال التي كانت تنزل تدريجيا وليس في جميع سور القرآن الكريم ، حيث كان بعضها ينزل دفعة واحدة ، كما في السور القصار .

ثانياً: أن البسملة يمكن أن تقوم بهذا الدور في تمييز الانتهاء من السورة والشروع بالسورة الأخرى ، حيث وردت الأحاديث التي تؤكد إنّ البسملة كان لها دور تمييز انقضاء السورة من ابتدائها [١] .

السادس : أنها أسماء للحروف الهجائية المعروفة ، وإنما جئ بها تنبيها للناس على أن القرآن الكريم الذي عجزوا عن مباراته والإتيان بمثله ليس إلا مؤلفا من هذه الحروف ومركبا منها ، فلم يكن التحدي به لأنه يحتوي على مادة غريبة عنهم وإنما كان بشيء مركب من هذه الحروف التي يتكلمون ويتحادثون بها ، وقد عجز عن الإتيان بمثله أهل الفصاحة والبلاغة ، وقد ذهب المبرد وجمع كبير من المحققين إلى هذا المذهب[٢].

---

[1] – الدر المنثور،ج١،ص٧.

[2] – المصدر السابق.

وقد يناقش هذا المذهب: بأن مجرد ذكر الحروف في أول السورة بهذا الشكل المتقطع لا يكفي في إيضاح هذه الحقيقة ، وقد لا يشعر الناس بذلك فلا يحقق حينئذ القرآن هدفه من ذكرها ، إلا إذا كانت القرائن الخارجية والحالية التي تحيط الكلام لها دور في الإفهام وتحقيق هذا الهدف ، وهذا ما لا يمكن أن نعرفه من نفس هذه الحروف . وقد كان من الممكن أن يصل القرآن إلى ذلك عن طريق إيضاح الفكرة ببيان قضية عامة تستوعب هذا المضمون وتشرحه ، فالفكرة التي يتبناها هذا المذهب وإن كانت صحيحة ولكنها تحتاج إلى إبراز القرائن الحالية التي كانت تؤدي دور الإفهام ، كما سوف نشير إلى ذلك .

السابع: أن هذه الحروف إنما جاءت في أول السور ليفتح القرآن أسماع المشركين الذين تواصوا بعدم الإنصات إليه ، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى – على لسانهم – : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [1] فكانت هذه الحروف – بطريقة عرضها وغموضها – سببا للفت أنظار المشركين إلى استماع القرآن الكريم رجاء أن يتضح لهم منه هذا الغموض والابهام عند استماعهم له .

ويزداد هذا المذهب وضوحا إذا لاحظنا الحالة النفسية التي كان يعيشها المشركون آنذاك، حيث ينظرون إلى القرآن الكريم على أنه صورة المعجزة المدعاة وانه ذو صلة بالغيب وعوالمه العجيبة ، فهم ينتظرون في كل لحظة ان تحدث ظاهرة غريبة تفسر لهم الموقف وتأتيهم بالأمور العجيبة.

[1] – فصلت: ٢٦.

الثامن: أنها حروف من حساب الجمل، لأنّ طريقة الحساب الأبجدي المعروفة الآن كانت متداولة بين أهل الكتاب آنذاك، فهذه الحروف تعبر عن آجال أقوام معينين . ومن هنا نجد – كما روي عن ابن عباس – أبا ياسر ابن اخطب اليهودي يحاول أنْ يتعرف على أجل الأمة الإسلامية وعمرها من خلال هذه الحروف.

وقد لاحظ ابن كثير على هذا الرأي بقوله : ((وأما من زعم أنها دالة على معرفة العدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له ، وطار في غير مطاره وقد ورد في ذلك حديث ضعيف ، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذه المسلك من التمسك به على صحته . . .)) [1].

كما لاحظ عليه السيد رشيد رضا بمثل هذه الملاحظة حيث قال : ((إن أضعف ما قيل في هذه الحروف وأسخفه إن المراد بها الإشارة باعداها في حساب الجمل إلى مدة هذه الأمة أو ما يشابه ذلك)) [2].

التاسع: أن ذكر هذه الحروف في القرآن الكريم يدل على ناحية اعجازية تشبه دلالة بقية الآيات القرآنية ، وذلك لان النطق بهذه الحروف وإن كان متيسرا بالنسبة إلى كل من يتكلم العربية ، ولكن أسماءها لم تكن تتيسر إلا للمتعلم من العرب ، ولما كان النبي ﷺ أميا – كما يعرفه بذلك معاصروه – فقدرته على معرفة أسمائها قرينة على تلقيه ذلك من قبل الغيب ، ويكون ذلك من قبيل ذكر القصص القرآني الذي لم يكن للنبيﷺ طريق للاطلاع عليه غير الوحي الإلهي لعدم اطلاع قريش عليه قبل هذا ، وأيضا هو بمنزلة من يتكلم باللغة الأجنبية من دون

---

[1] – تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٦٨.

[2] – المنار،ج١، ص١٣٢.

أن يسمعها أو يتعلمها من أحد ، ولعل هذا هو السبب في تقديم ذكرها على السورة كلها .

وقد أوضح الزمخشري هذه الفكرة بابداء ملاحظة أخرى هي : أن ظاهرة غريبة تلاحظ حين نريد أن ندرس هذه الحروف بدقة تدعونا إلى الحكم بأن هذه الحروف قد اختيرت بعناية فائقة لا تتوفر إلا لدى المتخصصين من علماء العربية ، ذلك أن هذه الحروف تمثل نصف أسامي الحروف العربية ، حيث إن عددها أربعة عشر ، كما انها جاءت في تسع وعشرين سورة هي عدد حروف المعجم كلها بإضافة الهمزة ، ثم إذا نظرت في هذه الحروف الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف من المهموسة والمجهورة، والشديدة والرخوة ، والمطبقة والمنفتحة والمستعلية والمنخفضة . وقد أضاف أحمد بن المنير في شرحه للكشاف إضافات أخرى عديدة[1] .

وهذه الملاحظة يمكن أن تكون مؤكدة هذه الفكرة ، كما يمكن أن تؤيد أيضا القول السادس الذي أشار إليه الزمخشري أيضا ، في ذيل هذه الملاحظة وكأنه حاول أن يوائم بين القول : السادس والتاسع[2]..

العاشر: ما ذكره ابن كثير وأوضحه السيد رشيد رضا وحاصله : أن من الملاحظ أنه قد جاء بعد هذه الحروف ذكر الكتاب الكريم ونبأ تنزيله ، ولم تتخلف عن ذلك إلا سور أربع هي مريم والعنكبوت والروم والقلم ، وفي كل واحدة منها نجد أمرا مهما يشبه مسألة الكتاب وإنزاله .

---

1 – الكشاف، للزمخشري، ج١، ص٢٣-٢٤.

2 – المصدر السابق، ص٢٩-٣٠.

×فإننا نجد في فاتحة سورة مريم خلق يحيى من امرأة عاقر كبيرة ومن شيخ عجوز وهو أمر يخالف القوانين التجريبية السائدة .

×وفي فاتحة العنكبوت والروم نجد أمرين مهمين يرتبطان بالدعوة ومصيرها ، حيث جاء في فاتحة العنكبوت بيان قانون اجتماعي وضعه الله لاختبار الناس وتمييز الصالح منهم عن غيره ، ولهذا القانون تأثير كبير على سير الدعوة ، حيث يوضح أن الفتنة والعذاب لا يمكن أن يكون دليلا على خذلان الله لأحبائه وإنما هما اختبار لصدق أيمانهم ورسوخه .

×وفي فاتحة الروم قضية الأخبار بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين .

×وفي فاتحة القلم وخاتمتها تبرئة الرسول من تهمة الجنون التي كانت من أول ما رمي به النبي ﷺ من تهم ، كما أن السورة كانت من أول ما نزل من القرآن .

ومن الواضح إنّ هذه القضايا ترتبط جميعا بالوحي الإلهي أو الرسالة بصورة مباشرة ، وهذا الارتباط بين الحروف المقطعة وبين تأكيد الكتاب وإنزاله من السماء والرسالة وعلاقتها بالسماء يدعونا للقول : إنه إنما جئ بها لغاية قرع الأسماع وهز القلوب ودفع الناس إلى استماع القرآن الكريم والإنصات إليه.

س٧: ما موقف المصنف تجاه هذه المذاهب؟

ج: إنّ الموقف تجاه هذه المذاهب يتحدد في ضوء بعض الظواهر العامة التي عاشتها مسألة (فواتح السور) وهي :

١- عدم ورود تفسير واضح للفواتح عن الرسول .

٢ - سكوت الصحابة بشكل عام عن سؤال الرسول بصدد هذا الموضوع .

٣- عدم تعارف استعمال العرب لهذا الأسلوب في كلامهم . وهذه الظواهر الثلاث تجعلنا نؤمن بأن الموقف تجاه هذه الحروف من قبل معاصري الوحي

والنبوة كان واضحا وجليا، الأمر الذي أدى إلى سكوت النبي عن بيانه والصحابة عن سؤاله ، وحينئذ فأما أن يكون هذا الوضوح نتيجة توضيح النبي بأنها من المتشابهات التي يحسن السكوت عنها والتسليم بها . أو أنه كان نتيجة أن الغاية من استعمالها كانت جارية على نهج المذهب السادس أو السابع، فإنهما المذهبان الوحيدان اللذان يفسران هذه الظاهرة بشكل ينسجم مع هذه الظواهر المسلمة بدون الحاجة إلى السؤال والاستفسار. أما المذهب السادس فباعتبار إنّ هذه الألفاظ هي أسماء للحروف ومن الطبيعي أن نفترض أن العرب كانوا يفهمون منها مسمياتها ، وكانوا يفسرون ذكرها في أوائل السور على أساس هذا الترابط بين هذه الحروف وقضية التحدي في القرآن . وأما المذهب السابع فباعتبار أن هذا الأسلوب كان يمثل عملية خارجية يمارسها النبيﷺ لإسكاتهم وإلفات أنظارهم وكانت بوجودها الخارجي والقرائن الحالية تدل على مضمونها وهدفها من دون حاجة إلى تفسير، نظير بعض الإشارات باليد أو العين أو الأفعال التي كان يقوم بها النبيﷺ وكان يفهمها المشاهدون مباشرة دون حاجة إلى سؤال أو استفسار أو شرح .

ويكون هذا الأسلوب في الإلفات من الأساليب التي برع القرآن في استعمالها .

الدرس التاسع عشر

استخلاف آدم (الإنسان)

الفصل الأول : الحكمة في استخلاف آدم

استخلاف آدم (الإنسان)

×قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ ۝ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ۝ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

س١: ما أهم ما تتحدث عنه هذه الآيات العشر ؟

ج: هذه الآيات العشر تتحدث عن قضية استخلاف الله سبحانه لآدم عليه السلام على الأرض .

[1]– البقرة: ٣٠-٣٩.

س٢: كيف بحث المصنف قضية الإستخلاف ؟

ج: بحثها المصنف في فصلين :

الفصل الأول: منهما يتناول معنى الاستخلاف والحكمة والعلة فيه ، وهذا الجانب من قصة آدم يكاد ينحصر ذكره والحديث عنه في القرآن الكريم بهذا المقطع القرآني فقط، وإن كان من الممكن أن تكون جميع آيات الاستخلاف مؤكدة هذا المقطع وإن لم تكن بهذا الوضوح .

والفصل الثاني: يتناول العملية التي تم بها انجاز هذا الاستخلاف، وهذا الجانب تحدث عنه القرآن في مواضع متعددة لا بد من دراستها بشكل عام .

وسيأتي الحديث عنه في الدرس الأخير.

الفصل الأول : الحكمة في استخلاف نبي الله آدم عليه السلام :

والبحث في هذا المقطع وما تضمنه من معلومات ومفاهيم له جانبان:

أمّا الجانب الأول: نجد الشيخ محمد عبده تبعا لبعض الدارسين المتقدمين يذكر رأيين مختلفين بحسب الشكل وان كانا يتفقان في النهاية ، حسب ما يقول :

الرأي الأول : هو الذي سار عليه السلف واختاره الشيخ محمد عبده نفسه أيضا ، حيث يقول : ((وأما ذلك الحوار في الآيات فهو شأن من شؤون الله مع ملائكته ، صوره لنا في هذه الفصول بالقول والمراجعة والسؤال والجواب ، ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول، ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا ، وان هناك معاني قصدت إفادتها بهذه العبارات، وهي عبارة عن شأن من شؤونه تعالى قبل خلق آدم وأنه

كان يعد له الكون، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق نوع الإنسان، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله))[1] .

والرأي الثاني : الرأي الذي سار عليه الخلف من المحققين وعلماء الإسلام الذين بذلوا جهدهم في دراسة القرآن والتعرف على مقاصده ، حيث يرون أن هذه القصة بمواقفها المختلفة إنما جاءت على شكل التمثيل ومحاولة تقريب النشأة الآدمية الإنسانية وأهميتها وفضيلتها ، وأن جميع المواقف والمفاهيم التي جاءت فيها يمكن تحديد المعاني والأهداف التي قصدت منها .

وأمّا الجانب الثاني: نجد السلف انسجاما مع موقفهم في الجانب الأول يقفون من دراسة المقطع موقفا سلبيا ، ويكتفون – في بعض حالات الانفتاح – بذكر الفوائد الدينية التي تترتب على ذكر القرآن لهذا المقطع القرآني (المتشابه) .

وقد أشار الشيخ محمد عبده إلى بعض هذه الفوائد ، ونكتفي بذكر فائدتين منها :

الأولى: أن الله سبحانه وتعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أنْ يسألوه عن حكمته في صنعه وما يخفى عليهم من أسراره في خلقه .

الثانية: أن الله سبحانه لطيف بعباده رحيم بهم ، يعمل على معالجتهم بوجوه اللطف والرحمة ، فهو يهدي الملائكة في حيرتهم ويجيبهم عن سؤالهم عندما يطلبون الدليل والحجة بعد أن يرشدهم إلى واجبهم من الخضوع والتسليم: ﴿ . . . إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ . . . ﴾[2].

[1] – المنار: ٢٥٤/١.

[2] – البقرة: ٣٠-٣١.

مفاهيم حول الاستخلاف :

١- الخلافة : الخليفة بحسب اللغة : من خلف من كان قبله وقام مقامه وسد مسدّه، وتستعمل أيضا بمعنى النيابة[1].

س١ : لماذا سمي آدم خليفة ؟

ج: توجد آراء عدة، ومنها : **الأول**: أن آدم سمي خليفة لأنه خلف مخلوقات الله سبحانه في الأرض ، وهذه المخلوقات إما أن تكون ملائكة أو يكونوا الجن الذين أفسدوا في الأرض وسفكوا فيها الدماء، كما روي عن ابن عباس، أو يكونوا آدميين آخرين قبل آدم هذا. **الثاني**: أنه سمي خليفة لأنه وأبناءه يخلف بعضهم بعضا، فهم مخلوقات تتناسل ويخلف بعضها بعضا الآخر، وقد نسب هذا الرأي إلى الحسن البصري .

الثالث: أنه سمي خليفة لأنه يخلف الله سبحانه في الأرض.

س٢ : وضّحْ تفسير هذه الخلافة لله سبحانه وارتباطها بالمعنى اللغوي؟

ج: تعددت الآراء واختلفت :

أ- انه يخلف الله في الحكم والفصل بين الخلق .

ب- يخلف الله سبحانه في عمارة الأرض واستثمارها ، من إنبات الزرع وإخراج الثمار وشق الأنهار وغير ذلك[2].

ج- يخلف الله سبحانه في العلم بالأسماء كما ذهب إلى ذلك العلامة الطباطبائي[3].

د- يخلف الله سبحانه في الأرض بما نفخ الله فيه من روحه ووهبه من قوة غير

1- مفردات الراغب: مادة (خلف).

2- هذا الرأي وما قبله ذكره في التبيان، للطوسي، ج١،ص١٣١.

3- الميزان،ج١، ص١١٨.

محدودة ، سواء في قابليتها أو شهواتها أو علومها ، كما ذهب إلى ذلك الشيخ محمد عبده[1].

س٣: ما هو الرأي الصحيح بناءً على رأي المصنف؟

ج: لعل المذهب الثالث هو الصحيح من هذه المذاهب الثلاثة ، خصوصا إذا أخذنا في مدلوله معنى واسعا لخلافة الله في الأرض بحيث يشمل مجمل الآراء الأربعة التي أشرنا إليها في تفسيره، لأنّ دور الإنسان في خلافة الله في الأرض يمكن أن يشمل جميع الأبعاد والصور التي ذكرتها هذه الآراء، على أنحاء عدة، ومنها:

أ- فهو يخلف الله في الحكم والفصل بين العباد بما منح الله هذا الإنسان من صلاحية الحكم بين الناس بالحق.

×قال تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . . .﴾[2].

ب- وكذلك يخلفه في عمارة الأرض واستثمارها من إنبات الزرع وإخراج الثمار والمعادن وتفجير المياه وشق الأنهار وغير ذلك : ﴿ . . . فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[3] ولعل أكثر موارد استعمال خلائف وخلفاء واستخلاف أريد منه هذا النوع من الاستخلاف : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد

---

[1] - المنار،ج١، ص٢٦٠.

[2] - ص: ٢٦.

[3] - الملك: ١٥.

وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ [1].

ج- وكذلك يخلف الإنسان الله في الأرض بعلمه بالأسماء والمعارف والكمالات التي يتكامل من خلالها ويسير بها نحو الله تعالى .

٢- علم الملائكة بأنّ الخليفة يفسد في الأرض.

س٤: كيف عرف الملائكة أن الخليفة يفسد في الأرض؟

ج: توجد آراء عدة، وهي: **الأول**: أن الله سبحانه وتعالى أعلمهم بذلك، لان الملائكة لا يمكن أن يقولوا هذا القول رجما بالغيب وعملا بالظن.

الثاني: أنهم قاسوا ذلك على المخلوقات التي سبقت هذا الخليفة الذي سوف يقوم مقامها ، كما يشير إلى ذلك بعض الروايات والتفاسير.

الثالث: أن طبيعة الخلافة تكشف عن ذلك بناء على الرأي الأول من المذهب الثالث في معنى الخلافة ، حيث يفترض الاختلاف والنزاع ، ولازمه الفساد في الأرض وسفك الدماء ، كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره .

الرابع: أن طبيعة الخليفة نفسه تقتضي ذلك .

س٥: بيّن نوع حقيقة هذا الإقتضاء حسب الرأي الرابع ؟وماذا اختار المصنف ؟

ج: يوجد تفسيران:

الأول: إنّ المزاج المادي والروحي لهذا المخلوق الذي يريد أنْ يجعله الله خليفة، والأساس الاجتماعي للعلاقات الأرضية التي سوف تحصل بين أبناء هذه المخلوقات هي التي جعلت الملائكة يعرفون ذلك ، يقول العلامة الطباطبائي:

[1] – الأعراف: ٧٤.

((إنّ الموجود الأرضي بما انه مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية والدار دار التزاحم محدودة الجهات وافرة المزاحمات، مركباتها في معرض الانحلال وانتظاماتها واصطلاحاتها مظنة الفساد ومصب البطلان ، لا تتم الحياة فيها إلا بالحياة النوعية ولا يكمل البقاء فيها إلا بالاجتماع والتعاون فلا تخلو من الفساد وسفك الدماء))[1].

الثاني: إنّ الإرادة الإنسانية بما أعطيت من اختيار يتحكم في توجيهه العقل بمعلوماته الناقصة هي التي تؤدي بالإنسان إلى أن يفسد في الأرض ويسفك الدماء.

والصحيح عند المصنف هو التفسير الثاني، حيث إنه تعالى لا بد وأنه قد أعلم الملائكة بحال وطبيعة هذا المخلوق الذي ينتهي به الحال إلى هذه النتائج .

٣- الأسماء

س٦: ما المراد من الأسماء في قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ ؟

ج: يوجد إتجاهان:

الأول: أن المراد من الأسماء الألفاظ التي سمى الله سبحانه بها ما خلقه من أجناس وأنواع المحدثات وفي جميع اللغات، وهذا الرأي هو المذهب السائد عند علماء التفسير ونسب إلى ابن عباس وبعض التابعين.

وينطلق أصحاب هذا المذهب في تفكيرهم إلى أن الله سبحانه كان قد علم آدم جميع اللغات الرئيسة، وقد كان ولده على هذه المعرفة، ثم تشعبت بعد ذلك واختص كل جماعة منهم بلغة غير لغة الجماعة الأخرى .

---

[1] – الميزان: ١/١١٥.

الثاني: أن المراد من الأسماء: المسميات، أو صفاتها وخصائصها، لا الألفاظ وحينئذ فنحن بحاجة إلى القرينة القرآنية أو العقلية التي تصرف اللفظ إلى هذا المعنى الذي قد يبدو أنه يخالف ظاهر الإطلاق القرآني لكلمة (الأسماء) الدالة على الألفاظ . ويمكن أنْ نتصور هذه القرينة في الأمور التالية :

أ- كلمة (علّم) التي تدل على أن الله سبحانه منح آدم (العلم) وبما ((أن العلم الحقيقي إنما هو إدراك المعلومات أنفسها والألفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضعة والاصطلاح فهي تتغير وتختلف والمعنى لا تغيير فيه ولا اختلاف))[1]. فلا بد أن يكون هو المسميات التي هي المعلومات الحقيقية .

ب- قضية التحدي المطروحة في الآيات الكريمة، ذلك أن الأسماء حين يقصد منها الألفاظ واللغات فهي إذن من الأشياء التي لا يمكن تحصيلها إلا بالتعليم والاكتساب، فلا يحسن تحدي الملائكة بها ، إذ لا دلالة في تعليمها آدم على وجود موهبة خاصة فيه يتمكن بها من معرفة الأسماء ، وهذا على خلاف ما إذا قلنا : إن المقصود منها المسميات ، فإنها مما يمكن إدراكه ولو جزئيا –عن طريق إعمال العقل الذي يعد موهبة خاصة فيكون لمعرفة آدم بها دلالة على موهبة خاصة منحه الله إياها .

×قال الطوسي: ((إن الأسماء بلا معان لا فائدة فيها ولا وجه لإيثاره الفضيلة بها))[2]

×وقال الرازي: ((وذلك لان العقل لا طريق له إلى معرفة اللغات البتة ، بل ذلك لا يحصل إلا بالتعليم فان حصل التعليم حصل العلم به وإلا فلا ، أما العلم بحقائق الأشياء فالعقل متمكن من تحصيله فصح وقوع التحدي فيه))[1].

---

[1] – المنار: ٢٦٢/١.

[2] – التبيان: ١٣٨/١.

ج- عجز الملائكة عن مواجهة التحدي، لان هذه الأسماء لو كانت ألفاظا لتوصل الملائكة إلى معرفتها بأنباء آدم لهم بها، وهم بذلك يتساوون مع آدم فلا تبقى له مزية وفضيلة عليهم، فلا بد لنا من أن نلتزم بأنها أشياء تختلف مراتب العلم بها، الأمر الذي أدى إلى أن يعرفها آدم معرفة خاصة تختلف عن معرفة الملائكة لها حين إخباره لهم بها ، وهذا يدعونا لان نقول إنها عبارة عن المسميات لا الألفاظ ، ×قال العلامة الطباطبائي بصدد شرح هذه الفكرة : " إنّ قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ . . .﴾ يشعر بان هذه الأسماء أو أنّ مسمياتها كانت موجودات أحياء عقلاء محجوبين تحت حجاب الغيب ، وان العلم بأسمائهم كان غير العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء وإلا كانت بأنباء آدم إياهم بها عالمين بها وصائرين مثل آدم مساوين معه ".

س٧: ما هي الأسماء ؟

ج: توجد آراء ثلاثة :

١- فالعلامة الطباطبائي يراها - كما في النص السابق - موجودات أحياء عقلاء ، ولعله يفهم هذه الحياة لها والعقل من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ حيث استعمل ضمير الجماعة المختص بمن يعقل ، وهذا الاتجاه نجده في بعض الآراء المتقدمة على العلامة الطباطبائي نفسه ، كما في حكاية الطبري عن الربيع بن زيد أنهما قالا: علمه الله أسماء ذريته وأسماء الملائكة[2].

---

[1] - التفسير الكبير: ١٧٦/٢.

[2] - التبيان، ج١، ١٣٨.

ولكن الشيخ الطوسي يناقش فكرة الاعتماد على الضمير بقوله : " وهذا غلط لما بيناه من التغليب وحسنه ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ... ﴾ [1].

٢- والشيخ محمد عبده يرى أنها تعني : جميع الأشياء وجميع ما يتعلق بعمارة الدين والدنيا من غير تحديد ولا تعيين[2] ولعل هذا الاتجاه هو الذي يظهر من كلام الشيخ الطوسي والرازي في تفسيرهما، وحكاه الطبرسي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وعليه أكثر المتأخرين .

٣- للشهيد الصدر: حيث جاء في بعض الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام وهي أن الأسماء عبارة عن أسماء العناصر والذوات الانسانية الموجودة في سلسلة امتداد الجنس البشري من الأنبياء والربانيين والأحبار الذين جعلهم الله تعالى شهودا على البشرية والإنسانية ، واستحفظهم الله تعالى على كتبه ورسالاته، ويكون وجود هذا الخط الإنساني الإلهي الكامل هو الضمان الذي أعده الله تعالى لهداية البشرية والسيطرة على الهوى وتوجيه الإرادة نحو الخير والصلاح والكمال. ويكون العلم بهذه الأسماء معناه تحقق وجودها في الخارج باعتبار مطابقة العلم للمعلوم ، وتعليم آدم الأسماء انما هو اخباره بوجودها . أو يكون العلم بالأسماء معناه معرفة هذه الكمالات التي يتصف بها هؤلاء المخلوقون وهي صفات وكمالات تمثل نفحة من الصفات والكمالات الإلهية ، خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن كلمة الأسماء في القرآن تطلق على الصفات الإلهية بنحو من الإطلاق.

---

[1] - النور: ٤٥.

[2] - المنار، ج١، ص٢٦٢.

س٨: ما رأي المصنف حول الرأيين المتقدمين؟

ج: أختار المصنف الرأي الثاني: إذ هو الذي ينسجم مع واقع الإنسان من ناحية وصحة التميز به والفضل على الملائكة لأنه يعبر عن خط التكامل الذي يمكن أن يسير به الإنسان ويمتاز به على جميع المخلوقات .

نظرية الاستخلاف :

بعد أن تعرفنا على آراء العلماء المختلفة تجاه المفاهيم البارزة التي جاءت في هذا المقطع القرآني ، لا بد لنا من معرفة الصورة الكاملة للمقطع القرآني لنستخلص نظرية استخلاف آدم منها .

صورتان لهذه النظرية :

وهنا صورتان لهذه النظرية بينهما كثير من وجوه الشبه :

الصورة الأولى : التي ذكرها السيد رشيد رضا في تفسيره عن أستاذه الشيخ محمد عبده : حيث يرى أن القصة وردت مورد التمثيل لغرض تقريبها من تناول إفهام الخلق لها لتحصل لهم الفائدة من معرفة حال النشأة الأولى . وعلى هذا الأساس يمكننا أنْ نفهم كثيرا من جوانب هذه المحاورة والألفاظ التي استعملت فيها دون أنْ نتقيد بالمعنى اللغوي العرفي لها :

١- فالله سبحانه أخبر الملائكة بأنه بصدد أن يجعل في الأرض خليفة عنه يودع في فطرته الإرادة المطلقة التي تجعله قادرا على التصرف حسب قدرته ومعلوماته التي لا يمكن أن تصل إلى مرتبة الكمال . وعلى أساس هذه الإرادة المطلقة وهذا العلم الناقص عرف الملائكة إنّ هذا الخليفة سوف يسفك الدماء ويفسد في الأرض لان ذلك نتيجة طبيعية لما يتمتع به من إرادة مطلقة يسير بها حسب علمه

الذي يحيط بجميع جوانب المصالح والمنافع ، الأمر الذي قد يوجه الإرادة إلى خلاف الحكمة والمصلحة فيقع في الفساد . وحين عرف الملائكة ذلك تعجبوا من خلق الله لهذا النوع من الخلق الذي يسفك الدماء ويفسد في الأرض فسألوا الله سبحانه (عن طريق النطق، أو الحال ، أو غير ذلك) أن يتفضل عليهم بإعلامهم عن ذلك وبيان الحكمة لهم . وكان الجواب لهم على ذلك هو بيان وجوب الخضوع والتسليم لمن هو بكل شيء عليم ، لان هذا هو موقف جميع المخلوقات تجاهه لأنه العالم المحيط بكل المصالح والحكم .

٢- على أن هذا النوع من الخضوع والتسليم الذي ينشأ من معرفة الملائكة بإحاطة الله بكل شيء قد لا يذهب الحيرة ولا يزيل الاضطراب، وإنما تسكن النفس بإظهار الحكمة والسر الذي يختفي وراء الفعل الذي حصل منه تعجب الملائكة . ولذلك تفضل الله سبحانه على الملائكة بأن أوضح لهم السر، وأكمل علمهم ببيان الحكمة في هذا الخلق، فأودع في نفس آدم وفطرته علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين الأمر الذي جعل لآدم امتيازا خاصا استحق به الخلافة عن الله في الأرض . ويظهر هذا الامتياز حين نقارن بين الإنسان وبين المخلوقات لله سبحانه ، فقد نطق الوحي ودل العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعا مختلفة وخص كل نوع منها بقدرات ومواهب، ولكن الإنسان مع ذلك يختلف عنها في أنه لما منحه الله من قدرات ومواهب ليست لها حدود معينة لا يتعداها على خلاف بقية المخلوقات . فالملائكة - الذي لا تتمكن من معرفة حقيقتهم إلا عن طريق الوحي - لهم وظائف محدودة - كما دلت الآيات والأحاديث - فهم يسبحون الله ليلا ونهارا وهم صافون ويفعلون ما يؤمرون إلى غير ذلك من الأعمال المحدودة .

٣- وما نعرفه بالنظر والاختبار عن حال الحيوان والنبات والجماد ، فإنها بين ما يكون لا علم له ولا عمل كالجماد ، أو يكون له عمل معين يختص به نفسه دون أنْ يكون له علم وإرادة، ولو فرض إنّ له علما أو إرادة فهما لا أثر لهما في جعل عملهما مبينا لحكم الله وسنته في الخلق ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها . فكل حي من الأحياء المحسوسة والغيبية - عدا الإنسان - له استعداد محدود وعلم إلهامي محدود وما كان كذلك لا يصلح أنْ يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته . وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفا وجاهلا ولكنه على ضعفه وجهله فهو يتصرف في الموجودات القوية ، ويعلم جميع الأسماء بما وهبه الله من قدرة على النمو والتطور التدريجي في إحساسه ومشاعره وإدراكه ، فتكون له السلطة على هذه الكائنات يسخرها ثم يذللها بعد ذلك كما تشاء قوته الغريبة التي يسمونها العقل ولا يعرفون حقيقتها ولا يدركون كنهها ، فهذه القوة نجدها تغني الإنسان عن كل ما وهب الله للحيوان في أصل الفطرة والإلهام من الكساء والغذاء والأعضاء والقوة . فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل . وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب أعطاه أحكاما وشرائع حدد فيها أعماله وأخلاقه ، وهي في الوقت نفسه تساعده على بلوغ كماله لأنها مرشد للعقل الذي كان له كل تلك المزايا . وبهذا كله استحق الإنسان خلافة الله في الأرض وهو خلق المخلوقات بها ، ونحن نشاهد في عصرنا آثار هذه الخلافة بما فعله الإنسان من تطوير وسيطرة وتصرف في الكون . وحين أودع الله في فطرة آدم علم الأشياء من غير تحديد عرض الأشياء على الملائكة وأطلعهم عليها اطلاعا اجماليا ، ثم طالبهم بمعرفتها والانباء بها وإذا بهم يظهرون

التسليم والخضوع والعجز والاعتراف . وعند ذلك أمر الله آدم أن ينبئهم بالأشياء ففعل، وذلك لتتكشف لهم الحقيقة بأوضح صورها واشكالها .

واما الصورة الثانية : فهي التي عرضها العلامة الطباطبائي وهي تختلف عن الصورة السابقة في بعض الجوانب ، ونحن نقتصر على ذكر جوانب الخلاف التي سبق أن أشرنا إلى بعضها :

١- إن خليفة الله موجود مادي مركب من القوى الغضبية والشهوية والدار دار تزاحم محدودة الجهات وافرة المزاحمات لا يمكن أن تتم فيها الحياة الا بايجاد العلاقات الاجتماعية وما يستتبعها من تصادم وتضاد في المصالح والرغبات ، الامر الذي يؤدي إلى الفساد وسفك الدماء .

٢- إن الملائكة حين تعجبوا كانوا يرون أن الغاية من جعل الخلافة هي أن يحكي الخليفة مستخلفه بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده ، والأرضية اي الانتماء إلى الأرض وشهواتها لا تدعه يفعل ذلك بل تجره إلى الفساد والشر والغاية من هذا الجعل يمكن ان تتحقق بتسبيحهم بحمد الله وتقديسهم له .

٣- إن آدم استحق الخلافة لقدرته على تحمل السر الذي هو عبارة عن تعلم الأسماء التي هي أشياء حية عاقلة محجوبة تحت حجاب الغيب محفوظة عند الله . وقد انزل الله كل اسم في العالم بخيرها وبركتها واشتق كل ما في السماوات والأرض من نورها وبهائها، وأنهم على كثرتهم وتعددهم لا يتعددون تعدد الأفراد وإنما يتكاثرون بالمراتب والدرجات .

الموازنة بين الصورتين :

ويحسن بنا أنْ نوازن بين هاتين الصورتين لنخرج بالصورة الكاملة التي نراها صحيحة لتصوير هذا المقطع القرآني ، ولنأخذ النقاط الثلاث التي خالف فيها العلامة الطباطبائي الشيخ محمد عبده.

ففي النقطة الأولى: قد نجد العلامة الطباطبائي على جانب من الحق كما نجد الشيخ محمد عبده على جانب آخر منه ، ذلك لان العلامة الطباطبائي أكد ما فطر عليه الإنسان من غرائز وعواطف مختلفة ، وهذا شيء صحيح لما لهذه الغرائز من تأثير كبير في حصول التزاحم والتنافس في المجتمع الإنساني، الأمر الذي يؤدي إلى الفساد وسفك الدماء ، واساس هذه الغرائز غريزة حب الذات التي جاءت الأديان السماوية ومنها الاسلام من اجل توجيهها توجيها صالحا يدفعها إلى تجنب الفساد والسفك للدماء ، ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد دور الهوى في الفساد وسفك الدماء. والشيخ محمد عبدة حين يغفل هذا الجانب – في مسألة معرفة الملائكة للفساد وسفك الدماء – يؤكد جانبا آخر له دور كبير أيضا في الفساد وسفك الدماء ، وهو الإرادة المطلقة والمعرفة الناقصة فلولا هذه الإرادة ولولا هذا النقص في العلم لما كان السفك والفساد .

وفي النقطة الثانية: (١)نجد الشيخ محمد عبده يحاول أن يذكر إنّ الشيء الذي أثار السؤال لدى الملائكة هو قضية أن هذا المخلوق المريد ذا العلم الناقص لا بد أن يكون مفسدا في الأرض وسافكا للدماء ، ومن ثم فلا مبرر لجعله خليفة مع ترتب هذه الآثار على وجوده .

وأما العلامة الطباطبائي فهو يحاول أن يذكر في أن الشيء الذي أثار السؤال هو أن الخليفة لا بد أن يكون حاكيا للمستخلف (الله) بخلاف الملائكة ، حيث يمكن أن يحكوا المستخلف من خلال تسبيحهم وحمدهم .

وفي هذه النقطة قد يكون الحق إلى جانب العلامة الطباطبائي، ذلك لان التفسير الإلهي لهذه الخلافة كان من خلال بيان امتياز هذا الخليفة بالعلم، كما قد يفهم من الآية، وأشار إليه الشيخ محمد عبده ، مع أن هذا التفسير لا ينسجم مع النقطة التي ذكرها الشيخ عبده لأنه افترض في أصل إثارة السؤال وجود العلم الناقص إلى جانب الإدارة ، فكيف يكون هذا العلم - بالشكل الذي ذكره الشيخ محمد عبده ، وهو علم ناقص على أي حال - جوابا لهذا السؤال ؟ (٢) نعم لو افترضنا أن العلم الذي علمه الله تعالى لآدم هو الرسالات الإلهية الهادية للصلاح والرشاد والحق والكمال - كما أشار الشيخ محمد عبده إلى ذلك في النقطة الثالثة - فقد يكون جوابا لسؤال الملائكة لانّ مثل هذا العلم يمكن أن يصلح شأن الإرادة والاختيار الذي أثار المخاوف ، ولكن هذا خلال الظاهر ، حيث يفهم من ذيل هذا المقطع الشريف: ﴿. . . فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. أن هذا الهدى الذي هو الرسالات الإلهية الهادية جاء بعد هذا التعليم لآدم . (٣) وأما لو افترضنا أن الذي أثار السؤال لدى الملائكة هو الإرادة والاختيار فقط - كما اختاره أستاذنا الشهيد الصدر ﷺ - أصبح بيان الامتياز بالعلم والمعرفة جوابا للسؤال وتهدئة للمخاوف التي انثارت لدى الملائكة ، لان هذا العلم يهدي إلى الله تعالى ويتمكن هذا الانسان بفطرته من أن يسير في طريق التكامل .

وأما العلامة الطباطبائي فقد اعتبر الانتماء إلى الأرض والتزاحم بين المصالح فيها هو الذي يؤدي إلى الفساد، ويكون العلم بالأسماء طريقا وعلاجا لتجنب هذه الأخطار ، لان الأسماء بنظره موجودات عاقلة حية .

وفي النقطة الثالثة: يفترض الشيخ محمد عبده أن العلم هو الذي جعل الإنسان مستحقا للخلافة ، وهذا العلم ذو بعدين :

أحدهما: العلوم الطبيعية التي يمكن للإنسان أن يحصل عليها من خلال التجارب والبحث ، والتي يتمكن الإنسان بواسطتها من الهيمنة على العالم المادي الذي يعيش فيه ، كما نشاهد ذلك في التأريخ وفي عصرنا الحاضر بشكل خاص .

والآخر: العلم الإلهي المنزل من خلال الشريعة ، والذي يمكن للإنسان من خلاله أن يعرف طريقه إلى الكمالات الإلهية ويشخص المصالح والمفاسد والخير والشر. وهذا التصور ينسجم مع إطلاق كلمة العلم في الآية الكريمة ، ومع فرضية أن الجواب الإلهي للملائكة إنما هو تفسير لجعل الإنسان خليفة ، لان الجواب ذكر خصوصية (العلم) كامتياز لآدم على الملائكة . كما ينسجم هذا التصور مع ما أكده القرآن الكريم في مواضع متعددة من دور العقل ومدركاته في حياة الإنسان ومسيرته وتسخير الطبيعة له ، وكذلك دور الشريعة في تكامل الإنسان ووصوله إلى أهدافه .

ولكن هذا التصور نلاحظ عليه: من أن الشريعة قد افترض نزولها في هذا المقطع الشريف بعد هذا الحوار: ﴿. . . فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [1]. كما أن الظاهر أن الإرادة والاختيار يمثلان ميزة أخرى

[1] – البقرة: ٣٨.

لآدم والإنسان بشكل عام على الملائكة ، وأن هذه الخصوصية هي التي أثارت مخاوف الملائكة وسؤالهم ، كما نبهنا عليه وأشار إليه الشيخ محمد عبده . وبذلك يكون استحقاق آدم للخلافة وجود هاتين الخصوصيتين فيه .

الدرس العشرون

استخلاف آدم (الإنسان)

الفصل الثاني : مسيرة الاستخلاف

الفصل الثاني : مسيرة الاستخلاف :

وهي مسيرة تحقق الخلافة في الأرض ، فيقع الكلام فيه أيضا في جانبين :

الجانب الأول: المفاهيم والتصورات:

السجود لآدم :

س١: إذا كان السجود منحصر بالله سبحانه وتعالى، فلماذا أمر الله السجود لآدم حيث إنه في الشريعة المقدسة يحرم السجود لغير الله تعالى، فكيف صح أن يطلب من الملائكة السجود لآدم ؟

ج: وهذا السؤال ينطلق من فكرة وهي أن السجود بحد ذاته عبادة، والعبادة لغير الله شرك وحرام ، حيث تقسم الأفعال العبادية إلى قسمين :

أحدهما: الأفعال التي تتقوم عباديتها بالنية وقصد القربة كالإنفاق (الزكاة والخمس) أو الطواف بالبيت الحرام أو القتال ، أو غير ذلك ، فان هذه الأفعال إذا توفرت فيها نية القربة وقصد رضا الله تعالى تكون عبادة لله تعالى ، وبدون ذلك لا تكون عبادة ، ومن ثم فهي تتبع نيتها في تشخيص طبيعتها .

والآخر: الأفعال التي تكون بذاتها عبادة ويذكر (السجود) منها ، حيث إنه عبادة بذاته ، ولذا يحرم السجود لغير الله لأنه يكون بذاته عبادة لغير الله .

ولكن هذا التصور غير صحيح: فان السجود شأنه شأن الأفعال الأخرى التي تتقوم عباديتها بالقصد والنية ، ولذا فقد يكون السجود سخرية واستهزاء ، وقد يكون لمجرد التعظيم وقد يكون عبادة إذا كان بنيتها . ولذا نجد في القرآن الكريم في بعض الموارد الصحيحة يستخدم السجود تعبيرا عن التعظيم كما في قصة إخوة

يوسف ، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً. . . ﴾[1] .

وإنما كان السجود لغير الله حراما لأنه يستخدم عادة في العبادة، فأريد للإنسان المسلم أن يتنزه عما يوهم العبادة لغير الله تعالى . وأما إذا كان السجود للتعظيم وبأمر من الله تعالى، فلا يكون حراما، بل يكون واجبا.

س٢: ماذا يعني سجود الملائكة؟

ج: يوجد رأيان:

الأول: ذكر بعض المفسرين - انطلاقا من فكرة أن هذا الحديث لا يراد منه إلا التربية والتمثيل وليس المصاديق المادية لمفرداته ومعانيه - أن السجود المطلوب إنما هو خضوع هذه القوى المتمثلة بالملائكة للإنسان ، بحيث إن الله تعالى أودع في شخصية هذا الإنسان وطبيعته من المواهب ما تخضع له هذه القوى الغيبية وتتأثر بفعله وإرادته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا...﴾ [2].

الثاني: كما أنه يمكن أن يكون هذا السجود سجودا حقيقيا بالشكل الذي يتناسب مع الملائكة، ويكون طلب السجود منهم لآدم من أجل أن يعبروا بهذا السجود عن خضوعهم أو تقديسهم لهذا المخلوق الإلهي المتميز، بما أودع الله فيه من روحه ووهبه العلم والإرادة والقدرة على التكامل والصعود إلى الدرجات الكمالية العالية .

1- يوسف: ١٠٠.

2 - فصلت: ٣٠.

س٣: ما الذي أختاره المصنف من الرأيين السابقين؟

ج: أختار الرأي الثاني، إذ هو الظاهر من مجموعة الصور والآيات القرآنية التي تحدثت عن هذا الموضوع ، حيث نلاحظ أن امتناع إبليس عن السجود إنما كان بسبب الاستكبار لتفضيل هذا المخلوق ، حيث كان يطرح في تفسير عدم السجود أنه أفضل من آدم : ﴿...قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[1] ، كما أن القرآن الكريم يشير إلى أن الإنسان الصالح المخلص يكون خارجا عن قدرة إبليس ومكره ، ومن ثم فهو مهيمن على هذه القوة الشيطانية : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ۞ إلا عبادك منهم المخلصين﴾[2].

س٤ : هل إبليس من الملائكة أم لا ؟

فإذا كان من الملائكة فكيف يعصي الله تعالى ، وقد وصف الله تعالى الملائكة بأنهم ﴿...عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[3] لا يخالفون و﴿ لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون﴾[4] وإذا كان من الجن فلماذا وضع إلى جانب الملائكة في هذه القصة ؟

الجواب: يوجد رأيان:

الأول: إنّ إبليس من الجن: قال الشيخ المفيد: ((وأقول : إن إبليس من الجن خاصة ، وإنه ليس من الملائكة ولا كان منها ، قال الله تعالى :﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ ، وجاءت الأخبار متواترة عن أئمة الهدى من آل محمد – عليهم السلام – بذلك ، وهو مذهب الإمامية كلها . وكثير من المعتزلة

---

[1]- الأعراف: ١٢.

[2]- ص: ٨٢-٨٣.

[3]- الأنبياء: ٢٦.

[4]- التحريم: ٦.

وأصحاب الحديث))[١]. توجد بعض الشواهد على كونه من الجنّ ومن هذه الشواهد:

أ- وصف القرآن له: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ...﴾[2].

ب- أن أوصاف الملائكة لا تنطبق على إبليس ، حيث إنهم وصفوا بالطاعة وقد تمرد إبليس، ووصفوا بأنهم رسل : ﴿ . . . جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ . . . ﴾[٣] .

ت- أنّ الملائكة لا ذرية لهم ، إذ لا يتناسلون ولا شهوة لهم، وأما إبليس فله ذرية كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ...﴾ [٤].

الثاني: كونه من الملائكة، وأمّا تلك الشواهد فلا تكفي في عدّ إبليس من الجن في مقابل الملائكة ، وذلك:

أ- لأنّ وصف القرآن الكريم لإبليس بأنه من الجن يمكن أن يكون من ناحية أن بعض الملائكة يوصف بأنه جن ، إن لم يكن هذا الوصف عاما لهم ، لانّ الجن مأخوذ من الخفاء والستر ، والملائكة مستورون عن عوالمنا ومشاهدنا .

ب- كما نلاحظ هذا الوصف في نسبة الملائكة إلى الله تعالى عند المشركين، حيث افترضوا إنّ الملائكة هم بنات الله - على ما ورد في القرآن الكريم - وفي

---

[1] - أوائل المقالات - الشيخ المفيد - ص ١٣٣

[2] -الكهف: ٥٠.

[3]- فاطر: ١ .

[4]- الكهف: ٥٠.

نفس الوقت يصف القرآن الكريم هؤلاء الملائكة بأنهم جنة : ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً . . . ﴾[1].

ت- كما أن الطاعة ليست صفة لازمة لعنوان الملائكة ، بل نلاحظ في القرآن الكريم حصول التمرد لدى بعض الملائكة كما في الملكين هاروت وماروت [2].

ث- وكذلك موضوع (الذرية) فإنها يمكن أن تكون من الخصوصيات التي اختص بها إبليس ليقوم بهذا الدور الخاص له في حياة الإنسان .

إنْ قلت: توجد بعض الروايات ما يشير إلى أن إبليس كان من الجن وليس من الملائكة، وإنما كان يعاشرهم وأنهم كانوا يظنون أنه منهم .

قلت: لا يمكن الاعتماد على مثل هذه الروايات ، لضعفها سنداً، أو مناقشتها متناً.

جاء في البحار: ((أن إبليس كان من طائفة من الملائكة يسمون جنا من حيث كانوا خزنة الجنة وقيل : سموا جنا لاجتنانهم من العيون ، واستشهدوا بقول الأعشى في سليمان عليه السلام : وسخر من جن الملائك تسعة قياما لديه يعملون بلا أجر))[3] .

س٥: هل خلق آدم للجنة أم للأرض ؟

فقد يبدوا أنه خلق للأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[4] أو انه مخلوق للجنة وبعد العصيان طرد للأرض ، كما يفهم ذلك من

---

[1]- الصافات: ١٥٨.

[2]- البقرة: ١٠٢.

[3] - بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٦٠ - ص ٢٨٦ - ٢٨٧

[4]- البقرة: ٣٠.

القسم الثاني من هذا المقطع الشريف : ﴿ وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ [١] ؟

ج: **أولاً**: أن آدم إنما خلق للأرض وخلافة الله فيها، وكان وجوده في الجنة هو مرحلة متقدمة (تأهيلية) تؤهله للقيام بدور الخلافة حيث لم يكن من الممكن لآدم أن يقوم بهذا الدور بدون هذا التأهيل والتجربة التي خاضها في الجنة، على ما سوف نوضح هذا الأمر في بيان الجانب الآخر .

ثانياً: أن هذه الجنة يمكن أن تكون جنة أرضية وليست جنة (الخلد) ، إذ لا يوجد دليل على أنها جنة الخلد، وكان هبوطه وإخراجه منها يعني بداية دور تحمل المسؤولية والتعب والجهد من أجل الحياة واستمرارها ، فهو منذ البداية كان على الأرض ولكن في مكان منها لا تعب ولا عناء فيه ، وقد تهيأت له جميع أسباب العيش والراحة والاستقرار، وبعد المعصية بدأت حياة جديدة تختلف عن الحياة السابقة في خصوصياتها ومواصفاتها وان كانت على الأرض أيضا .

س٦ :كيف تسنى لإبليس أن يغوي آدم في الجنة مع أن دخولها محرم على إبليس؟

ج: **أولاً**: يمكن أن تكون هذه الجنة أرضية ولم يمنع من دخولها ، ولعل ضمير الجمع في قوله تعالى : ﴿... وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ [٢] يشير إلى ذلك .

ثانياً: إنّ عملية الإغواء يمكن أن تكون من خلال وجوده في خارج الجنة ، لان الخطاب بين أهل الجنة وغيرهم ممن هو في خارج الجنة ميسور ، كما دل على ذلك القرآن الكريم في خطاب أهل الجنة وأهل النار: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ

[1]- البقرة: ٣٥.

[2]- البقرة: ٣٦.

أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [1].

وفي خطاب أصحاب الجنة لأصحاب النار : ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أنْ قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ [2].

خطيئة آدم :

س١: ما خطيئة آدم وغوايته وعصيانه: (وعصى آدم ربه فغوى) [3]؟

ج: والجواب يقع في أمورٍ عدة:

أولاً: مما لاشك فيه — حسب الروايات — أنّ آدم عليه السلام من الأنبياء.

ثانياً: والأنبياء معصومون من الذنب والزلل والغواية منذ بداية حياتهم.

ثالثاً: وأمّا ما ورد في الآية الشريفة فممكن أنْ نفسر جدية هذه المخالفة والعصيان على أساس اتجاهين :

الاتجاه الأول: أن يكون النهي الإلهي هنا هو نهي (إرشادي) [4] أريد منه الإرشاد إلى المفاسد الموجودة في أكل الشجرة وليس نهيا (مولويا) يراد منه التحريك

---

[1]- الأعراف: ٥٠.

[2]- الأعراف: ٤٤

[3]- طه: ١٢١.

[4]- تقسم الأوامر والنواهي في الشريعة إلى قسمين : مولوي وارشادي ، والمراد من (المولوي) ما يصدر من المولى ، باعتباره مولى له حق الطاعة ويكون فيه إرادة جديدة للطلب والتحرك نحو المطلوب أو الزجر عن المنهي عنه ، كما في أوامر الصلاة والزكاة والجهاد والحج والنهي عن شرب الخمر والزنا والسرقة ، و (الارشادي) هو الذي يكون للارشاد إلى المصلحة أو المفسدة ، كما في الأوامر والنواهي في موارد المعاملات غالبا ، حيث يكون ارشادا لبطلان المعاملة أو صحتها ، أو كما في أوامر الأطباء والمهندسين والعلماء التجريبيين

والطلب الجدية والمعصية المستحيلة على الأنبياء والتي توجب العقاب هي في الأوامر المولوية وليست الارشادية .

الاتجاه الثاني: أن يكون النهي الإلهي هنا نهيا مولويا كما - هو الظاهر - وحينئذ فيفترض بأن الأنبياء معصومون من الذنوب المتعلقة بالأوامر والنواهي التي يشتركون فيها مع الناس، وأما الأوامر والنواهي الخاصة بهم فلا يمتنع عليهم صدور الذنب بعصيانها وليسوا معصومين تجاهها ، وهذا النهي الذي صدر لآدم إنما هو خاص به، ولذا لم يحرم على ذريته من بعده أكل الشجرة .

ومن هنا نجد القرآن الكريم ينسب الظلم والذنب أحيانا لبعض الأنبياء باعتبار هذه الأوامر الخاصة كما حصل لموسى عليه السلام: ﴿قال ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم ﴾[1].

مع أن قتل الفرعوني الظالم الكافر ليس ذنبا وحراما على الناس بشكل عام ، وإنما كان حراما على موسى لخصوصية في وضعه .

ومن هنا ورد أن حسنات الأبرار سيئات المقربين باعتبار أن لهم تكاليف خاصة بهم تتناسب مع مستوى الكمالات التي يتصفون بها .

الجانب الثاني : التصور العام لمسيرة الخلافة :

وهنا نشير إلى تصورين :

فإنهم لا يستحقون الطاعة بما هم سادة ، وأولوا الامر والولاية ، بل لان متعلقات أوامرهم ونواهيهم فيها مصالح ومفاسد ، فعندما يأمر بشرب الدواء فهذا يعني أن شرب الدواء فيه مصلحة ، وكذا عندما ينهي عن أكل شئ فإنه يعني أن أكله فيه ضرر ومفسدة .

[1]- القصص: ١٦.

التصور الأول: ما ذكره العلامة الطباطبائي ﷺ في الميزان ، حيث يفترض أن هذه المسيرة بدأت من وضع آدم وزوجه في الجنة من أجل أن ينتقل إلى الأرض بعد ذلك ، وكان لا بد له من التعرض إلى المعصية من أجل أن يتحقق هذا النزول إلى الأرض ، إذ لا يمكن أن يحصل على التكامل الإنساني الذي يؤهله لهذه الخلافة ما لم يتعرض إلى المعصية والنزول إلى الأرض بعد ذلك . وذلك لان تكامل الإنسان إنما يحصل من خلال توفر عنصرين وعاملين أساسيين :

أحدهما: شعور الإنسان بالفقر والحاجة والمسكنة والذلة، أو بتعبير آخر شعور الإنسان بالعبودية لله تعالى الذي يدفعه للحركة والتوجه إلى الله تعالى والمصير إليه **والآخر:** هو عفو الله تعالى ورضوانه ورحمته وتوفيقه لهذا الإنسان ، وإمداده بالعطاء والفضل الإلهي . فشعور الإنسان بالحاجة يجعله يتحرك لسد هذه الحاجة ، والفضل والعطاء الإلهي هو الذي يحقق الغنى النسبي للإنسان ويسد النقص والحاجات لدى هذا الإنسان فيتكامل . وإذا لم يشعر الإنسان بالحاجة فلا يسعى إلى الكمال حتى لو كان محتاجا في واقع الحال ، وإذا لم يتفضل الله على هذا الإنسان بالعفو والرحمة والعطاء يبقى هذا الإنسان ناقصا ومتخلفا في حركته . وما ذكر في قصة آدم إنما يمثل هذين الأمرين معا . فلو لم ينزل الإنسان إلى الأرض لا يشعر بالحاجة ، حيث كان يعيش في الجنة يأكل ويشرب بدون تعب أو عناء ، فطبيعة هذه الجنة : ﴿ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ۞ وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾[1]. ولو لم تصدر من آدم المعصية فلا يمكن أن يحصل على تلك الدرجات العالية من الرحمة والمغفرة التي حصل عليها الإنسان في حالات

---

[1]– طه: ١١٨–١١٩.

الرجوع والتوبة، حيث يفترض العلامة الطباطبائي وجود درجات من الرحمة والمغفرة مرهونة بالتوبة والإنابة ، قال : " فلله تعالى صفات من عفو ومغفرة وتوبة وستر وفضل ورأفة ورحمة لا ينالها إلا المذنبون . . . فهذه التوبة هي التي استدعت تشريع الطريق الذي يتوقع سلوكه وتنظيف المنزل الذي يرجى سكونه ، فوراءها تشريع الدين وتقويم الملة)) [1].

س٢ : القصة وراءها قضاءان قضاهما الله تعالى في آدم ، ما هما؟

القضاء الأول: الهبوط والخروج من الجنة والاستقرار على الأرض وحياة الشقاء فيها، وهذا القضاء لازم حتمي لأكل الشجرة ، حيث بدت سوآتهما ، وظهور السوءة لا يناسب حياة الجنة ، بل الحياة الأرضية ، ومن هنا كان إخراجهما من الجنة بعد العفو عنهما ، ولولا ذلك لكان مقتضى العفو هو بقاؤهما في الجنة .

القضاء الثاني: إكرام آدم بالتوبة حيث طيب الله تعالى بها الحياة الأرضية التي هي شقاء وعناء، وبها ترتبت الهداية إلى العبودية الحقيقية ، فتآلفت الحياة من حياة أرضية وحياة سماوية [2].

فنزول آدم إلى الأرض وإن كان فيه ظلم للنفس وشقاء ، إلا أنه هيأ لنفسه بنزوله درجة من السعادة ومنزلة من الكمال ما كان ينالها لو لم ينزل ، وكذلك ما كان ينالها لو نزل من غير خطيئة .

التصور الثاني: ما ذكره أستاذنا الشهيد الصدر ﵀: أن الله سبحانه قدر لآدم –الذي يمثل أصل الجنس البشري – أنْ يمر بدور الحضانة التي يمر بها كل طفل ليتعلم

---

[1]– تفسير الميزان، ج١، ١٣٤.

[2]– المصدر نفسه.

الحياة وتجاربها ، فكانت هذه الجنة الأرضية التي وجدت من أجل تربية الاحساس الخلقي لدى الانسان والشعور بالمسؤولية وتعميقه من خلال امتحانه بما يوحيه إليه من تكاليف وأوامر . وقد كان النهي عن تناول الشجرة هو أول تكليف يوجه إلى هذا الخليفة ليتحكم في نزواته وشهواته ، فيتكامل بذلك ولا ينساق مع غريزة الحرص وشهوة حب الدنيا التي كانت الأساس لكل ما يشهده مسرح التأريخ الانساني من ألوان الاستغلال والصراع . وقد كانت المعصية التي ارتكبها آدم هي العامل الذي يولد في نفسه الاحساس بالمسؤولية من خلال مشاعر الندم فتكامل وعيه بهذا الاحساس ، في الوقت الذي كانت قد نضجت لديه خبرات الحياة من خلال وجوده في الجنة . وكان الهدى الإلهي يتمثل بخط الشهادة وهو الوحي الإلهي الذي يتحمل مسؤوليته الأنبياء لهداية البشرية . وبذلك تتكامل المسيرة البشرية ويتطور الإنسان ويسمو على المخلوقات من خلال التعليم الرباني والهدى الإلهي الذي يجسده شهيد رباني معصوم من الذنب يحمله إلى الناس من أجل تحصينهم من الضلال: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [1] .

س٣: ذكر المصنف حول التصورين المذكورين عدة ملاحظات، أذكرها؟

ج: **الملاحظة الأولى** : انه يمكن تكميل الصورة : بأن الإسكان في الجنة في الوقت الذي يمثل مرحلة الإعداد والتهيؤ يعبر في نفس الوقت عن هدف إلهي وهو : أن مقتضى الرحمة الإلهية بالانسان هو أن يعيش حياة الاستقرار والسعادة بعيدا عن الشقاء ، وأن مسيرة الشقاء إنما هي اختيار الإنسان ، ولذا بدأ الله تعالى

---

[1] – البقرة: ٣٨.

حياة الإنسان بالجنة وشمله برحمته الواسعة من خلال التوبة والسداد الإلهي بالهدى الذي أنزله على الأنبياء . كما أن الخطيئة هي التي فجرت في الإنسان – إضافة إلى إحساسه بالمسؤولية – إدراكه للحسن والقبح والخير والشر ، ولعل هذا هو الذي أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ . . . فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ . . . ﴾ [1]. وكان هذا الإدراك ضروريا للإنسان من أجل أن يكون قادرا على مواجهة مشكلات الحياة وألوان الصراع فيها وتمييز الحق من الباطل ، والخير من الشر ، والمصلحة من المضرة ، ويخلق فيه حالة التوازن الروحي والنفسي في مقابل ضغوط الشهوات والغرائز . وقد كان من الممكن أن يحصل هذا الإدراك من خلال الحضانة الطويلة والتجربة الذاتية في حياته في الجنة ، ولعل هذا هو الهدف من وضعه في الجنة ليمر بهذه الحضانة الطويلة ، كما يحصل للإنسان في تجاربه في الطفولة ، حيث تنمو فيه هذه المعرفة تدريجا.

وقد فتح الله سبحانه وتعالى أمامه باب التوبة والرجوع إليه ليتمكن الإنسان من مواصلة طريقه عندما يضعف ويقع في الخطيئة ، وبذلك يتكامل عندما يكون قادرا على التغلب على شهواته والسيطرة على رغباته .

الملاحظة الثانية: أن العلامة الطباطبائي لم يوضح دور الخطيئة في معرفة السوءات، كما لم يوضح عدم انسجام السوءات مع حياة الجنة ، ولعله يريد من دور الخطيئة في معرفة السوءات ما أشرنا إليه من دورها في الإحساس الخلقي للإنسان في إدراكه للحسن والقبح، وكذلك لان حياة الجنة يراها حياة طاهرة

---

[1] – البقرة: ٣٨.

ونظيفة لا تنسجم مع السوءات ، وهو معنى عرفاني حيث لم يشر القرآن الكريم إلى أن آدم عليه السلام لم تكن لديه سوءة قبل الخطيئة، أو أنها وجدت بعد الخطيئة، وإنما أشار إلى أن إدراكه للسوءة إنما كان بعد الخطيئة والذنب .

الملاحظة الثالثة: أن الشهيد الصدر قدس سره لم يذكر في تكون مسار الخلافة على الأرض دور التوبة في هذا المسار ، مع أن التوبة لها دور أساس يمكن من خلاله أن يستأنف الإنسان عمله وتجربته في هذه الحياة ويصعد بسببها في مدارج الكمال .

الملاحظة الرابعة: أن الكمالات الإنسانية يمكن أن نتصورها بدون خطيئة ويتكامل فيها الإنسان من خلال الطاعة والإحساس بالعبودية لله سبحانه وتعالى ، إلا إذا كان مقصوده من الخطيئة ليس مجرد المخالفة، وإنما إحساس الإنسان بالحاجة والتقصير في حق الله تعالى وشكره لنعمه، الأمر الذي يدفعه إلى الاستزادة من الأعمال الصالحة والرجوع إلى الله تعالى والإنابة إليه

الملاحظة الخامسة: أن العلامة الطباطبائي قدس سره تصور إنّ الجنة سماوية والشهيد الصدر قدس سره تصورها أرضية، وهذا التصور الثاني في الوقت الذي ينسجم مع بعض الروايات، يتوافق أيضا مع فرضية خلق الإنسان للأرض، والله سبحانه أعلم[1].

[1] – الإسلام يقود الحياة : ١٥٢ – ١٥٣

الفهرس